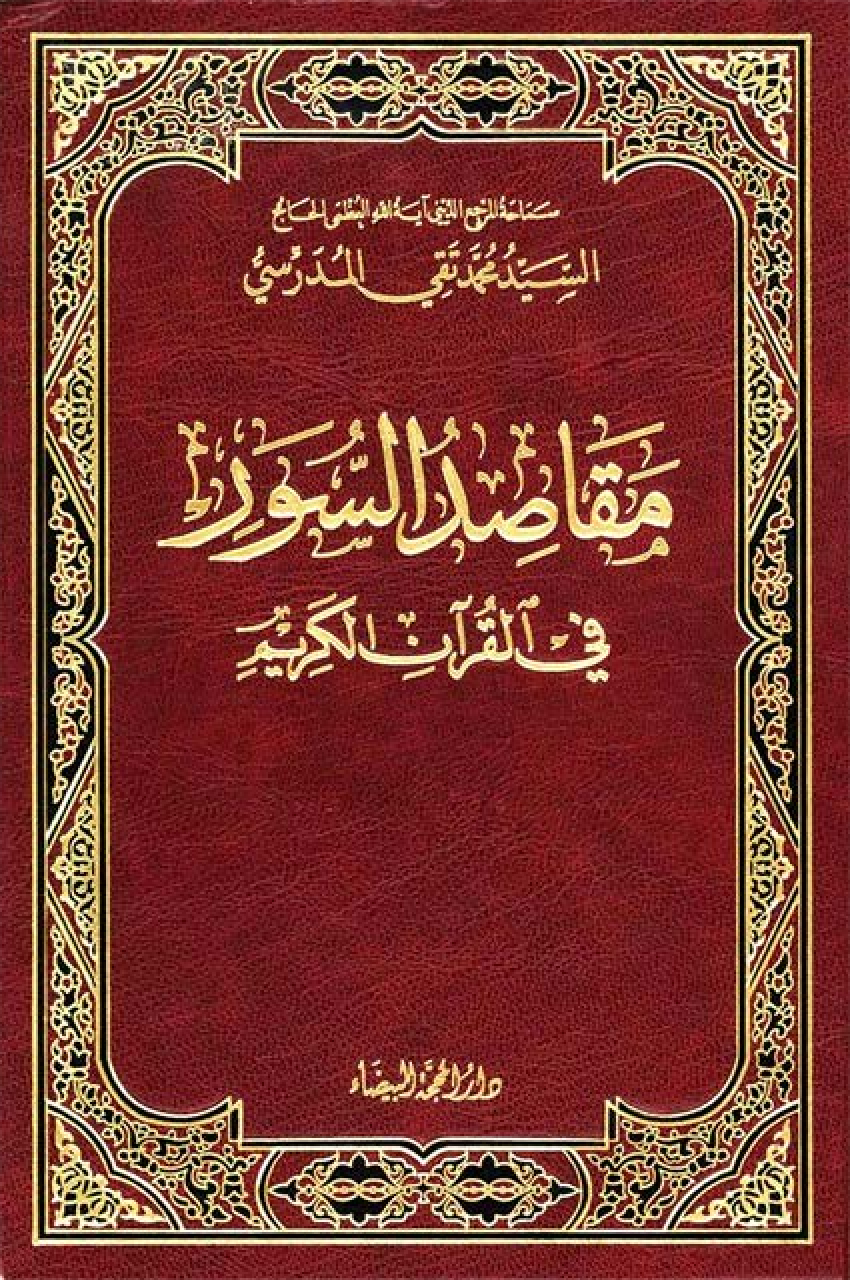

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى المجاهد
السيد محمد تقي المدرسي
مقاصد السور
في القرآن الكريم
دار المحجة البيضاء


مقاصد السور
في القرآن الكريم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

مقاصد السور

في القرآن الكريم

١٤٣٤

دار المحجة البيضاء

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

تعريف الكتاب

■ الكتاب: مقاصد السور في القرآن الكريم.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية ١٤٣٤/ ٢٠١٣م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).


■ الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.





الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٠٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ(٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



* تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

كلمة السورة مشتقة من (السور)، بمعنى الإطار المتّحد للشيء. والسورة تعني واحدة من الأطر التي تحدد مجموعة أفكار معينة، وتعطينا في المجموع شخصية متفاعلة. وربما نستطيع أن نعبر عنها بـ(وحدة فكرية) قياساً بتعبيرنا: وحدة حرارية، ووحدة ضوئية، أو أية وحدة كمية أخرى.

ولعل هذا اللفظ أفضل من التعبير بـ(الفصل.. القسم.. البحث الأول و.. و..)؛ لأن لفظ (سورة) لا يدل على فصل القرآن بعضه عن بعض وتقسيمه أقساماً مختلفة، مما قد يوحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن، بل يدل على مدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيات قرآنية تشكلها السورة الواحدة، حتى إننا نستطيع تحديدها بإطار واعتبارها وحدة فكرية مستقلة.

وقد حدد بعض المفسرين نظراته حول سور القرآن عبر الموضوعات العامة والمشتركة بينها وبين سائر السور، فكل سور القرآن -في تصوره- تدور حول ضرورة توحيد الله، والإيمان بحاكميته المطلقة على الأرض والسماء والإنسان، وهكذا.

لا شك في أن هذا صحيح ولكن لا يكفي ذلك وحده، فالمواضيع الهامة موجودة في كل السور، فلماذا إذاً تكررت، وما هي الفوارق بينها؟ وهل يكفي لنعرف مدينة أن نقول: إنها بُنيت من الطوب والإسمنت، وإن شوارعها معبدة، أم أنه يجب أن نرسم خريطة تفصيلية لها ولشوارعها، وأسواقها، وجغرافيتها الطبيعية، وجغرافيتها الاقتصادية، والبشرية وما أشبه؛ لكي يتضح الفرق بينها وبين المدن الأخرى؟

مضافاً إلى أن العلم هو الإحاطة بدقائق الأمور، وحدود الأشياء التي تفصلها عن سواها.

والإحاطة بعلوم القرآن والتبصُّر بآياته تتطلَّب خبرة بالموضوعات المتميزة في سور القرآن، وما يميز هذه الموضوعات عن مثيلاتها في سائر السور مع العلوم والمعارف الجديدة التي تُستلهم من كل سورة، ومن كل آية من هذه الآيات، بل حتى الآية الواحدة التي تأتي في القرآن مرتين بالألفاظ نفسها، وبالتعابير نفسها، ومن دون أية زيادة أو نقيصة؛ يجب أن نبحث فيها عن معارف جديدة تميزها من التي سبقتها أو التي تلحقها بسبب اختلاف السياق.

فإن أيَّة آية جديدة تنزل من السماء مرة جديدة لا بد أن تحمل فكرة جديدة أيضاً، ففي معرفتنا للسورة القرآنية وموضوعاتها يجب أن نبحث عما يميزها من سائر السور، في الوقت نفسه الذي نبحث فيه عن الخطوط العامة المشتركة بينها وبين سائر السور.

فآيات القرآن من نسق واحد، بعض آياته مثل بعضها، لأن أصولها واحدة وبلاغتها واحدة، وفي المستوى نفسه؛ إذ كل آيات القرآن تدل على الإعجاز، كما تدل على أنها من الله عز وجل، وليست من البشر، ولكن -في الوقت نفسه- نجد أن لكل آية من آيات القرآن موضوعاً خاصًّا بها، وموضوعات أعم بالنسبة إلى سياقها، وأعم بالنسبة إلى السورة الواحدة التي نجد الآية فيها.

وقد فصَّل الحديث في ذلك سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي في تفسيره (من هدى القرآن) عند بداية تفسيره لكل سورة، وقد رأينا أن نجمعها في كتاب واحد، بغية أن ينال القارئ مراده في الإحاطة بمضامين سور القرآن.

سائلين الله تعالى أن يجعل فيه الفائدة المرجوة، وأن يتقبله منا بقبول حسن، إنه ولي التوفيق.

القسم الثقافي في مكتب
المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي
طهران - ٢٢/ محرم/ ١٤٢٤هـ

* المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد و آله الطاهرين.

القـرآن الكريم يبقى -وإلى الأبد- حبـل النجاة للبشرية إذا عصفت بها الأخطار، وهو العروة الوثقى التي مدّها ربّنا الرحمن لعباده لكي يتمسّكوا بها عند الشدائد.

إنـه ضياء عنـد أحلـك الظلـمات، وفرقان عنـد تكاثف ضباب الشـبهات، وشـفاء الصدور من أدران العصبيات والعُقَد. وهكذا تنساب آياته الكريمة، وعبر سوره المتشابهة، لتحقيـق تلكم الأهداف السـامية. ومن هنا فإن تلك الآيـات تنتظم في إطار الأهداف بنظم عظيم الروعة والدقة، ويختلف تماماً عن تنظيم أي كتاب آخر، لأنّ سائر الكتب لا ترقى إلى مستوى كتاب الرب في مسـعى تلكم الأهداف، اللهم إلّا بقدر ما تسـتضيء بالقرآن. ومن هنا حارت العقول في نظم كتاب ربنا المجيد، كما حارت في أنه نثر أو شعر؟!.

كلّا؛ إنّه قرآن فضلُهُ على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه سبحانه.

بلى؛ مَنْ تدبَّر في آياته الكريمة، قد يوفّقه الرب لبعض لطائف ذلك النظام.

ومنـذ أكثـر من ثلاثة عقـود مضت، عندما كنتُ أسـجّل ما يُعرِّفني الـرب من معارف القرآن الكريم، عند التدبر في آيات الذكر، وذلك ضمن موسـوعة (من هدى القرآن)، والذي يسميه البعض تفسيرًا، وأنّى لي أن أفسّر كتابًا مبينًا أنزله الله بلسان عربي غير ذي عوج؟!.

بلى؛ إنه مجرد أثارات علم وهدى إستفدته من آياته.

أقول: منذ ذلك الوقت، فكّرت في تسجيل ما أستلهمه من آيات الذكر، في تناسق

آياته ونظم سوره.

وكنت أتدبر في كل آية، آية. ثم في كل مجموعة آيات، وأسجّل ما أحصل عليه، ثم أتدبّر في تلك المجاميع مع بعضها، بهدف التعرّف على الإطار العام الذي يجمعها، وأكتب بعدئذ عن الإطار العام لكل سورة، وهذا الإطار -هو كما يبدو- مقصد السورة المباركة.

هذه هي الخطوة الأقرب، والأصوب للوصول إلى مقصد السورة القرآنية. وهناك سبل شتى للوصول إلى الحقائق جميعاً، ومنها حقائق الكتاب المجيد. وفيما يلي سوف أبيّن -بإذن الله تعالى- بعضًا مما سلكتُه من سبل الوصول إلى معرفة مقاصد السور القرآنية.

أولاً: اسم السورة

يبدو أن أسماء السور -كما هي السور- نازلة من السماء، أو لا أقل مُبيَّنة من قبل رسول الوحي نبينا الأكرم محمد المصطفى ﷺ، وهي ذات صلة بموضوعات السورة. وقد تعدَّدت -أحياناً- أسماء سورة واحدة، مثل الحمد فهي فاتحة الكتاب، وهي سورة الحمد، وهي السبع المثاني.

وإليك بعض الأمثلة للتدبّر في أسماء السور:

١- سورة البقرة تتناسب موضوعاتها مع وضعٍ قد تهبط إليه الأمة عند خور عزيمتها، فإن بني إسرائيل تردّدوا في ذبح بقرة حتى قال ربنا سبحانه عنهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وانطلاقاً من هذه القصة، عرفنا أنّ معظم آيات السورة، تدور حول الأمة الإسلامية، وصبغتها التوحيدية، وقبلتها التوحيدية، وأحكامها، وشرائعها، وما تمتاز به عن أمة الكفر والنفاق. كل ذلك استوحيناه من التدبر في اسم السورة، وفي علاقة هذا الاسم بالقصة ومغزاها، ثم علاقة ذلك المغزى بموضوعات السورة الأخرى. وهكذا كان إسم السورة منطلقاً للوصول إلى مقصد السورة.

٢- وتم تطبيق مثل هذا في اسم سورة آل عمران، فآل عمران هم آخر ذرية

(١) سورة البقرة، آية: ٧١.

اصطفاها الله قبل الإسلام من بين البشر، ليكونوا أئمة وهداة، وهم الذي يشكّلون رأس الهرم في نظام الأمة، وبتعبير آخر: هم سنام الأمر، ونظام الأمة، كما جاء في حديث شريف، وهم بذلك الحبل المتين الذي يوحّد شتات الناس ويعصمهم من التفرّق.

وهكذا، ومن خلال التفكير في هذه الحلقات المتصل بعضها ببعض، نصل إلى مقصد السورة، وهو الوحدة على أساس الإمامة الإسلامية، ونبذ العنصرية، والطبقية، والتحزُّب، والتفرُّق.

٣- وإذا كانت الأسرة هي الوحدة الفطرية في المجتمع الإنساني، وكانت المرأة هي عمود هذه الأسرة، فهي زوجة، وأم، وربّة بيت؛ فإنّ سورة النساء هي سورة النظام الاجتماعي (أولي الأرحام) القائم على الفطرة. والنموذج الأمثل منه ما يعتمد على القيم المثلى، وأبرزها الطاعة للرسول، والتمسُّك بأحكام الدين.

٤- وهناك نظام أكثر تطوُّراً، وهو نظام المائدة التي تجمع الناس حول القيم المثلى، ويُبنى بهم المجتمع الإسلامي، والحضارة الإلهية. وصفات هذه الحضارة، وركائزها، وشروطها، وأهدافها، تقرؤها في سورة المائدة.

وهذه الأمثلة نسوقها لبيان مدى علاقة إسم السورة بموضوعها.

ثانيًا: فواتح السور وخواتيمها

الكلمات الأولى والأخيرة في كل خطاب، تركِّز أهم ما فيه. وهكذا نستفيد من فاتحة السورة، وآياتها الأولى، وخاتمة السورة، وآياتها الأخيرة، أهم ما فيها من حقائق. وبالتالي نعرف مقصد السورة الكريمة.

ثالثًا: أحاديث النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام

الثقل الآخر الذي أوصى به النبي الأكرم ﷺ، ساهم هو الآخر -وبالخصوص أحاديث فضائل السور- للوصول إلى مقاصدها.

كلمة أخيرة:

للقرآن الكريم كلمة سرّ، فلا تنفتح آياته لبشر حتى يؤتيه الله تلك الكلمة، وتلك الكلمة هي العلاقة القلبية بين الكتاب والإنسان. وأبرز ركائز تلك العلاقة الإيمان بحقيقة الكتاب، وأنه من الله، وأنه معراج البشر إليه، وأنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[1]. وبالتالي الإيمان بكل صفات الكتاب، وهو على مستويات، وكلما تقدَّم عبر مستوى، زاد حظّه في الاستزادة منه.

ومنها: التسليم المسبق لآياته، والجديّة في الاستعداد للعمل.

ومنها: التوسُّل بالكتاب، وبأهل الكتاب إلى الله، لمعرفة حقائقه.

وهذه الركائز تختلف من شخص لآخر، بل بالنسبة إلى شخص واحد من حالة لأخرى. وهكذا أعتقد إن معرفة حقائق القرآن تتصل بتجربة كل شخص، وحين ننقُل المعارف بعضها إلى بعض تفقد الكثير من بهجتها ونضارتها، وبالتالي من روحها.

ومن هنا نُوصي الإخوة القراء أن يسعوا جاهدين ليصلوا إلى روح القرآن، عبر فتح كلمة السر بفضل الله.

وبعد أن جمعنا تلك المقاصد بعضها إلى بعض في كتاب أسميناه (مقاصد السور في القرآن الكريم) طُبع أكثر من طبعة. والآن حيث طُلِب مني تقدمة على الطبعة الجديدة من الكتاب، لا يسعني إلّا الشكر لمن يُسدي إليَّ ما فيه من ملاحظات، فإنها سوف تساهم في تطويره بإذن الله.

والله العلي أسأل، أن يمن علينا بفهم كتابه، والعمل به، وأن يجعل ذلك ذخراً لنا يوم القيامة، حيث: ﴿ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2].

كربلاء المقدسة

محمد تقي المدرسي

الأول من رجب ١٤٣٣هـ.

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٨٨-٨٩.

1

سُورَةُ الفَاتِحَة

* صفوة القرآن

إنها أفضل سورة قرآنية، وعليها تتمحور معارف كتاب الله عز وجل.

وافتتاحها -الذي هو افتتاح القرآن كله- بالبسملة الشريفة إشارة إلى لزوم البدء باسم الله قبل كل موجة تفكير وومضة إرادة وحركة عمل.. فالله هو الذي خلقنا وهدانا؛ فباسمه نبتدئ كل شيء، لأن ركن كل شيء اسم من أسمائه الحسنى..

ثم تؤكد السورة الشريفة على تخصيص الحمد لله وحده، فنذكره بالصفات الحسنى لأنه رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم الذي خلق العالمين برحمته، ولأن مصيرهم إليه، فهو مالك يوم الدين، حيث يحكم بينهم بالعدل، فنعبده ونتوسل إليه ونستعين به، فنهتدي بأوامره فقط، ولا نكون عبيداً لمخلوقاته.

إننا يجب أن نتخذ من الاستقامة على طريق الله هدفاً دون سواه، وهو نفس طريق عباده الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وليس طريق العاكفين على الذنوب، الذين غضب الله عليهم، وليس طريق الذين ضلوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم.

إن سورة الحمد صفوة بصائر الوحي التي نجدها في القرآن كله.

2

سُورَةُ البَقَرَةِ

* الشخصية الإيمانية في القرآن

عمّ تحدثنا سورة البقرة؟.

قد تواجهنا صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن يمكن القول: أن مطلع السورة يقسم الناس إلى مؤمن، وكافر، ومنافق.. مما يفهم أن القرآن ذو نظرة واقعية متفاوتة، إذ لا يعترف بالتقسيمات المتعارفة بين الناس، كالتقسيمات العرقية والطائفية واللغوية وغير ذلك. فالدين الإسلامي يميز الناس حسب مواقفهم وأعمالهم ونوع اعتقادهم (الآيات: ١ - ٢٠).

ومن هذا المنطلق تسرد السورة قصة بني إسرائيل الغارقين في العنصرية والتهرب من المسؤولية الملقاة عليهم كسائر البشر.

وذكرت هذه السورة المفصلة كلمة تعبر بوضوح عن الخط العام لموضوعاتها، وهي كلمة ﴿ صِبْغَةَ ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] كإشارة عريضة إلى تحديد الصبغة الإيمانية في كافة أنشطة المؤمنين.

وبالرغم من أن سور القرآن الأخرى تتحدث عن صبغة الله أيضاً، ولكن تلك السور تركز في الحديث عن جوانب من هذه الصبغة، بينما تتحدث هذه السورة عنها بوجه عام وبشكل يترابط فيه ظلال هذه الصبغة لتكون صورة كاملة أمامنا.

تفصل (الآيات: ٢١-٢٩) صفات المؤمنين وأركان الإيمان، كما تحلل شخصية الإنسان وما ينبغي أن تكون عليه.

وتنتقل (الآيات: ٣٠- ٣٩) إلى قصة خلق الإنسان وحوار الملائكة المعروف مع الله جل جلاله، وأن الخالق قد حمّل المخلوق الجديد العلم والقدرة والمسؤولية والخلافة.

أما (الآيات: ٤٠- ١٠٣) فقد تحدثت عن الأمة وشخصيتها وصفاتها وكيف يجب أن تكون. وقد جاء القرآن هنا بنموذج من التأريخ، وهو بنو إسرائيل، لتحفيز الأمة الإسلامية على الاعتبار بقصتهم وما آلوا إليه من فساد وعنصرية وتشتت وانهيار، ولاسيما قصة البقرة الشهيرة.

إذ تبين الآيات القرآنية بهذا الشأن أن روح التكاسل حينما تتكرس في الأمة، فإنها تبدأ بالالتفاف على الأحكام الشرعية، لتنفلت منها ما استطاعت، فتراها تتشبث بمجموعة من القشريات، وتجعلها بديلة عن الحقائق الواقعية. وقصة قوم النبي موسى عليه السلام مع البقرة تمثل الحالة المشار إليها فيهم.

فهؤلاء القوم -كما تبين القصة- لم يصبحوا آنئذٍ كفاراً بالرسالة جملة واحدة، بل لعل العكس هو الصحيح، حيث كانت الرغبة تساورهم في تطبيق تعاليم الله سبحانه وتعالى، بيد أن التردد والضعف واضح في تصرفاتهم، مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات، تحت غطاء التشبث بقشور التعاليم. فهم كانوا يتساءلون عن لون البقرة، وطبيعتها، ومقدار عمرها، وسائر خصائصها، بينما تركوا الجوهر الذي هو ذبح البقرة والإنفاق في سبيل الله وإطعام الفقراء، وعموم قضية تحقيق التكافل الاجتماعي، والسعي إلى القضاء على ظاهرة الجوع من ناحية، والبخل من ناحية أخرى، والإسراع في استيعاب وتطبيق الأوامر الشرعية وكذلك هي الأمة الإسلامية في بعض مراحلها المتأخرة، حيث كانت تتوغل في التفاصيل وتنسى أو تتناسى روح التعاليم والأهداف المرجوة من ورائها.

فالقرآن الكريم يحذر الناس من أن الضعف الإيماني المتمثل في التواني في تطبيق الأحكام والأوامر قد ينتهي بصاحبه إلى مرحلة أخطر، هي الابتعاد التام عن الإيمان. وطرحت (الآيات: ١٠٤- ١٢٣) الدروس والعبر التي ينبغي للأمة استفادتها من حياة بني إسرائيل وقوم موسى عليه السلام عموماً.

أما (الآيات: ١٢٤-١٤٠) فتحدثت عن النبي إبراهيم عليه السلام كنموذج رائع في التوحيد.

و(الآيات: ١٤١-١٥٠) تناولت الكعبة باعتبارها القبلة والرمز المقدس لوحدة المسلمين، ومظهراً من مظاهر الاستقلال الثقافي، وكياناً متماسكاً يميزهم عن سائر الأمم.

وذكرتنا (الآيات: ١٥١-١٥٧) بقبح التغافل عن النعمة الإلهية الكبرى، وهي نعمة الرسالة والرسول، وضرورة تذكرها وإبداء الشكر تجاهها.

وبعد الحديث الكريم عن هذه القضية يذكرنا الله في (الآيات: ١٥٨- ١٦٧) بالصفا والمروة وما تعكسانه من عبر ودروس في الصبر والعزيمة.

أما (الآيات: ١٦٨- ١٧٧) فهي تربط بين مجتمع الحرية والتقدم والرفاه والتخلص من شياطين الثروة والسلطة واستغلال الدين، وبيّن لزوم الانتفاع التام من الحياة وما فيها من نعم طيبة، لدحض التخلف والتقاليد البالية.

وبعد ذلك؛ جاء الحديث في (الآيات: ١٧٨-١٨٢) عن بعض القوانين الإسلامية، كالقصاص، باعتباره واجباً اجتماعياً يرتبط بحرمة النفس.

أما (الآيات: ١٨٣- ١٨٩) فتتحدث عن فلسفة الصوم ودوره في تنمية الوازع الداخلي (التقوى)، كما تتحدث عن بعض أحكام هذه الفريضة.

ولعل من أهم مميزات الأمة التي تفرضها (الآيات: ١٩٠- ١٩٥) هي أنها تؤمن بالجهاد لتحقيق الأهداف الإنسانيةالسامية.

وتناولت (الآيات: ١٩٦-٢٠٣) قضية الحج باعتبارها مدرسة رسالية لتربية روح الالتزام في الفرد والأمة، ولتكريس التقوى؛ إذ هي الهدف الأكبر.

أما التقوى وأهميتها في مقاومة الخلافات والنزاع فقد فصلتها (الآيات: ٢٠٤-٢١٣) بالإضافة إلى تأكيدها على أن الخلاف المشروع الوحيد هو الخلاف المبدئي بين أهل الحق وأهل الباطل.

إن الشخصية الإسلامية قائمة على أساس التقوى والتمحور حول الحق في رد الخلافات إلى الدين القويم. فالتقوى الاجتماعية والأسرية هي الحصن الإلهي والقانون المتكامل -بما ينطوي تحته من واجبات وحقوق- وهذا ما فصلته (الآيات: ٢١٤- ٢٤٢).

وطرحت (الآيات: ٢٤٣- ٢٤٩) موضوع الإيمان والتسليم بحقيقة أن الله هو الذي يقضي في الحياة بحاكميته المطلقة.

وذكرت (الآيات: ٢٥٠- ٢٥٤) قضية أن للنصر شرطين؛ هما الصبر واليقين اللذين يحملان على الاندفاع والتضحية والثقة بالمستقبل.

وتذكّر (الآيات: ٢٥٥- ٢٦٠) ببعض أسماء الله الحسنى، وفي طليعتها أنه يهب الحياة والغنى والملك والنصر وأخيراً الهدى، كما يتابع القرآن في هذه الآيات تذكرته بربنا وبيانه لصفاته الحسنى والتي منها علمه المحيط بكل شيء، وقدرته على بعث الناس من جديد.

أما الإنفاق الذي هو ثمرة كبيرة وطيبة للإيمان وعلامة على عمق اليقين، فقد كان موضوع (الآيات: ٢٦١- ٢٧٤).

وتحدث القرآن في (الآيات: ٢٧٥-٢٨١) عن النتائج المرة للخلط بين التجارة والربا، وكذلك الفرق بين المنفق لله والمرابي. وعن أن الصلاة والزكاة وسيلتان للتخلص من ضغوط الشهوات، ومنها شهوة الاستغلال والإثراء السريع بالربا.

أما الآيتان: (٢٨٢-٢٨٣) فقد بينتا روعة العلاقة التكاملية بين التقوى وسلامة تطبيق الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية.

وفي (الآيات: ٢٨٤- ٢٨٦) حدد الله سبحانه وتعالى فيها بعض بنود المسؤولية التي تزرعها التقوى في النفوس. فأكد أن الإنسان مسؤول عن أعماله ونواياه وأن أهم مسؤوليات الإنسان هي الإيمان بالله والرسول، وأن الله يحاسب الإنسان حسب قدراته وإمكاناته.

3

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

* معدن الوحي ومهبط الرسالات

لماذا سميت هذه السورة باسم (آل عمران)؟ هل لأن آل عمران كانوا يشكلون التجمع الإيماني الصادق باعتبار أن السورة تتحدث عن الأمة الإسلامية بوصفها مجتمعاً مبدئيًّا يتمحور حـول الإيمان بالله والحق، فقد سـميت بآل عمران بوصفهم مثـلاً واقعيًّا لهذا التجمع؟ أم لأن التجمع الإيماني يتمحور حول أشـخاص، هم رسـل الله في الأرض، وهؤلاء الأشـخاص هم صفـوة النـاس الذين اختارهـم الله بحكمته البالغة لمـا علم فيهم من إخـلاص له، وصدق في العمل من أجله، و(آل عمران) هم مثل بارز لهؤلاء الصفوة، فكانت السورة باسمهم؟.

وسواء كان هذا أو ذاك السبب في تسمية السورة، فإن الله خلَّد هذه العائلة الكريمة بذلك، لكي تكون قدوة للإنسان المسلم، وللأسرة المسلمة، وبالتالي للمجتمع الإيماني.

ويتصـل هـذا الموضـوع بالإطـار العام للسـورة، حيـث إن هناك قيمتـين تحكمان النـاس؛ هما قيمة رسـالات الله، وقيمة الأرض وما فيها من زخـرف الحياة الدنيا. تتجلى قيمة الرسالة في الإيمان بالله، والتسليم له، واتباع الحق الذي أوحاه الله، وطاعة رسل الله بلا تفريق بينهم، وبالتالي قيمة مسؤولية الإنسان الكاملة عن أي تصرف يقوم به.

وتتجسد قيمة الأرض في تقديس البشر لذاته، والاعتقاد بالتمييز العنصري، ومن

ثم القومي، والإقليمي، والطبقي، والتنصل عن بعض المسؤولية اعتماداً على العنصرية.

وتتحدث سورة (آل عمران) عن التقابل بين قيمتي السماء والأرض في الحقل الاجتماعي، حيث تبين لنا أن الأمة الإسلامية إنما هي تجمع مبدئي، تستمد تلاحمها من قوة الرسالة، وتتمحور حول قيم الإيمان بالله والتسليم له (وهو الإسلام) والخضوع للحق وتقبل المسؤولية، وبالتالي الجهاد الذي هو قمة المسؤولية والتضحية.

إن ضرورة الالتفاف حول القيادة الشرعية رغم تنوع رجالها وتعددهم ونبذ القيادة الكافرة، يعتبر موضوعاً رئيسياً لهذه السورة المباركة.

وتتحدث هذه السورة عن الوحدة المبدئية التي تربط رسالات السماء ببعضها، كما تربط عناصر الأمة فيما بينها، وكذلك تفصل بين الأمة الإسلامية وبين الأمم العنصرية الأخرى. فالمبدأ هو المقياس وهو القيمة، فهو الذي يفصل بين الأخ وأخيه، وهو الذي يربط بين العربي والأعجمي.

ومن هنا؛ تشير آيات سورة (آل عمران) إلى فكرة (العنصرية)، والتي تتجسد في عبادة أشخاص، واتخاذهم آلهة من دون الله (مثل عيسى عند النصارى). باعتبار أن هذه الفكرة هي جذر فكرة العنصرية، وهي تمثل أخبث ثمرة لتقديس الذات. لذلك يفصِّل القرآن الحديث حولها.

وهذه السورة، تتحدث في البدء عن الله الذي أنزل الكتاب بالحق ليهدي الناس؛ ولأن الله لا يخفى عليه شيء، فهو أحق أن يهدي إلى الحق (الآيات: ١-٦).

والكتاب الذي يمثل الدين الحق، لا ريب فيه، وإنما يختلف فيه البعض لأنهم يبتغون الفتنة، ويعتمدون تحريف الكتاب بسبب ابتعادهم عن المسؤولية، فهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ويزعمون أن أموالهم تغنيهم عن العذاب (الآيات: ٧-١٣).

إن الشهوات هي وراء انحراف الناس عن الحق، وإنما الخلاص منها بالإيمان بالآخرة، وبما أعد الله للصابرين عن الشهوات من أجر عظيم (الآيات: ١٤-١٨).

ورسالة الله إلى الإنسان واحدة، لأنها تشع من المشكاة ذاتها، بيد أن اختلاف

الناس فيها نابع من أنفسهم المريضة، التي تريد الظلم والبغي. ولكي تتخلص البشرية من الاختلاف، فلابد أن يتكامل إيمانها بالله تعالى، وتبتعد عن العنصرية، وتعرف أن الله يراقب تحركاتها، وتؤمن بيوم الجزاء وتتبع رسل الله (الآيات: ١٩-٣٢).

وقد اختار الله رسله؛ لأنهم اتبعوه الله وأخلصوا له العبادة، فليست هنالك أية عنصرية، وليس النبي عيسى إلا عبداً لله، امتحنه الله فاختاره لرسالته. وإذا لم يكن عيسى عليه السلام إلا عبده، جزاه الله بصالح عمله، فهل يقدر البشر أن يتقدموا بلا عمل صالح، ولمجرد أنهم من عنصر مقدس؟!.

إن العنصرية هي أسوأ ما تعانيه البشرية، وهي الطرف المعاكس والمتناقض تماماً مع الرسالية.

وسورة (آل عمران) تنسف فكرة العنصرية من جذورها البعيدة، وتتحدث طويلاً عنها من خلال بيان مفصل لقصة النبي عيسى عليه السلام، ومن خلال الحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام الذي قدسه اليهود، وزعموا أنهم أولياء الله لمجرد أنهم أبناء إبراهيم عليه السلام (الآيات٣٣-٩٧).

كما أن هذه السورة تتحدث عن الوحدة داخل التجمع الإيماني، وما يجب أن تكون عليه الوحدة من صفات، ومنها صلابة موقفهم تجاه الكفّار، واعتمادهم على المبدأ الحق، دون المصالح الشخصية (الآيات: ٩٨-١٠٩).

وكلمة أخيرة؛ إن سورة (آل عمران) تتحدث مباشرة عن المسؤولية، باعتبارها أهم نتائج التجمع الإيماني، وفي نهايات السورة تتضح فكرة المسؤولية، ويضرب السياق أمثلةً توجيهيةً لها، أبرزها الجهاد في سبيل الله (الآيات: ١١٠-١٨٤).

وبمناسبة الحديث عن المسؤولية، تتحدث السورة عن الجزاء، وتبين أن كل من عمل صالحاً سيجزى بعمله، وأن من الخطأ تصنيف الناس حسب انتماءاتهم العنصرية، أو ولاءاتهم الدينية (الآيات: ١٨٥-١٩٥).

كما يذكرنا القرآن الكريم عبر هذه السورة بضرورة التسلح برؤية تأريخية ثاقبة،

لاكتشاف القوانين الاجتماعية والسنن الكونية التي وضعها الله للحياة، ومنها حتمية انتصار الحق، وأن رسالات الله ما هي إلا توضيحات لتلك السنن.

هذه الفكرة هي التي تختتم السورة آياتها بها، ونستوحي منها ضرورة الاعتماد على العمل في سبيل الله (الآيات: ١٩٦-٢٠٠).



سورة النساء

* الصبغة العامة للمجتمع الإسلامي

اختار القرآن اسم (النساء) ووضعه على هذه السورة، لأنها تتحدث عن حقوق المرأة في بدايتها، ثم عن علاقة المرأة بالرجل، وعن جوانب من حياة المرأة.

والمرأة هي وجه حضارة البشر، التي تعكس مدى التزام الحضارة بالقيم السامية التي تأمر بالمحافظة على حقوق الضعفاء، ولأن الإسلام يوليها إهتماماً كبيراً، كان من المفروض أن يعالج موضوعها في سورة من القرآن، وكانت سورة النساء بحكم موضوعها الاجتماعي أفضل موقع للحديث عنها.

وهذه السورة الكريمة ترسم لنا الصبغة العامة للمجتمع الإسلامي؛ فمن الآية الأولى وحتى الآية (٢٥)، ثم من آية (٣٣) إلى (٣٥)، ثم من (١٢٧) إلى (١٣٠)، ثم في الآية الأخيرة تتحدث السورة عن حقوق المرأة (وبالمناسبة حقوق الأيتام والسفهاء)، وطريقة تقسيم الإرث بين الرجل والمرأة، والنهي عن المعاملةالسيئة لها، وعن الشهادة الباطلة عند وارث المرأة كرهاً، واستلاب حقوقها في المهر، كما بينت حرمة الزواج من نساء معينات، بينهن زوجة الأب السابقة.

ثم عن قيمومة الرجل على المرأة في حدود الشريعة، وعن النساء الفاضلات،

والصلح بين الزوجين، ثم عن التزام العدالة الواقعية في بناء الأسرة، وأخيراً عن بعض موارد الإرث.

أما الموضوع الآخر الذي تتحدث عنه السورة في (الآيات: ٢٦-٣٢) فيرتبط بحرمة المال، والنفس، وضرورة المحافظة عليهما، والأسباب التي قد تدعو البشر إلى الاعتداء عليهما كالجهل والحسد.

أما الموضوع الثالث، فتتحدث السورة في (الآيات: ٣٦-٤٠) عن ضرورة الإحسان إلى الضعفاء، وحرمة البخل، أو إنفاق المال رياءً.

بيد أن الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه معظم آيات سورة النساء يكاد يكون موضوع الحكم الإسلامي بوجوهه المختلفة؛ ففي (الآيات: ٤١-٤٢) نجد الحديث عن أن الرسول شاهد على أمته، بمعنى أنه حاكم عليها، وحرمة عصيان الرسول، وحرمة كتمان الشهادة.

وفي (الآيات: ٤٤-٥٧) نجد حديثاً مفصلاً عن دور العلم في إقامة الحق، ومسؤولية رجال العلم في أداء أمانة العلم، ببيان الحقائق من دون تزييف أو تحريف، ومدى فظاعة جريمة الذين يفترون على الله الكذب، وصفاتهم السيئة التي تكشف زيفهم، وتفضح نياتهم الفاسدة.

وفي (الآيات: ٥٨-٧٠) يتحدث القرآن عن القيم التي تعتمدها السياسة الإسلامية، وأبرزها أداء الأمانة (أداء حقوق الناس)، الحكم بالعدل.

ثم تتحدث الآيات ذاتها عن طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر، وحرمة الاحتكام إلى الطاغوت، وتنعت الذين يتبعون الطاغوت بأنهم منافقون، وتسوق مثلاً عن الطاعة الصعبة التي يتهرب منها المنافقون، وهي طاعة الرسول ﷺ في الحرب.

ثم تتحدث عن قيمة الدفاع عن المستضعفين في السياسة الإسلامية.

أما (الآيات: ٧٧-٨٧) فهي تتحدث:

أولاً: عن ضرورة الانضباط في القتال، والتزام الطاعة التامة في كل الأوامر.

ثانياً: عن دور القائد في التحريض على القتال، وحمل الناس على طاعة الأوامر.

وفي (الآيات: ٨٨-٩١) نجد الحديث يتركز حول اتخاذ موقف موحد وحازم من المنافقين، فيحدد القرآن طبيعة المنافقين وأنواعهم، ثم يحدد الموقف منهم.

ثم يتحدث خلال (الآيات ٩٥-١٠٠) عن المجاهدين والقاعدين والمهاجرين كطبقات متميزة في المجتمع الإسلامي، ومتقابلة مع طبقات المنافقين السالفة الذكر.

ويعود القرآن في (الآيات: ١٠٥-١١١) إلى الحديث عن قيم السياسة الإسلامية وكيف أن دولة الإسلام هي دولة القانون البعيدة عن الفساد الإداري، فينهى الرسول عن الجدل مع الخائنين والمختانين الذين يحاولون تضليل الرسول.

وفي (الآيات: ١١٧-١٢٦) يتناول القرآن جوانب شتى عن النفاق، منها أصل النفاق ودور الشيطان في زرع شتيلة النفاق في النفس ببث أمانيه الخلابة الكاذبة، وأساطيره الساذجة.

وبعد أن يبين القرآن في (الآيات: ١٣١-١٣٤) ضرورة التقوى والالتزام، وإقامة القسط والشهادة لله لكي يزكي النفوس عن عوامل النفاق، بعدئذ يعود مرة أخرى في (الآيات: ١٣٦-١٤٦) ليبين أن الإيمان حقيقة بسيطة لا تتجزأ، وأن الذين يفرقون بين فكرة وأخرى في الإيمان فهم كفار ومنافقون يخادعون أنفسهم، لأنهم يتخذون الكافرين أولياء، وهم في الدرك الأسفل من النار.

ثم يبين السبيل الوحيد لإخراج هؤلاء من حالتهم، وهو التوبة والإصلاح، ثم الشكر والإيمان، وعدم الجهر بالسوء من القول، وابتغاء مرضاة الله بالأعمال الصالحة.

ويكرر القرآن -وبتفصيل أكثر هذه المرة- بيان بساطة الإيمان، وأنه حقيقة لا تتجزأ، ويبين في (الآيات: ١٥٠-١٦٠) أن الذين لا يؤمنون تحت طائلة عدم الاقتناع هم أناس كاذبون، ومثلهم بنو إسرائيل حين سألوا النبي موسى عليه السلام أن يريهم الله سبحانه جهرة، ثم اتخذوا العجل بعد أن توضحت لهم الآيات، وأنهم نقضوا الميثاق، واختاروا الكفر بآيات الله، واتهموا مريم عليها السلام بالفحشاء، وادعوا أنهم قتلوا عيسى

عليه السلام، وظلموا أنفسهم وأخذوا الربا.

وفي الآيات الأخيرة من السورة يتحدث القرآن عن ضرورة الإيمان بالله وبالرسول بشكل كامل، والاعتصام بالنور الذي أنزله، وكمثل لهذا الإيمان يذكر القرآن حكماً في الإرث، وينهي به سورة النساء.

إن هذا الاستعراض الموجز لتفصيل (سورة النساء)، يكشف لنا الخيط الذي يربط بين موضوعاته الرئيسية، وهو المجتمع الإسلامي بما فيه من قيم الحق والعدالة والتقوى، وبما فيه من حقوق المرأة، واليتيم، والسفيه، والفقير، والدفاع عن المستضعفين والمحرومين وما له من قيادة حكيمة، وسياسة واضحة، وإرادة حازمة، معتمدة على قواعد راسخة من إيمان الأمة بالرسول وبأولي الأمر من بعده.

وبالطبع؛ لا يتحدث القرآن عن المجتمع المسلم بطريقة علمية فحسب، بل وتربوية أيضاً، فنكتشف من خلال حديثه المبارك كيف نبني هذا المجتمع، وما هي الدواعي التي تدفعنا إلى اختياره.

5

سورة المائدة

* حضارة الإيمان

استوحي اسم السورة من قصة ذكرت في آخرها، والعبرة فيها: أن الرفاه الاقتصادي نعمة تهبط على البشر من السماء بقدر التزامهم بمناهج الله وأحكامه.

وتتناسب هذه العبرة مع الإطار العام لأحاديث السورة التي تدور حول محور التنظيم الاجتماعي، وبصورة تكاد تكون قريبة إلى إطار سورة النساء، اللهم إلا في نقطة واحدة. إن هذه السورة تعنى -في الأغلب- بالروابط الاجتماعية العامة، بينما كانت سورة النساء تركز -في قسم منها- على العلاقات الأسرية والحقوق المتبادلة فيها، وبالذات قضايا الإرث، وما أشبه.

تشرع السورة بضرورة الوفاء بالعقود، باعتبارها الرابطة الاعتبارية الأساسية التي تبني حضارة الإنسان، ولكن القرآن يحددالعقود في حدود أحكام لا يجوز أن تُتَجاوز.

من أبرز هذه الأحكام ما بيّنه القرآن في موضوع الأطعمة التي هي أول وأهم ما تتناوله عقود البشر، لأنها مرتبطة بأشد الحاجات ضرورة لهم.

وبعد بيان طائفة من أحكام الأطعمة التي فيما بينها حكم الصيد، وحكم حرية التجارة -خصوصاً في الأشهر الحرم- والتعاون على البر والتقوى وما أشبه، مما يتصل

من قريب بقضية الطعام (الآيات: ١-٤).

بعدئـذ يتحدث عـن طعام الذيـن أوتوا الكتـاب، حيث يحله القرآن للمسـلمين، ويشجع بذلك التجارة بين أهل الكتاب وبين المسلمين في الأطعمة (الآية: ٥).

ثم يبين القرآن بعض أحكام الطهارة في الإسـلام، المتصلة بالعلاقات الاجتماعية، حيث أن التطهر يحبب الناس بعضهم إلى بعض، وهو حق من حقوق المجتمع على الفرد (الآية: ٦).

ويحدثنـا القـرآن -بعدئذ- عـن ضرورة الوفـاء بالمواثيـق باعتبارها ركناً أساسـياً للعلاقـات الاجتماعية، وإذا كانت العقود وسـيلة للتبادل التجاري، فإن المواثيق وسـيلة للتعـاون السـياسي الاجتماعـي، إلا أن المواثيـق يجـب أن تهـدف تحقيق العـدل في الحياة (الآيات: ٧-١١).

كما تحددت العقود بالأحكام الشرعية وبالتعاون على البر.

والميثاق السـياسي للدولة الإسـلامية هو أهم ما يجب على الأمة احترامه، ويسـوق القرآن قصصاً تأريخية من واقع بني إسرائيل ليجسـد لنا مدى ضرورة الالتزام بالمواثيق، وكيف أن نقضها يورث الدمار واللعنة (الآيات: ١٢- ١٤).

ثـم يحدثنا عن ضرورة تطبيق شريعة السـماء في المجتمع، وأنها نور وهدىً، سـواء نزلت على النبي موسى عليه السلام في التوراة، أو على النبي عيسى عليه السلام في الإنجيل، أو على النبي صلى الله عليه وآله في الكتاب المهيمن على التوراة والإنجيل.

ويسـوق القرآن الكريم من تاريخ بني إسرائيل كيف أن مخالفتهم لأوامر الله تعالى جعلتهـم يتيهـون في الأرض أربعين سـنة، ثم يبـين حكم القتل بعد بيان قصـة ابني آدم، حيث وقعت أول جريمة قتل (الآيات: ١٥-٣٢).

ومـن القتـل ينتقل القـرآن إلى حكم الفسـاد في الأرض (قطاع الطـرق)، ومنه إلى جريمـة السرقـة، ومنهـا إلى جريمة التجسـس ممـا يرتبط جميعـاً بقيمة الأمـن الاجتماعي (الآيات: ٣٣-٤٢).

ويبين ضرورة الالتزام برسالات الله تعالى -أنى كانت - وأن من يخالفها كافر أو ظالم أو فاسق، حسب طبيعة المخالفة، ويسوق أمثالاً لهذه المخالفات الثلاث. (الآيات: ٤٣-٤٧).

بيد أنه ليس من الضروري لإقامة الدولة الإسلامية اتباعهم، لأن القيادة والهيمنة تكون للإسلام، حيث لا يجوز للقائد اتباع أهواء أهل الكتاب، لأنها جاهلية (الآيات: ٤٨-٥٠).

والولاء السياسي داخل المجتمع المسلم يجب أن يكون خالصاً للقيادة الإسلامية (الآيات: ٥١-٥٣).

وبعد أن بين القرآن طبيعة الولاء السياسي داخل المجتمع المسلم، والذي سماه بحزب الله (الآيات: ٥٤-٥٦)، عاد وحذر من ازدواجية الولاء، وبين بعضاً من مساوى ء أهل الكتاب، ومن أبرزها حقدهم على المسلمين، ومسارعتهم في الإثم والعدوان، وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وفسادهم في الأرض (الآيات: ٥٧-٦٤).

وماذا يستفيد الناس من تطبيق شريعة الله؟ يجيب القرآن: بأنهم سوف يأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم إذا طبقوا أحكام الله،هذا في الدنيا، أما في الآخرة: فسوف يرزقهم الله جنة النعيم (الآيات: ٦٥-٦٦).

وعلى الرسول أن يبلغ رسالة الله في كل الشؤون (ومن أبرزها قضية القيادة الإسلامية) ولا يخشى أحداً(الآية: ٦٧).

ذلك أن رسالة الله هي خير للناس وأن الأمة لا تساوي شيئاً لو لم تطبق هذه الرسالة بالكامل ومن دون زيادة فيها(الآية: ٦٨).

وأن قيمة الإيمان والعمل الصالح هي القيمة الأساسية التي يقاس بها الأشخاص في المجتمع الإسلامي على اختلاف انتماءاتهم (الآية: ٦٩).

ولكن أهل الكتاب حرفوا دينهم، واتبعوا أهواءهم، حتى أنه لو جاءهم نبي يخالف أهواءهم كذبوه أو قتلوه، وزعموا أنهم بقتله ضمنوا لأنفسهم حياةً هانئة، ولكن



كانت النتيجة بالعكس من ذلك تماماً (الآية: ٧٠-٧١).

أما النصارى فقد اتخذوا المسيح إلهاً، بينما كان المسيح يدعو إلى الله سبحانه، وينهى عن الشرك به. ومنهم من قال: إن هناك آلهة ثلاث، المسيح واحد منهم؛ وهؤلاء كفار سوف ينالون جزاءهم إذا لم يستغفروا ربهم.

إذن؛ لم يكن المسيح سوى رسول مثل سائر رسل الله، وإن أمه صدّيقة، وإن أي شخص يعبد من دون الله لا يملك ضراً ولا نفعاً، فهوالآخر عبدٌ لله، وإنما تسربت فكرة تعدد الآلهة إلى الرسالات السماوية من أفكار الجاهلية، وقد حاربها كل أنبياء الله، ومن بينهم المسيح بذاته (الآيات: ٧٢-٧٨).

وهؤلاء الذين نسبوا هذه الأفكار الكافرة إلى الرسالات هم كفار وبعيدون عن روح الرسالة، وأبسط دليل على ذلك أنهم لايتناهون عن المنكر، وأن كثيراً منهم يتخذون الكفار قادةً لهم وأولياء. وهذه صفة الكفر، إذ لو كانوا يؤمنون بالله حقاً، لما اتخذوا الكفار أولياء، بيد أن بعضاً من علماء النصارى لايزالون متمسكين برسالة الله، وأن لهم جزاءً حسناً (الآيات: ٧٩-٨٦). وبهذا السرد أراد القرآن فصل قيادة المجتمع الإسلامي عن اليهود والنصارى، ثم عاديتحدث عن تنظيم الحياة الاجتماعية وضرورة الانتفاع بالطيبات في إطار مراعاة حقوق الناس (الآيات: ٨٧-٨٨).

ومن الحقوق مراعاة اليمين الذي ينظم جانباً من حياة المجتمع (الآية: ٨٩).

والمجتمع الإسلامي متماسك، لأنه بعيد عن الطيش (وهو سبب من أسباب النزاعات الجاهلية) فلا خمر ولا ميسر ولاأنصاب ولا أزلام داخله (الآيات: ٩٠-٩٢).

ولا يعني ذلك أن كل لذة هي حرام في هذا المجتمع. كلا؛ إذ أن كل شيء حلال في حدود القانون الذي تحصنه التقوى والإحسان (الآية: ٩٣).

فمثلاً: كل الطعام حلال إلا بعض الصيد الذي جاءت حرمته امتحاناً وتربيةً للناس، وذلك هو الصيد وقت الإحرام. ويختص ذلك بصيد البر، أما صيد البحر فهو حلال حتى في وقت الإحرام. وتكميلاً للصورة؛ تحدث القرآن قليلاً عن الكعبة، وأنها

تخدم النظام الاجتماعي. فلو حرم الله الصيد خلال رحلة الحج، فلأن ذلك سوف ينتهي إلى تنظيم الحياة الاجتماعية (الآيات: ٩٤-٩٩).

وبعد أن تحدث القرآن عن ضرورة الالتزام بتعاليم الله تعالى، بيّن سخافة بعض ما ألصق بالدين من خرافات وأساطير.

وبالتالي بيّن أن الزيادة في الدين هي بمثابة النقيصة فيه، ولا تصلح الحياة به (الآيات: ١٠٠-١٠٣)، وأنها جاءت نتيجة التقاليد الجاهلية، وأن على الأمة أن تتحصن ضد هذه التقاليد ولا تأبه بها (الآيات: ١٠٤-١٠٥).

وتنظيماً للحياة الاجتماعية يأتي دور الشهادة، حيث أنها تحصن المجتمع من الاستهتار بالحقوق، ويبين الله أحكام الشهادة هنا بإيجاز ضمن مثل حي (الآيات: ١٠٦-١٠٨).

ثم يعود إلى الحديث عن الرسل ودورهم الذي لا يتعدى البلاغ، وأنهم حتى لو فعلوا المعجزات فإنما بإذن الله، وبما آتاهم من قوة وعلم، وأن الرفاه الاجتماعي الذي يعقب الرسالات السماوية، إنما هو من الله جل جلاله، كما أنزل الله مائدة من السماء على الحواريين، فإن نزول المائدة لا يدل على أن النبي عيسى عليه السلام كان إلهاً، ولذلك فهو يسأل يوم القيامة عن مقالة الناس فيه، ولكنه يتنصل فوراً عن فعلة أتباعه، لأن الملك لله وحده (الآيات: ١٠٩-١٢٠).

6

سُورَةُ الأَنْعَامِ

* مسؤولية الإنسان تجاه ربه

ثلاث حقائق؛ الله، الإنسان، الكون

في بداية هذه السورة امتزجت حقائق الكون ببعضها وفق البصيرة التوحيدية التي بالرغم من اهتمامها بالفواصل الواقعية بين الأشياء إلا أنها تعلق أهمية كبيرة على مدى علاقة الأشياء ببعضها، وتذكرنا هذه السورة بطائفة من حقائق الكون كمثل لعبودية الله الواحد، تلك الحقائق هي:

ألف: الله سبحانه باعتباره سيداً مطاعاً من قبل الخليقة ومهيمناً عليها.

باء: الإنسان باعتباره عبداً مخلوقاً لله، وسيداً على الطبيعة، وأن عليه أن يقف أمام عظمة الله ويقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حامداً عظمة الله، ليس لأنه قدير واسع الرحمة فحسب، بل لأنه سبحانه أغدق عليه من رحمته الواسعة الشيء الكثير، فلذلك يحمده.

جيم: الكون؛ أي السماوات والأرض، والظلمات والنور.. باعتبارها مخلوقات لله، ومدبرات بأمره، والرابطة الوثيقة بين الإنسان وبين الكون هي أنهما معاً مخلوقان لله، مدبَّران بأمره سبحانه.

ولكـن الإنسـان يملك -بـإذن ربه- ميزة أساسـية بين الخلائق، وهي أنه سـيدها الذي سـخرها الله لـه، ولذلك فهو يحمد ربه. وإذا أراد الإنسـان أن يكرس في ذاته صفة السيادة على الكون، فليس عليه سوى المزيد من الارتباط بربه الذي سخر الكون لأمره.

معرفة اللّه

إن معرفـة الطبيعـة من دون إله لهـا يعني أن المادة بلا روح، وبـلا قيم، وبلا نظام. ومعرفة الله بعيداً عن الطبيعة يعني البحث في فراغ، في التجريد، في اللاشيء. وسواء كانت هذه أو تلك فهي تنتهي بالإنسان إلى اللامسؤولية واللاإلتزام، وبالتالي إلى اللاوعي.

إنّ المـادي الـذي يختـصر حياته في الأشـياء، ولا ينظـر عبر المادة إلى مـا ورائها من هيمنة الله، وقيامه وملكه وسـلطانه، إنه لا يشـعر بالتزام تجاه المادة، لأن المادة لا حياة لها ولا عزة لها ولا حكمة. فالمادة لا تراقبه، ولا تحاسبه، ولا تجازيه، بل لا يشعر بها، فلذلك فهو ينفلت عن التقيد بالمسؤوليات.

وكذلك الصوفي الذي يؤمن بالألفاظ، والكلمات، والخلسـات، والهمسـات، ولا يؤمـن بإله الحيـاة والنظام، والتدبير، والملك، الحسـاب والعقاب، إنـه لا يؤمن بالطبيعة كمظهر سـامٍ من مظاهر الحياة التي وهبها الله، والنظام الذي قام عليه وأجراه سـبحانه، وبالتالي لا يؤمن بالطبيعة كاسم من أسماء الله سبحانه. إن هذا الصوفي هو الآخر لا يشعر بمسؤولية أمام الحياة التي فصلها عن الله.

والحقيقـة في معرفة المـادة والروح هي الإيمان بواقع الطبيعـة، وبحقيقة القيم التي تهيمن عليها، والاعتقاد بوجود الطبيعة المدبَّرة بسلطان ربها، وبالتالي الاهتداء إلى الله عبر أسمائه وآياته المنتشرة في رحاب الطبيعة.

إن القـرآن باعتبـاره كتـاب الله الذي لاريب فيـه يتحدث إلينا عن الطبيعـة باعتبارها جسراً يسير عبرها الفكر إلى معرفة الله، وباعتبارها مظهراً سامياً لأسماء الله وآياته، وباعتبارها أداةً للإنسان لاكتشاف نفسه، والاهتداء إلى ربه، والتكامل حتى يكون إلى الله المنتهى.

فعليك -أيها الإنسـان- أن تنظر إلى السـماوات، ولا تجلس في غرفة مظلمة تبحث

عن الله، ولكن إياك أن تنظر إلى السماوات كأنها أشياء ثابتة جامدة جاهلة. كلا؛ بل باعتبارها حقائق تسبح بحمد الله خالقها، وتسجد لهيمنة ربها.

لماذا اسم الأنعام؟

إن سورة الأنعام هي مثل كل سور القرآن التي تشع بنور التوحيد، وتنساب في ضمير الإنسان بضياء الإيمان بالله، ولكنها لم تُسم باسم مجرد. فلم يكن اسمها مثلاً؛ سورة الحي القيوم، أو سورة الصمد الأحد، أو سورة القدوس الأعلى، أو سورة الحمد والتسبيح..كلا؛ بل سميت بسورة الأنعام.

الأنعام التي يضرب الله بها مثل الغباء، ويعتقد الإنسان أنها لا تعني شيئاً في حقل الإيمان والعرفان، مع ذلك سمى الله هذه السورة باسم الأنعام ليجعلنا نغير نظرتنا إلى الأنعام، ونعرف أنها نعمة من نعم الله، وأنها بالتالي تهدينا إلى الله من جهة، وتفرض علينا من جهة مسؤولية معينة، وهي تلك المسؤولية التي يشعر بها المؤمن أمام ربه، وبذلك يخرج المادة (وهنا الأنعام مثل لها) من النظر إليها بنظرة الشيئية دون الالتفات إلى دور المادة في تكامل الروح والعلم والقيم، كما يخرج بذلك أيضاً الروح والعلم والقيم والإيمان من عالم التجريد والمثالية إلى عالم الحقيقة.

جاءت (الآيات: ١-١١) تحقيقاً للهدف العام لسورة الأنعام الذي هو تنمية روح الإيمان بالله في النفوس وجعله مصباحاً يهدي الإنسان في ظلمات الحياة.. لتفضح الدافع الأساسي لتكذيب الآيات والرسالات، لعل الإنسان يتذكر بنفس ه ويحاول تطهيرها من شر هذا الدافع الذي هو الاستهزاء بالحق والإعراض عن آياته، ويعرف أن العلاج الوحيد للمعرضين هو أن يتذكروا مصير المكذبين عبر السير في الأرض.

أما (الآيات: ١٢-١٦) فتؤكد لنا أن أبسط فكرة تقفز إلى ذهن الإنسان حين يلقي نظرة إلى السماوات والأرض هي أنهما مسيّرتان وليستا مختارتين. فإذن هما مملوكتان لله تعالى، الأمر الذي يفتح أمامه آفاقاً جديدة من العلم الذي سينتج عنه الإيمان.

ولما كانت أزمّة الكون بيد الله تعالى، فعلى ابن آدم أن يعلم بأن الله إذا مسّه بضر فلا

كاشف له، وبالتالي فإنه سبحانه هو الركن الشديد الذي ينبغي أن يُتوجه إليه دون غيره (الآيات: ١٧-١٩).

ثم إن الحق -كالركن الشديد- تعتمد عليه إذا اعترفت به وصدقته، أما الباطل فهو سراب. والقرآن حق تعرفه كما تعرف أبناءك، فمن كذب به كان الشقاء من نصيبه، لأنه سيبحث عن أراجيف يؤمن بها، بل وسيبدأ في خلقها ليكفر بآيات الله الصحيحة. وليعلم الإنسان أنه يعيش على الحق ويستفيد منه، بينما الباطل يعيش عليه ويستهلكه (الآيات: ٢٠-٢٤).

و(الآيات: ٢٥-٢٨) توضح عوامل الكفر النفسية، إذ تشير هذه الآيات إلى أن مجرد الاستماع إلى الحق لا يكفي للإيمان به، باعتبار أن المهم هو قلب الإنسان الذي لو لم يزك من عوامل الانحراف، فإن أذنه تثقل وعينه لا تبصر ولسانه لا يلهج إلا بالجدل والبهتان، فلا يفرق صاحب القلب المريض بين الرسالة الجديدة وبين الأساطير القديمة..

(والآيات: ٢٩-٣١) يتضح منها أن النظرة القاصرة التي تحصر حياة الإنسان بالدنيا، هي المسؤولة، وإلى حد كبير عن كفر ابن آدم بالحق. وفوق ذلك، فإن أمام عين البشر غشاوة من زينة الشهوات، تمنعه عن الإيمان بالآخرة، فتنسيه أنه واقف لامحالة أمام الله ذات يوم!.

ولكي يبقى المؤمن جبلاً أشماً يتحدى الصعاب، فلابد أن يعرف حقيقة الدنيا التي ماهي إلا لعب ولهو. أما دار الإقامة؛ فهي الآخرة، ومن ذلك أن قلب الرسول ﷺ يجب أن لا يتأثر بسبب كفر المشركين، ومن الواضح أن هدفهم ليس الرسول ﷺ بقدر ما هو الحق والإيمان، وليس من خيار آخر للرسول في الأمر (الآيات: ٣٢-٣٥).

وحين يموت قلب الإنسان، فإن المزيد من الدلائل لا تنفعه. فالمشكلة -إذن- في خطل فهم الكفار، وليس في كمية الآيات والمعاجز الإلهية.. إن الكفار فقدوا القدرة على التفاعل مع الحياة، فتاهوا في صحراء الضلالة (الآيات: ٣٦-٣٩).

أما (الآيات: ٤٠-٤٥) فتعلمنا أن الإنسان الكافر قد تتطور حالته فيصلح ما عطب من قابليته على فهم حقيقة الحياة وحكمة الوجود، وذلك حينما يواجه الحقيقة مجردة وبلا غموض.. لا سيما وأن العلة في تعريض ابن آدم لبعض الشدائد هي الكشف عن الحقائق له وإعادته إلى فطرته التوحيدية النقية.

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى البشر مصباح العقل ليهتدي إلى سبيل النور والمعرفة، ولو شاء سلبه هذه النعمة، فاضطره إلى التخبط الدائم، كما أنه قادر على أن ينزل عليه العذاب جهرة دون أن يملك البشر له رداً. ولكن الله -برحمته الواسعة- لم يكتفِ بنعمة العقل، بل بعث أنبياء مبشرين ومنذرين لا يتخذون قرارات بدلاً عن الناس، أو يكرهونهم على اتباع العقل.. فكانت وظيفتهم مساعدة الناس على الرؤية السليمة وتحمل المسؤولية (الآيات: ٤٦-٥٠).

وتشير (الآيات: ٥١-٥٥) إلى أن الصالح من الناس هو من يوجه خوفه نحو المصدر الحقيقي، وهو الله عز وجل، حيث يحشر الإنسان إليه وحيداً، دون أن ينفعه أولياء أو شفعاء. إلا أن هناك من الضالين من يحجبهم عن الحقيقة التفاف البسطاء والمستضعفين حولهم، فيقولون: إما أن يطرد هؤلاء، أو لا نقبل الحقيقة.. ولكن القرآن نهى عن طرد أهل الحق، باعتباره ظلماً، وباعتبار أن حساب كل فردٍ على نفسه.

و(الآيات: ٥٦-٥٨) تؤكد أن القيمة الحقيقية للمبدأ، وحتى شخص الرسول قد شملته الدعوة كأي فرد آخر، حيث نُهي -كالآخرين- عن عبادة الشركاء.

وتتطرق (الآيات: ٥٩-٦٢) إلى أن المستقبل عند الله، وهو الذي يجري عليه سننه. ولذلك؛ فهو يعلم ما سيكون، كما أن علمه محيط بالحياة، وكذلك قدرته محيطة بالعباد، بما في ذلك الموت الذي لا يحدث بعيداً عن قدرة الله وقضائه.

وتتابع (الآيات: ٦٣-٦٥) ذات الموضوع من زاوية فطرية إنسانية، وذلك عندما ترتفع غشاوة الغفلة والكبر، ويتحسس الإنسان بالخطر، فيصبح آنذاك أقرب إلى الحقيقة. ولكن متى يشعر المرء بالأمان المطلق؟ إنه لا يتم ذلك ما لم يؤمن بأن الله هو القادر على كشف الكروب ودرء أنواع العذاب.

ثم تبين (الآيات: ٦٦-٦٩) اختلاف الناس في مواقفهم الرافضة وغير المبالية بآيات الله في الأرض والسماء، فهناك من يكذب بالحق من قوم الرسول ﷺ الذي لن يغني عنهم شيئاً بداعي أنهم من قومه. أما الحق؛ فإنه إذا حلَّ موعد تطبيقه مستقبلاً، فسوف يعلم الناس ماذا يعني، وما هي أهميته. ثم إن من الناس من يتخذ آيات الله هزواً

يتسلى بها، دون أن يتخذها برنامجاً ويعمل بها، وهؤلاء يجب التباعد عنهم، لأنهم قوم ظالمون مهما تنوع مظهرهم وما يتظاهرون به منطق أو مظهر..

و(الآيات: ٧٠-٧٣) توضح أن الحالة قد تبلغ بالواحد من هؤلاء القوم الظالمين وضعاً مزرياً، حيث يتخذ من دون الله أرباباً -هم أصحاب المال والزينة- ويترك هدى الله، ويكون مثله كمن اخترق الصحراء مع صحبه، ولكنه ابتلي بالشياطين وفقد وعيه وأخذ يدور حول نفسه دون وعي، فيترك الصراط المستقيم والتسليم لرب العالمين، ويتبع الشياطين.

أما كيف يتدرج الإنسان في مراحل الإيمان؟ فهذا ما تعالجه (الآيات: ٧٤-٧٩) إذ تشير إلى أن الإنسان يبدأ رحلته الإيمانية من نقطة الشك الذي يرفع حجاب الأفكار المسبقة ويحرك فكره ويضيء عقله، فيرى ما وراء السماوات والأرض من علم وقدرة وحكمة وملكوت. فالعقل يهدي صاحبه إلى أن الإله لن يكون متغيراً، وأنه فوق القوى.. ومن خلال التطلع والتأكد بأن الظواهر الكونية لا تصلح لأن تكون إلهاً، سيعرف المرء أن الرب الحق هو الذي يهديه إلى نفسه، وأن ما لا يصلح أن يكون رباً، لا يصلح أيضاً أن يكون نصف رب، وأن يشرك به شيئاً، ولذلك يجب رفض جميع الآلهة إلا الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن تبين الآيات السالفة قصة المعاناة الشخصية لإبراهيم عليه السلام؛ قام هذا النبي الجليل بردّ أقاويل قومه ببساطة حكيمة، إذ أكد لهم في (الآيات: ٨٠-٨٣) أن الخوف يجب أن يكون من الله لا من القوى المخلوقة له سبحانه، لأن تلك القوى تقع ضمن دائرة إذن الله وعلمه، وأمر أن يعودوا إلى فطرتهم ليتذكروا الحقيقة.

ومن جانب آخر، فإن تلك الرسالة التي أهبطها الله على قلب النبي إبراهيم عليه السلام بعد أن وجده أهلاً لها، ثم بعد دخولها مرحلة الصراع المرير، أصبحت اليوم تياراً يهدي به الله مجموعة من الأنبياء العظام.. ولم يكن هؤلاء وحدهم في الساحة، وإنما كان معهم الآباءوالذرية والإخوة الذين اجتباهم الله على علم منه بهم، نظراً لصلاحيتهم للعمل الرسالي (الآيات: ٨٤-٨٨).

وتذكرنا (الآيات: ٨٩-٩٢) بحقائق عن الذين يشكلون خط الرسالة، بعد أن

أخذ الله على نفسه أن يحفظ ويديم سلامته واستقامته، ليكون قدوة للناس من دون أن يحملهم أجراً، بل ليذكرهم بالحقيقة فقط. ثم هذا الكتاب الذي أنزله، إنما ليكون منهجاً للنمو والرشد والتكامل، وهو في ذات الخط الرسالي المستقيم.

و(الآيات: ٩٣-٩٤) تشير إلى أن الظلم ظلمان؛ فقد يغتصب الفرد حق صاحبه المادي، وقد يغتصب فكر الناس ويضلهم ويضل نفسه عن الحق ويحرف مسيرة البشرية، وهذا النوع الثاني أكبر خيانة وأخطر ضرراً.

ولكن كيف يختار لنا الشيطان طريق الضلالة والإفك والانحراف عن مسيرة التوحيد و الله هو الذي فلق الحب والنوى، وهو الذي يحيي الموتى ويميت الأحياء.. وغير ذلك من آيات الخلقة العظيمة المباركة؟(الآيات: ٩٥-٩٩).

وجاء في (الآيات: ١٠٠-١٠٣) ما يذكرنا ببعض الصفات الإلهية في إطار ما يعطينا الله من المعرفة بذاته، وأنه كلما ازدادت معرفة الإنسان بربه، زادت معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى، ومن ثم معرفته بسائر المعارف التوحيدية، كالعدل والنبوة والإمامة والمعاد وغيرها..

وعادت (الآيات: ١٠٤-١٠٨) لتذكر المؤمنين بأن الشرك مضلل لأهله، حتى أنهم أصبحوا يقدسون أصنامهم، كما لا يجوز سب هذه الأصنام، لأن الضالين سيسبون الله ظلماً وعدواناً، وأن الله الذي سيرجعون إليه سوف يجزيهم بما فعلوا.

وفي سياق الحديث عن ضرورة الإعراض عن المشركين لعنادهم تتابع السورة عبر (الآيات: ١٠٩-١١١) القول بأنه لا ضمان لقبول المعاندين ما يطلبون من آيات جديدة ماداموا يرفضون التسليم حتى للآيات الواضحة. ثم إن الكفر بالآيات سبب مباشر في تبديل القيم والمقاييس وعجز الفكر عن التمييز، لأن الكفر طغيان على الحقيقة وجهل محيط بصاحبه.

ومهما يكن؛ فالدنيا دار ابتلاء للجميع، الهدف منه بيان جوهر الأشخاص، حتى يكون الثواب والعقاب وفق العمل لا وفق علم البارىء سبحانه. ومن آيات هذا الابتلاء أن جعل الله لكل رسول عدواً، ليعرف الناس رموز الخير ورموز الشر، في خضم صراع

الأنبياء عليهم السلام مع أعدائهم (الآيات: ١١٢-١١٣).

وحيث تمت الإشارة سلفاً إلى قضية التضليل الشيطاني، فإن (الآيات: ١١٤-١١٧) ذكّرت بالوحي الإلهي الذي لايجوز اتخاذ غيره، لأنه كتاب فيه تفصيل كل شيء، وعلاج كل داء. أما تخرصات الناس فلا نجد فيها إلا الظنون والخيالات التي لايقطعون هم بصحتها.. و الله تعالى أعلم باتجاهات الناس، لأنه هو المقياس والميزان والحكم العدل.

ويضرب الله مثلاً على حقيقة أن الهداية هي هداية الله لا غير، ببيانه حكم الطعام الذي هو أبسط الضرورات، ومع ذلك ترى جماعة يحرمون أنفسهم منه لبعض الظنون دونما سلطان.. وتؤكد الآيات أن المحرم هو الإثم والشرك بخالق الطعام.. (الآيات: ١١٨-١٢١).

وتبين (الآيات: ١٢٢-١٢٧) أن فريقاً من الناس يرفض رسالة الله التي تبعث على الحياة ويفضل البقاء في الظلمات،فما جزاء هؤلاء إلا الذل والصغار، ذلك لأنهم ضيقوا الصدر، قليلوا الاستيعاب، ضعيفو الإرادة، عديمو الإيمان.

أما أضرار الكفر؛ فمنها الولاية الباطلة. فإذا كانت للمؤمنين ولاية الله، فإن شياطين الجن هو أولياء الكفار، حيث يحشرهم الله وإياهم، فتتكشف آنذاك أسباب الولاية (الآيات: ١٢٨-١٣٢).

وحيث كانت لله الأسماء الحسنى، فهو الغني ذوالرحمة، ولأنه غني، فهو قادر على أن يفني جميع الخلق، ثم يخلق مكانه ما يشاء..ولكنه لا يفعل ذلك، لأنه ذو رحمة، ولكن يوماً من الأيام سينتهي فيه أجل البشر حيث لايفلح الظالمون (الآيات: ١٣٣-١٣٥).

ولفرط ما شرع الكافرون من تشريعات باطلة، فإنهم حرموا حتى الطيبات على أنفسهم، ودفعهم إلى ذلك افتراؤهم الذي سيجزون عليه، كما سيجزون على تشريعهم قتل الأولاد ظلماً وضلالةً (الآيات: ١٣٦-١٤٠).

أما (الآيات ١٤١-١٤٤) فتؤكد على أن الله الذي أنعم على البشر بشتى النعم، هو

أعلم بسبل الانتفاع بها، بينما الجاهلية تحرم أو تحلل حسب أهوائها.

وفي (الآيات: ١٤٥-١٤٧) تنديد بالانغلاق الذي أصيب به البعض. وليس تحريم الله على بني إسرائيل بعض الطيبات إلا لبغي صدر من بعضهم على بعض، فحيث يزداد البغي تتضاءل النعم..

وحيث تكون الذات -لدى البعض- معياراً للحق والباطل، دون الواقع والحقيقة، فإن من الحري توقع التعرض لعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ليظهر خطأ هذا المذهب غير القائم على علم (الآيات: ١٤٨-١٥٠).

وتبين (الآيات: ١٥١-١٥٣) جملة من المحرمات الاجتماعية الأكثر أهمية والأكثر مصداقية؛ مثل الشرك ب الله، وحرمة إيذاء الوالدين، وحرمة إهمال حقوق الأولاد، وحرمة الفواحش بأنواعها، وحرمة وفضاعة قتل النفس المحرمة، وأكل مال اليتيم بالباطل، والبخس في الموازين، ونقض العهود.. وأن الالتزام بهذه القوانين هو الضمان الوحيد لنيل مرضاة الرب.

و(الآيات: ١٥٤-١٥٧) تشير إلى أن الله تعالى قد أنزل الكتاب على النبي موسى عليه السلام لكي يكون نعمة تامة للمحسنين، ولكي يفصل به شرائع الحياة تفصيلاً، فيهدي الناس إلى الحقائق مباشرة وتتم الحجة عليهم.

ولكن (الآيات: ١٥٨-١٦٥) تنوه إلى العقبات التي من الممكن أن تعترض طريق الاستجابة للرسالة الجديدة، وهي ثلاث: التردّد وانتظار شيء خارق للعادة، والمعطيات الطائفية، ووجود الذنوب المتراكمة.

ولكي يشجع الله الناس على الإيمان بالكتاب الحق؛ ضرب لهم مثلاً برسوله الذي هداه إلى الصراط المستقيم، والذي يتطلع إليه الجميع، وهو النبي إبراهيم عليه السلام الذي وجه الحياة برمتها إلى خط التوحيد، ونفي الشركاء، والتسليم لرب العالمين، وتحمل مسؤوليات الإيمان.

7

سُورَةُ الأعْرَافِ

* بناء الشخصية المؤمنة

هذه السورة تبحث موضوع الإنسان؛ ففي البداية تشير إلى كتاب الله الذي أنزله على قلب الرسول لهداية الناس وإنذارهم به حتى يؤمنوا به فيكون ذكرى لهم، ثم تفرض على الناس اتباع قيم الكتاب.

أما اتباع من لا يؤمن بهذه القيم فحرام، لأنهم يقودون البشر إلى الهلاك. ثم تشير السورة في مطلعها إلى أن الله سبحانه يحاسب الذين أرسل إليهم الكتاب كما يحاسب من أرسلهم لتبليغ الرسالة، وبعد الحساب الدقيق يفصل بين العباد، فمن ثقلت موازينه كان من أهل الجنة والفلاح، ومن خَفَّت موازينه كان من الخاسرين لأنه لم يستمع إلى آيات الله ولم يهتدِ بها (الآيات ١-٩).

ثم تبين السورة قصة الخطيئة الأولى وغريزة حب السلطة وحب الخلود، وكيف يغوي الشيطان البشر فيندم، ويتعدى على حقيقته التي لا يسترها إلا لباس التقوى، وإن من عوامل الخطيئة التقليد وتقديس الآباء والزعم بأن الله يأمر بذلك.

بينما الله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بالقسط، والتوجه مخلصاً إلى الله والتزين عند كل مسجد، وأن يتمتع الإنسان بالخيرات دون إسراف، وأن من الحرام الفواحش والبغي والشرك والتقول على الله بدون علم أو كتاب منير (الآيات ١٠-٣٣).

والإنسان يهتدي برسالات الله، أما من يكذب ويستكبر، أو يفتري على الله فإنه يعذب عذاباً شديداً، حيث تلعن كل أمة أختها بسبب الطاعة لها، أما في الجنة فهناك القلوب الصافية.

وهذا التقسيم للناس إنما هو بمقياس الهداية والضلالة، والعلاقة بينهما هي التي تظهر عند الله، حيث يستنجد الكفار بأهل الجنة، فيذكرونهم بأيام صدهم عن سبيل الله في الدنيا، وبينهما أهل الأعراف من قادة المتقين حيث يعرفونهم جميعاً، ويوبخون أولئك الذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً، وانتظروا نهاية الأمر (الآيات ٣٤-٥٢).

وعلاقة الإنسان بالله هي طلب المزيد من رحمته، لأنه رب العالمين، وعلاقته بالحياة وبالناس هي الإصلاح وعدم الإفساد.

وكما أرسل الله الرياح بشراً بين يدي رحمته، فكذلك أنزل رسالاته هدى ورحمة.

وقصة نوح عليه السلام مع قومه تدل كيف أن رسل الله يريدون هداية الناس وإنذارهم ورحمتهم بالتالي، ولكنهم يعاندون ويستكبرون فيهلكون (الآيات ٥٣-٦٤).

وكذلك النبي هود عليه السلام الذي دعا إلى التقوى، فكذبوه وسفّهوه، ولكنه ذكّرهم برب العالمين وصاحب الرحمة المكتملة لهم، وذكّرهم كيف استخلفهم الله في الأرض، فتمسكوا بضلالة آبائهم، فاستمهلهم الله قليلاً، وبعدئذٍ قطع الله دابرهم (الآيات ٦٥-٧٢).

أما صالح رسول الله إلى ثمود، فقد زوّد بناقة معجزة، وذكّرهم باستخلافهم، ونعم الرفاه والعمارة عندهم، ولكن حالةالاستكبار واستغلال المستضعفين منعتهم من الاهتداء، فعقروا الناقة، فأهلكهم الله (الآيات ٧٣-٧٩).

وانحرف الإنسان في قوم لوط عليه السلام بالشذوذ الجنسي، فأمطر الله عليهم -بعد نصيحة نبيهم- مطر السوء.

أما مدين؛ فقد نصحهم رسولهم شعيب عليه السلام بترك الفساد الاقتصادي، والإصلاح، وعدم الصد عن سبيل الله الذي اتبعه فريق منهم. ولكن الاستكبار منعهم، ودعاهم إلى محاولة إخراج شعيب. وتوكل المؤمنون على الله، فأخذت الرجفة الظالمين وأصبحوا حديثاً يروى، ولم يأسَ عليهم رسولهم الناصح (الآيات ٨٠-٩٣).

ويأخذ الله كل قوم يُرسِلُ إليهم نبياً بالبأساء والضراء، ولكنه يبدلهم بالحسنة السيئة، ثم إذا لم تنفعهم الحسنة بالسيئة يأخذهم بغتة، وأن الإيمان والتقوى يفتحان بركات السماء عليهم، ولكن هل يأمن أهل القرى بأس الله ومكره؟ إن عليهم أن ينظروا كيف يهلك الله قوماً، ويستخلفهم بقوم آخرين (الآيات ٩٤-١٠٠).

كذلك جاء النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآيات لملأ فرعون الذين ذكروا بها، وانتهت حياتهم الفاسدة، وذكّرهم النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحق وطالبهم بتحرير بني اسرائيل، فطالبوه بآية فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأراهم يده البيضاء، ولكنهم رموه بالسحر واتهموه بتهديد الأمن، وسجنوه وجمعوا السحرة، فآمن السحرة وانقلبوا صاغرين، وعذب فرعون السحرة المؤمنين فصبروا، وطالب الملأ فرعون بعقاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتوعد فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن قوم موسى استعانوا بالله وصبروا انتظاراً لوراثة الأرض، فأخذ الله آل فرعون بالسنين والمصائب، ولكنهم نسبوا الحسنة إلى أنفسهم والسيئة إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستكبروا على الإيمان وتظاهروا بالإيمان عند السيئة، وكفروا عند الحسنة، فانتقم الله منهم فأغرقهم، وأورث الله الأرض الذين كانوا يُستضعفون، ودمر فرعون وقومه (الآيات ١٠١-١٣٧).

ويستمر السياق القرآني في بيان السيرة البشرية بين فريقي المهتدين والضالين، حيث يحدثنا عن مجمل قصص النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه (الآيات ١٣٨-١٥٦).

ثم يحدثنا السياق عن الرسالة الجديدة التي جاءت محررةً للبشرية من أغلالها النفسية والثقافية، وذلك على يد النبي الأمي المبشّر به في الكتب السابقة، والتي هي رسالة جميع البشر (الآيات ١٥٧-١٥٨).

ويعود السياق إلى أمة النبي موسى وانقسامها وأخطائها؛ ومنها عدم تناهيهم عن المنكر في قصة السبت، وكيف مسخوا قردة، وكيف تركوا الدين بالرغم من أن بعضهم ظل متمسكاً بالكتاب، وكيف أمرهم الله بأخذ الكتاب بقوة وذلك بعد أن نتق الجبل فوقهم (الآيات ١٥٩-١٧١).

ولكن السياق يعود بنا إلى العهد الإنساني الأول، حيث أخذ ربنا من بني آدم

عندما كانوا في ظهور آبائهم ميثاقاً باتباع الهدى، وكيف أن بعضهم يشرك الآن بسبب شرك آبائهم، وأن بعضهم ينقض هذا العهد -عهد العلم والمعرفة-، حيث يخالف ميثاق المعرفة (الآيات ١٧٢-١٧٦).

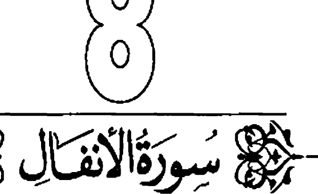
لذلك يختار الله اليهود تارةً والعرب تارةً، حسب ظروف فترة الاختيار، ويبين مدى الجريمة عند من يكذب بالدين، وكيف أن ربنا قد قدر لهم جهنم مصيراً، لأنهم لم يستفيدوا من مداركهم (الآيات ١٧٧-١٧٩).

ويبين الله أسماءه الحسنى، وكيف أن طائفة يلحدون في أسمائه سبحانه، وأن الله سيستدرج المكذبين ويملي لهم حسب خطة حكيمة؛ لأنهم لم يتفكّروا ليعرفوا أن رسولهم ليس بمجنون، ولم يتفكروا ليعرفوا ما في السماوات والأرض من آثار التدبير والتقدير، وأنه عسى قد يكون أجلهم قد اقترب، وأنه إن لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون؟ (الآيات ١٨٠-١٨٥).

والله يضل، ومن يضلله الله فلا هادي له، وأن الساعة علمها عند الله، وأما الرسول فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً (الآيات ١٨٦-١٨٨).

ويبين السياق كيف أن الله عزوجل قدر حياة البشر، وخلق الإنسان بوحدانيته المتعالية عن الشركاء، ولكن المربين أفسدوا ضميره وأشركوا فيه، بينما الله هو ولي البشر، وولي الصالحين منهم بالذات، بينما الشركاء لا يستطيعون نصر البشر والشركاء لا يملكون السمع (الآيات ١٨٩-١٩٨).

وعلى الرسول أن يأخذ العفو، ويأمر بالفطرة والعقل، ويبتعد عن الجهل، وعلى الإنسان أن يتقوّى بالله عزوجل على شيطانه، وأن يتذكر ربه حتى يمسح عن نفسه آثار مس الشيطان ويبصر الحقائق، وإذا لم يكن الإنسان متقياً فإن الشيطان يمده في الغي والعمه فتراه يطالب أبداً بآية لم ينزلها الله دون أن يتنبهوا إلى أن الرسول مقيد بالوحي، وأن القرآن بصائر، وعلى الإنسان نفسه أن يتبصر الحقائق، وأن يستمع إلى القرآن، وأن يذكر ربه تضرعاً وخيفةً، وأن يتجنب الغفلة، ولا يستكبر عن عبادة ربه، ويسبحه ويسجد له، ذلك هو برنامج بناء الشخصية المؤمنة والإنسان المتكامل الذي تتناوله موضوعات سورة الأعراف (الآيات ١٩٩-٢٠٦).



8 سورة الأنفال

* الهجرة وآفاق الجهاد

سميت السورة الثامنة من القرآن بالأنفال، لأن الحديث الأول فيها عن الغنائم الإضافية التي تسمى بـ(النفل) وهو: «كل زيادة تعطى». وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ الْأَنْفَالَ كُلُّ مَا أُخِذَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَكُلُّ أَرْضٍ انْجَلَى أَهْلُهَا عَنْهَا بِغَيْرِ قِتَالٍ (ويسميها الفقهاء فيئاً) وَمِيرَاثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، وَقَطَائِعُ الْمُلُوكِ إِذَا كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ غَيْرِ غَصْبٍ وَالْآجَامُ وَبُطُونُ الْأَوْدِيَةِ وَ الْأَرَضُونَ الْمَوَاتُ»[1].

ويمكننا أن نوجز الأنفال في عبارة؛ هي: كل شيء يتحرر من الملكية الخاصة، فيعود إلى الملكية العامة، فتصبح بيد إمام الأمة، وفي عهد رسول الله ﷺ يكون بالطبع في يده ﷺ.

جاءت الآية الأولى في الأنفال، والآية (٤١) في خُمس الغنائم، والآية (٦٦) في حليّة أكل الغنائم، وهذه الآيات الثلاث تشكل حكماً واحداً، حيث يجب تقسيم الغنائم التي يحصل عليه الجيش المجاهد بين المقاتلين، بعد إخراج خمسها لبيت المال. أما ما وراء الغنائم من الأنفال، فهي لبيت المال - الدولة.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢١٠.

أمـا الآيـات الأخرى في السـورة؛ فهـي تدور حول صفـات المؤمنـين الصادقين، والتي منها تصديقهم بالغيب، إذ يسـتجيبون للرسـالة حتى ولـو كانت مخالفة لأهوائهم أو نظراتهـم الضيقـة، حيث أخرج الله نبيه بالحـق بالرغم من كراهة طائفـة من المؤمنين، والهدف كان كسب القتال، وقد أمد الله جيش الإسلام بالملائكة ليكونوا بشرى للقلوب.

وتستمر (الآيات: ١٥-٢٩) تتحدث عن الجهاد وعوامل هزيمة الكفار وأسباب انتصـار المسـلمين التي يأمرنـا ربنا بها، ومنهـا الثبـات وإرادة مرضاة الله تعـالى، وطاعة القيادة، والاسـتجابة لدعوة الرسـول ﷺ، وتجنب الفتنة، والتحرر من جاذبية الأهل والأموال، والتقوى والبصيرة.

أمـا مكـر الكفـار ودعاياتهم التـي تتحدث عنهـا (الآيـات: ٣٠-٣٨) فإنها زائلة مثـل قولهم: إنهم قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن، أو التحدي باسـتعجال العذاب، أو الصـلاة عند البيت مـكاءً وتصدية، أو إنفاق أموالهم التي من نتائجها تعبئة الكفار، لكي يكون القضاء عليهم مرة واحدة.

ويبين القرآن ضرورة القتال الشديد ضد الكفار بهدف اقتلاع جذور الفتنة، وعدم الخـوف، لأن نـصر الله قريـب. إذ أن الله سـبحانه يقـضي بالحرب برغم تهـاون فريق من المسـلمين عنها خوفـاً، لكي يقضي أمراً كان مفعولاً. ولكن للنـصر شروطاً؛ منها الثبات الطاعـة وعـدم النزاع، والصبر وعدم البطر، وتجنب الرياء، وأن يكون الهدف هو مرضاة الله. أما أولئك الذين اسـتهدفوا الصد عن سـبيل الله فإن الشـيطان غرّهم ثم تركهم، أما المؤمنون فإن الدين يشـجعهم على الجهـاد، وليس هذا غروراً، وإذا لم تقتلع الحرب جذر الفسـاد فـإن سـنة الله في الحياة هي التي تقضي بنهاية المفسـدين كما فعـل ربنا بآل فرعون الظالمين (الآيات: ٣٩-٥٦).

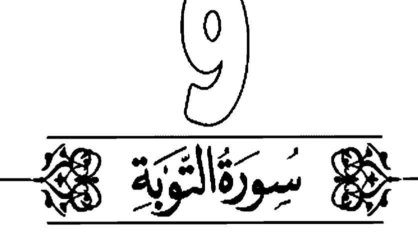
ويعـرج القـرآن إلى ذكر اسـتراتيجية القتال كما جاء في (الآيـات: ٥٧-٦٩) فيأمر بإلقاء الرعب؛ ليس فقط فيمن هو في جبهة القتال فحسـب، بل بكل الأعداء، وضرورة الاستعداد للقتال سلفاً، وضرورة قبول السلم والتوكل على الله فيه، والاعتمادعلى الله في ألاّ يكون سلمهم خداعاً، وضرورة الوحدة والتحريض على القتال، والاستعداد النفسي

لقبول التضحيات، وفي مقابل التضحيات يحصل المسلمون على الغنائم الحلال.

أما الأسرى؛ فلو كانت نياتهم صافية فإن جزاءهم على الله تعالى، ويجب أن يحسن معاملتهم دون خوف من خيانتهم (الآيات: ٧٠-٧١).

وفي نهاية السورة (الآيات: ٧٢-٧٥) يلخص القرآن موضوع السورة ويأمر بالهجرة والجهاد بالمال والنفس، ويبين أن من يفعل ذلك يكون وليًّا لمن يأوي المهاجرين وينصر الرسالة، بينما الكفار هم فئة واحدة، والمؤمنون المجاهدون -مهاجرون وأنصار- هم صفوة المؤمنين وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض.

وهكذا تدور آيات سورة الأنفال في مسائل الجهاد والهجرة من أجل الله تعالى.



* الجهاد سبيل البراءة من المشركين

بالرغم من أن الطابع العام للسورة هو الإنذار الصاعق للمشركين، فإن وجود آيات التوبة خصوصاً في بداية السورة تفتح باباً عريضاً للرحمة في جو الغضب الرهيب. لذلك سميت بسورة التوبة، إشارة إلى أن المخرج من الوضع الحرج هو الذي يجب أن يركز الضوء عليه، وقد تسمى هذه السورة بالبراءة إشارة إلى الجو العام لها، والذي لا يختلف كثيراً عن إطار سورة الأنفال. حتى أن بعضهم رأى أن سورة التوبة امتداد لسورة الأنفال، ذلك أن السياق يتحدث عن ضرورة هدم كيان الشرك من الأساس، وبناء الكيان التوحيدي، واستخدام العنف كآخر وسيلة لحسم الموقف.

ولكي يتقبل المجتمع الجهاد بما فيه من عنف وتضحيات، فإنه بحاجة:

أولاً: إلى انفصال نفسي بينه وبين العدو.

ثانياً: إلى الإستعداد للتضحية، وجعل التضحية والشهادة في سبيل الهدف القيمة الأعلى.

ثالثاً: إلى تهيئة الوسائل المساعدة للجهاد (الآيات: ١-٥).

وبالرغم من إعلان الحرب ضد الشرك، فإن ذلك لا يعني السماح بالغدر بالمشركين، بل إذا استجار بالرسول أحد منهم، فإن الإسلام يعطيه الأمان، لفترة البحث

عن صحة الإسلام، ثم إذا لم يقتنع يُعاد إلى مأمنه سالماً، وذلك لأن الإسلام يفي بالعهد مع المشركين ماداموا ملتزمين به (الآيات: ٦-٧).

أما الموقف الإسلامي منهم إذا نقضوا العهد وخانوا أيمانهم، فهو القتال الموجه ضد قيادتهم غير الملتزمة بأواصر الإنسانية. فالله يعذب الكفار، ولكن بأيدي المسلمين. وحين يكافح المؤمنون أعداءهم، فإن الله ينصرهم ويخزي الكافرين (الآيات: ٨-١٦).

ثم يُبين الله أن الجهاد مدرسة لتربية الإنسان المسلم، وأن المظاهر الدينية التي يتوسل بها الكفار مثل عمارة المسجد غير مقبولة عند الله عزوجل، على اعتبار أن العمل الصالح جوهر لا مظهر، ولأن الهوية الإسلامية لا تتحقق إلا بإخلاص الولاء لله وللقيادة الرسالية والمجتمع المسلم (الآيات: ١٧-٢٢).

ولكي تستعد الأمة للجهاد، لابد أن يخلص انتماء أبنائها إليها، باعتبارها تجمعاً مبدئيًا، وألاّ يتخذوا أقاربهم أولياء إن فضلوا الكفر على الإيمان، ذلك لأن أي خلل في الإنتماء يبعث خللاً في الإيمان، وكمثل على هذا الخلل وأثره السلبي على الصراع ما جرى في حنين إذ اعتمد الجيش على الكثرة لا على الإيمان، فانهزم الجيش وضاقت عليهم الأرض..(الآيات: ٢٣-٢٧).

ولهذا؛ فإن (الآيات: ٢٨-٣١) تحرض المسلمين على قتال المشركين وطردهم من المسجد الحرام بالإضافة إلى قتال الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً حقيقياً ينعكس على ثقافتهم وسلوكهم، كما أنهم لا يلتزمون بشرائع الله وأوامر الرسول وسيادة الدين والنظام الحق، فهؤلاء يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية خضوعاً للحق وهم صاغرون.

ولا يزال السياق القرآني (الآيات: ٣٢-٣٥) يبين الفساد الذي تسرب إلى اليهود والنصارى من خلال تقليدهم الأعمى للأحبار والرهبان ومخالفة النور الإلهي.

وبعد الحديث عن الكفار من أهل الكتاب، عاد القرآن مرة أخرى للحديث عن المشركين، وبيّن أن الالتزام بالأشهر الحرم من مظاهر الدين القيّم. أما التلاعب بأحكام الله وتغيير الأشهر حسب الأهواء، فإنه زيادة في الكفر وضلالة(الآيات: ٣٦-٤٠).

ويخاطب القرآن المؤمنين: لماذا لا يخفّون إلى القتال حين يؤمرون به؟ وهل التثاقل بسبب الرضا بالدنيا والاستغناء عن الآخرة؟.

وتعلن (الآيات: ٤١-٤٥) وجوب الجهاد بأيّة صورة ممكنة. بيد أن البعض يزعم بأن الجهاد كما السفرة السياحية أوالمكاسب العاجلة، وحينما يكتشف مشاقه ومتاعبه يوليه الدبر مبرراً ذلك بالعجز.. ولكن هذا البعض لا يضرّ إلا نفسه.. و على القيادة الإسلامية اتخاذ الجهاد وسيلة من وسائل كشف العناصر الضعيفة والمنافقة، فلا تأذن لم يستأذنها في ترك الجهاد، ذلك لأن المؤمنين لا يستأذنون القيادة لأنهم يتطلعون نحو الجهاد بأنفسهم وأموالهم إيماناً منهم بالله واليوم الآخر، والله عليم بهم.

إنما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حقاً ويرتابون في ذلك هم وحدهم الذين يستأذنون.

و(الآيات: ٤٦-٥٢) تزيد من كشف المنافقين وتحديد مقاييس تمييزهم، ومنها:

١- أنهم يرفضون الجهاد أساساً.

٢- أنهم لا يمارسون عملية الجهاد وإن خرجوا له.

٣- أنهم يثيرون الفتن ويفسدون علاقات المؤمنين بإثارة النعرات الجهاهلية.

٤- أنهم يمارسون عمليات التجسس لصالح الكفار.

٥- أنهم يفرحون بهزيمة المسلمين ويحزنون لانتصارهم.

وحيث يتحدث القرآن عن سلوك المنافقين في الحرب، يعرج على موقفهم من المال، وحرصهم الشديد على أن لا ينفقوا في سبيل الله إلا رياءً. فتتحول أموالهم وأولادهم إلى عذاب لهم في الدنيا، وغرور يدفعهم نحو الاستمرار في الكفر(الآيات: ٥٣-٥٥).

ثم إن علاقة المنافقين بالمؤمنين تحددها مصالحهم الخاصة، فإذا وجدوا مغانم ومكاسب بادروا إلى تسجيل أسمائهم مع المؤمنين، وإلاّ تهربوا من المجتمع المسلم وذهبوا إلى شياطينهم، ولكن مع كل ذلك تراهم يحلفون بالله أبداً أنهم من جماعتكم، والواقع إنهم مع مصالحهم، ولذلك تراهم كل يوم مع جماعة (الآيات: ٥٦-٥٧).

ويتحدث السياق في (الآيات: ٥٨-٦٠) عن الصدقات لعلاقتها بالجهاد، ثم يتحدث عن المنافقين ودورهم التخريبي في الصراع.. (الآيات: ٦١-٦٨)، وعن المؤمنين ووحدتهم وصفاتهم المثلى.. (الآيات: ٧١-٧٢).

ثم يتحدث عن قتال المنافقين والكفار، وعن النفاق بعد الإيمان الذي يتعرض له بعض الناس وما يؤول إليه مصيرهم من النفاق الأبدي (الآيات: ٧٣-٧٨)، وكما يتحدث عن الذين يمنعون الصدقات من المنافقين.. (الآيات: ٧٩-٨٠).

ويتحدث عن الذين يتقاعسون ويبين صفات المنافقين من التقاعس عن الجهاد وسائر صفاتهم الشاذة، ويمنع الرسول من الصلاة على المنافقين، ثم يشيد بالرسول وبالمؤمنين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبما أعد الله لهم من الخلود في الجنة(الآيات: ٨١-٨٧).

ويتحدث السياق عن أعذار المنافقين في الجهاد وعن استثناءات الجهاد (الآيات: ٩٠-٩٦).

كما يتحدث عن الأعراب، المنافقين منهم والمؤمنين.. (الآيات: ٩٧-٩٩)، وعن السابقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه (الآية: ١٠٠).

وعن أهل المدينة، وأن في الأعراب منافقين غير معروفين.. (الآية: ١٠١).

وأن هناك طائفة اعترفوا بذنوبهم ويجب أن تؤخذ من أموالهم الصدقات.. زكاةً، وطهارةً لهم، وقبولاً لتوبتهم..(الآيات: ١٠٢-١٠٤).

وبعد الحث على العمل يحدثنا السياق عن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وضرورة مقاطعة هذا المسجد، والاستبدال عنه بمسجد التقوى.. (الآيات: ١٠٥-١١٠).

ولقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. (الآيات: ١١١-١١٢).

ويبين القرآن أنه ليس بين الكفار والمؤمنين ولاء حتى بالاستغفار، وأن الله يتم حجته

على عباده، وأن الله يتوب على من ختم أمره بالجهاد أو بالتوبة.. (الآيات: ١١٣-١١٨).

من هنا؛ يجب على المؤمنين القتال وليعرفوا أن أعمالهم الصالحة جميعاً محسوبة ومجزية خيراً.. (الآيات: ١١٩-١٢١).

كما يأمر ربنا سبحانه بأن لا بد أن ينفر طائفة للتفقه في الدين والإنذار (الآية: ١٢٢).

ووجوب البدء في القتال بأقرب الكفار.. (الآية: ١٢٣).

ويبين أن من صفات المنافقين أنهم يستهزؤون إذا نزلت سورة تأمرهم بالجهاد (الآيات: ١٢٤-١٢٧).

وفي الآيتين الأخيرتين: (١٢٨ و ١٢٩) يذكّرنا السياق بأن الرسول قادم من صميم قومه الذين أُرسل إليهم، فهو من أنفسهم، وأنه يتأثّر ويحزن إذا وجد مكروهاً يصيب قومه، وأنه يحرص على سلامتهم، وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

ولكن لا يعني ذلك أن رسول الله ﷺ يعتمد على قومه ويتأثر بسلبياتهم، كلا.. بل يصمد أمامها إعتماداً على الله تعالى، فإن تولوا فإن حسبه الله يتوكل عليه، وهو رب العرش العظيم.

10

سُورَةُ يُونُسَ

* التوكّل على اللّه في مواجهة الطغاة

لابد من التوكل على الله سبحانه عندما يتحدى الإنسان ضغوط الطبيعة، وإرهاب الطغاة، كما فعل شيخ المرسلين نوح عليه السلام، وكما أمر النبي موسى عليه السلام قومه بأن يفعلوا، ولابد أن يؤمن الإنسان بالله وبسلطانه على خلقه وتدبيره له، ويؤمن بأن جزاءه حق، وأنه يعاقب الكافرين بيوم الجزاء كما يثيب الصالحين بأفضل الجزاء.. هناك يقوى على الشهوات ويواجه إرهاب الطغاة.

ومتى يعي البشر حقيقته وأنه عبد لله، وأنه لا إله إلا الله؟.

يعي ذلك عند الضراء، حين تتساقط حجب الغفلة والشرك وتتجلى قدرة الله سبحانه. وتتأكد الذكرى بهذه الحقيقة في سورة يونس عليه السلام ثلاث مرات، وتتناسب مع قصة قوم النبي يونس حيث سمى القرآن السورة باسمه، لأنه قد رفع الله عنهم العذاب بعد أن أحاط بهم.

تبدأ السورة بالإشارة إلى كتاب الله وإلى عجب الناس من أن يوحي الله إلى رجل منهم يبشرهم وينذرهم (الآيات: ١-٢).

ثم يتحدث القرآن الكريم عن التوحيد والربوبية، ثم عن المعاد والجزاء، وعن

بعض آيات الله المتجلية في الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار و.. (الآيات: ٣-٦).

ولكن لماذا يكفر فريق من الناس بالرغم من هذه الآيات الواضحة؟ لأنهم لا يحبون لقاء الله، ولذلك فإن النار مأواهم. أما المؤمنون بالله والعاملون الصالحات فإن الله يهديهم في الدنيا ويجزيهم جنات النعيم في الآخرة (الآيات: ٧-١٠).

ولكي يستفيق البشر من غفوتهم، فإن القرآن الحكيم يذكرهم بما ينتظرهم من العذاب بسبب أعمالهم. وبالرغم من أن فطرة الإنسان تدعوه إلى الله إذا مسه الضر، ولكنه يستمر في حياته المنحرفة بعد أن يكشف الله عنه الضر. ولكن الله يهلك المجرمين كما أهلك من كان قبلهم، ثم يأتي بأجيال أخرى ينظر ماذا يعملون (الآيات: ١١-١٤).

ثم نقرأ في آي السورة، عن جدل الكفار حول القرآن، وكيف يفنده الذكر، ولعل ذلك جزءاً من التحدي الذي أمر به القرآن في هذه السورة (الآيات: ١٥-١٧).

ولكي تتم عند النفس حالة التحدي في مواجهة الطغاة والقوى الطبيعية، لابد أن يستهين المؤمن بالشركاء، الذين لا يضرون ولاينفعون (الآية: ١٨) وتأخير العذاب عنهم ليس إلا لكلمة سبقت من الرب (الآية: ١٩)، والغيب عند الله (الآية: ٢٠)، والله أسرع مكراً ورسله يكتبون ما يمكر المجرمون (الآية: ٢١).

وبعد أن يذكّر القرآن الناس مرة أخرى بحالتهم عند إحاطة الخطر بهم، وكيف أنهم ينسون الشكر بعد أن ينجيهم الله سبحانه (الآيات: ٢٢-٢٣)، يضرب مثل الحياة الدنيا، والمثل مقتبس من دورة حياتية يتميز بها النبات (الآية: ٢٤)، والسلام عند الله، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم (الآية: ٢٥)، وسلام الله إنما هو للذين أحسنوا، أما المجرمون فلهم النار (الآيات: ٢٦-٢٧).

وهكذا يأمرنا بالكفر بالشركاء، لأنهم يتبرؤون من أتباعهم، وعند الله الجزاء (الآيات: ٢٨-٣٠). ويستمر السياق القرآني في بيان حقيقة الشركاء وأنهم تافهون، وأن إتبّاعهم ليس إلا اتباعاً للظن (الآيات: ٣١-٣٦).

ويعود إلى بيان أن القرآن لا ريب فيه، وأن جهلهم به هو الذي دعاهم إلى

التكذيب به (الآيات: ٣٧-٤٠). ويأمرنا بتحدي المشركين والبراءة منهم، ويبين ضلالة الذين يكفرون بالقرآن، وأنهم هم عمي، وأن عماهم وصممهم منهم، لأن الله لايظلمهم (الآيات: ٤١-٤٦).

ثـم يعود ويبين أن الله هو الذي يملك الضر والنفع، فلابد أن نتوكل عليه، ونترك الشركاء (الآيات: ٤٩-٥٢)، ويؤكد أن القرآن وما فيه حق، وأن الجزاء واقع، وأن وعد الله حق، وأن الله يحيي ويميت، وأن القرآن موعظة وشفاء (الآيات: ٥٣-٥٨). كل ذلك يثبت فؤاد المؤمنين تمهيداً للبراءة من الشركاء.

ويبـين القـرآن أن التشريع إنما هو لله وحده وليس للـشركاء، وينذر الذين يفترون على الله الكذب، وأن الله شاهد على كل كلام، وأنه مسجل عنده صغيراً وكبيراً (الآيات: ٥٩-٦١).

وأن أوليـاء الله لا خـوف عليهـم (بعكس أولياء الـشركاء) وأن لهم البشرى، وأن لله العزة (وليس للمشركين)، وأن له ما في السـماوات والأرض، وليس للطغاة، وأنه هو الذي جعل الليل ليسكن فيه الناس والنهار مبصراًوليس الشركاء (الآيات: ٦٢-٦٧).

أما قولهم بأن الله قد اتخذ ولداً -وهو أحد سـخافات المشركين- فإنه ضلال، لأن الله سبحانه غني عن الولد، وأنه ليس إلا افتراءً لا يفلح صاحبه، وأن هدف الافتراء متاع الدنيا، وهو قليل، ونهاية المشركين العذاب الشديد بكفرهم (الآيات: ٦٨-٧٠).

كل تلـك الآيات تمهد لإعلان البراءة من المشركين، كما فعل نوح شـيخ المرسـلين عليه السلام فأغرق الله قومه وخسر المشركون (الآيات: ٧١-٧٣).

ولعـل الآيـات (الآيات: ٧٠-٩٣) هي غرر هذه السـورة الكريمة، حيث تفصل القـول عن تحدي الرسـل لطغـاة عصرهم وكفار النـاس من قومهم، وكيـف أنهم أمروا أتباعهم بالتوكل على الله، وبالتالي كيف نصرهم الله سبحانه.

ثـم بعد بيان قصص الأنبياء عليهم السلام، يأمر الله بطرد الشـك في القرآن، والابتعاد عن التكذيـب بآيـات الله، وأن الكفار لا يؤمنـون حتى يروا العذاب الأليـم (الآيات: ٩٤-

٩٧)، ولكن هل ينفع الإيمان ذلك اليوم؟ لا؛ إنما قرية واحدة نفعها إيمانها حين آمنت بالله، وهي قرية النبي يونس عليه السلام (الآية: ٩٨).

ولكن هل إن مصدر الإيمان من العبد أو من الرب؟.

لا ريب أن الله لا يكره الناس على الإيمان، وهكذا على كل نفس تحدي أمواج الكفر للوصول إلى شاطئ الأمان، حيث يأذن الله له بالإيمان (الآيات: ٩٩-١٠٠).

ويعود القرآن ليسفّه حالة الانتظار في النفس، بل على الإنسان أن يبادر للإيمان، حتى يكون من الذين ينجيهم الله عند العذاب (الآيات: ١٠١-١٠٣).

ويعلن القرآن على لسان النبي صلى الله عليه وآله البراءة من الشركاء، وأنه يخلص العبودية لله وبذلك يتحدى المشركين (الآية: ١٠٤)، ويأمره بإقامة وجهه لله حنيفاً ورفض الشركاء، لأنه من غير ذلك سيصبح ظالماً لنفسه (الآيات: ١٠٥-١٠٦)، والاعتقاد بأن الذي يرفع الضر هو الله، وأنه إذا تفضل على عبده بخير فلا رادّ لفضله إلا هو (الآية: ١٠٧).

وهكذا على المؤمن أن يتحدى الشركاء والمشركين والتمسك بهدى الله، لأنه آنئذ ينفعه، كما أن ضلالته عن القرآن تضره هو وليس غيره. وأن على المؤمن اتباع ما يوحى إلى الرسول والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (الآيات: ١٠٨-١٠٩).

وبهذا نستطيع أن نستفيد من سورة يونس عليه السلام روح التوكل على الله، وتحدي الطبيعة والطغاة، ومقاومة ضعف النفس أمام المشاكل والأخطار.

11

سُورَةُ هُودٍ

* الاستقامة طريق الجنة

لعـل (الآيـات: ١١٢-١٢٠) في نهاية السـورة تحدد الإطار العام لهـا، حيث تأمر الرسول بالاستقامة، والابتعاد عن الظالمين، وإقامة الصلاة، والصبر، والإحسان.

كما تذكّره بدور بقية الله -ممن ينهون عن الفساد- في التاريخ، وكيف أن الله أنجاهم وحدهم، بينما أهلك الظالمين الذين اتبعوا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين.

وتبين أن الله لم يهلك القرى إلا حين انعدم الصلاح بينهم.

وأن الاختـلاف سـنّة تاريخيـة بـين النـاس، وأن الله لم يخلـق النـاس ليعذبهم -بل ليرحمهم- بيد أنه قد قضى بأن يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

وأن القصـص التي ذكرهـا الرب كانت بهدف تثبيت فؤاد الرسـول، وبيان الحق، وتوفير الموعظة والذكرى للمؤمنين.

وتكاد تكون آيات سورة هود تفصيلاً لهذه البصائر المحكمة ببيان جوهر رسالات الله التي حملها النبيون عليهم السلام إلى الناس، وتحملوا -من أجلها- ألواناً من العناء، وأنجاهم الرب من بطش قومهم، وأنزل العذاب الأليم على الكافرين برسالاته.

وهكذا؛ أضحت الرسالات هذه محور النجاة والعذاب، فمن اتبعها أنجاه الله، ومن خالفها لحقه العذاب واللعنة في الدنيا، والنار والشقاء في الآخرة.

إنَّ جوهر رسالات الله، وفي طليعتها رسالة القرآن التي أُحكمت آياته ثم فصلت، هي توحيد العبودية لله، والإنذار والبشارة، والأمر بطلب المغفرة من الرب في الدنيا، والتوبة إليه لضمان حياة سعيدة (الآيات: ١-٣).

ثم اتقاء يوم البعث، والخشية من الله الذي يعلم سرهم وإعلانهم ويعلم كل شيء. أو ليس قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام؟ والهدف هو ابتلاء الناس.

ولئن تم تأخير العذاب عن هؤلاء الذين كفروا بالله ورسالاته وبيوم الدين، فلأنه يوم يأتيهم لا يؤخر عنهم (الآيات: ٤-٨).

وبعد بيان طبيعة الجزع عند البشر إلا المؤمنين منهم، يثبّت القرآن فؤاد النبي ﷺ بأنه منذر. أما المنتقم فهو الله الوكيل على كل شيء، ثم يأمره بتحديهم بأن يأتوا بمثل القرآن، وإذ يظهرون عجزهم فليعلموا أن القرآن أنزل بعلم الله (الآيات: ٩-١٤).

ثم يذكّر القرآن بأن للعمل جزاءه، فمن عمل للآخرة فإن جزاءه يوفى إليه هناك، وفي الدنيا يُعطى له نصيب منه، ومن عمل للدنيا يُعطى كل جزائه في الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار (الآيات: ١٥-١٦).

ثم يبيّن القرآن أن هناك فريقين من الناس؛ المؤمنون الذين هم على طريق هدى، والكافرون الذين تشتتوا أحزاباً مختلفين. وبينما المؤمنون هم على بينة من ربهم ترى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلماً لأنفسهم، ولابد أن يكونوا هم الأخسرين يوم القيامة (الآيات: ١٧-٢٢).

ثم يشير إلى أن عاقبة المؤمنين الصالحين الذين أخبتوا إلى ربهم هي الجنة لأنهم أصحاب سمع وأبصار، بينما الكفار كالأعمى ولذلك فهم لا يهتدون سبيلاً (الآيات: ٢٣-٢٤).

وهكذا جاءت رسالات الله على لسان النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت فصول الصراع

بينـه وبـين قومه تعكـس حالة العناد عند قومه، وقوة الاسـتقامة عنـد النبي نوح عليه السلام، وانتهـى الصراع بالطوفان، حيث أنجى الله نوحاً والذين آمنوا، وأغرق الظالمين، وبينهم ابن النبي نوح الذي لم يغن عنه أنه كان ابن نوح، لأن محور النجاة هو توحيد الله (الآيات: ٢٥-٤٩).

ومن بعد النبي نوح عليه السلام جاء النبي هود عليه السلام يدعو قومه عادًا بتلك الرسالات، فلم يستجيبوا لـه، وجرى بينهم صراع مشـابه: عاندوا، فتحدّاهم، وأيـده الله وأهلكهم بعذاب غليظ (الآيات: ٥٠-٦٠).

وكذلـك ثمود حين جاءهم أخوهم صالـح عليه السلام، وأمرهم بتوحيد عبادة الرب، وجاءهـم بآيـة هي ناقته التـي لم يلبثوا أن عقروهـا، فجاء أمر الله، ونجى عبده ورسـوله صالحاً، وأخذت الذين ظلموا الصيحة (الآيات: ٦١-٦٨).

وهكذا؛ إبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وبالرغم من أن جوهر رسالات الله واحـد، إلا أن هنـاك بعـض التفاصيل المختلفة بسـبب اختلاف الظـروف نقرؤها في (الآيات: ٦٩-١٠٠).

وبعـد بيان كل تلك القصص يبين السـياق العبرة منهـا، ويذكّر بالقيامة، حيث أن عـذاب الله في الدنيـا، آيـة عذابه في الآخرة، كـما أن رحمته ونجاته هنا آيـة نعيم الجنة التي وهبها للمؤمنين، وأن تأخير يوم القيامة ليس بلا حدود، بل إن هناك أجلاً معدوداً ينتهي إليه التأخـير. فنحن نقترب إليـه على قطار الزمـن، وحينئذ يظهر سـلطان الله، حيث لا تستطيع أي نفس أن تتحدث إلا بإذن الله، وينقسـم الناس إلى سعداء وأشقياء (الآيات: ١٠١-١٠٨).

ثـم تعالـج الآيات فيما بعد قضيـة تكريس الإيـمان بالآخرة في واقـع الدنيا، فنهى الرسول من الشك في ضلالة الكافرين فيما يعبدون من آلهة، وأنهم ليسوا أفضل ممن سبق من المشركين، وأن الله سيوفيهم جزاءهم العادل دون نقصان، ومثل هؤلاء إنما هو كمثل الذين اختلفوا في كتاب موسى فأعطاهم الله فرصة الامتحان بكلمة سبقت منه سبحانه، ولولاها لقُضي بينهـم بتأييد الصادقين منهم ضد أعدائهم، وذلك بسـبب شـكهم المريب

في صدق الكتاب الذي اختلفوا فيه (الآيات: ١٠٩-١١١).

وبعد ذلك يذكّر القرآن رسول الله ﷺ بضرورة الاستقامة، وهو الأمر الذي شيب الرسول ﷺ كما جاء عنه في حديث مشهور (الآية:١١٢).

كما يبين الله لنا الموقف الإيماني السليم من الكافرين والظالمين، حيث تحرم مودتهم والركون إليهم، ثم الاستعانة بالصلاة والصبر وانتظار الفرج الموعود، وكذلك العمل على تشكيل جبهة الصالحين في إطار مقاومة الفساد المستشري (الآيات: ١١٣-١١٧).

في نهاية سورة هود يجيب القرآن الحكيم على هذا السؤال: لماذا الصراع؟ ألم يكن ربنا قادراً على توحيد الناس؟ فيقول: بلى، ولكن الدنيا دار عمل وانتظار، وسيبقى الناس مختلفين -إلا من رحم الله فهداه الى صراط مستقيم- والتاريخ صورة لهذا الصراع الممتد، والله يقص علينا من انباء الرسل ليثبت بها قلب الرسول وقلوب المؤمنين، وليوضح الحق، وليلقي بالمواعظ، وليذكر المؤمنين، فالله قد أعطى في دار الابتلاء فرصة لكل الناس، ليعملوا، والمؤمنون بدورهم يعملون، وليتنظر الجميع.

والله محيط علما وقدرة بغيب السماوات والأرض وبما في مستقبل الأشياء وبحاضرها أيضا، فعلينا أن نعبد الله، وأن نتوكل عليه فالله ليس بغافل عما يعمله الناس، فعلمه وقدرته محيطة بما يعملون (الآيات: ١١٨-١٢٣).

وهكذا ينهي القرآن سورة هود ببيان ضرورة التوكل على الله، وقد دارت أكثر آياته حول هذا المحور العام.

12

سورة يوسف

* الحاكمية لله

تكاد قصة النبي يوسف عليه السلام تعم هذه السورة التي سميت باسمه، بحيث لا تدع مجالاً للسؤال عن سبب التسمية.

إن معاناة الرسل الشديدة في الحياة، وتحديهم للضغوط المختلفة، معراجهم إلى حمل رسالة الله إلى الأرض. وفي قصة النبي يوسف عليه السلام بيان تفصيلي لأنواع من المعاناة التي تمخضت عنها شخصية النبي يوسف الرسالية، التي كانت في الأصل مختارة لهذا المنصب، وذلك بسبب خصاله الذاتية، ولكن بعد المعاناة التي كانت بمثابة التدريب العملي له.

إن الإنسان غافل عما في الرسالة من ذكر وبصائر، حتى ينزل الله استثارة للعقل، بهدف دفع الناس باتجاه التفكير والتعقل، ويستفيد القرآن من القصص التاريخية النافعة والجذابة في هذا المجال لتكون أقرب إلى مدارك البشر، فيذكّر بها من هو غافل عنها.

وبالتالي؛ فإن العبرة التاريخية ليست مما يفترى، لأنها إشارة إلى حقائق خارجية يمكن لكل إنسان التعرف عليها إن استخدم عقله أو شعوره، فآيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ما في الكون من حقائق ملموسة (الآيات: ١-٣).

إن هذه السورة المباركة مليئة بالعبر التاريخية (التي نقرؤها في تفاصيل القصة التي تتضمنها الآيات: من ٤ إلى ١٠٢) التي تكشف اللثام عن خبيئة النفس البشرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسف عليه السلام، أو من حسد وكبر وحيلة تجلت في إخوته، ومن شهوة عارمة وتسلّط وظلم وبطر تجلّت في إمرأة العزيز وزوجها، وإن الله عليم بكل ذلك، وإنه هو الذي يصرّف الأمور لصالح المؤمنين أخيراً، وهو الذي ينقذهم من الموبقات بعد أن أخلصوا أنفسهم لله، فاستخلصهم لنفسه.

إن النبي يوسف عليه السلام كان صدِّيقاً أيقن قلبه أن جماله من الله، وهو الذي أعطاه القوة ومكّنه في الأرض، وأن من كفر بأنعم الله لا يفلح، وبسبب إيمانه الصادق بهذه الحقائق، فقد أدركه في ساعة المحنة إيمانه، وبلورت المعاناة شخصيته التي عجنت بروح الإيمان والتقوى، فظهر له برهان ربه وحجته البالغة في لحظة الصراع الشديدة مع طبيعته ومجتمعه المتمثل في قوة ربة بيته أو محيط السجن أو إغراء الملك أو تعقيدات الإدارة الاقتصادية.

وهكذا المؤمنون يتذكرون ربهم كلما تعرضوا لتجربة صعبة، فيتركون المعصية ويتحدون المصاعب، بينما يغط غيرهم في غفلة وميوعة.

وتنتهي قصة النبي يوسف عليه السلام، وتبقى عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعاندة للحق، فأكثرهم -رغم حرص الرسول وأصحاب الحق- ليسوا بمؤمنين، ويحسبون الدين خسارة، بينما هو ذكر، وتوجيه للعاملين إلى الحق الذي غفلوا عنه (الآيات: ١٠٣-١٠٤).

وكم هي الآيات المنتشرة في السماوات والأرض يمرون عليها دون أن ينتفعوا بها، بل هم معرضون عنها. إن إيمان أكثرهم مخلوط بالشرك، وبالتالي فهو ليس بإيمان. ولا يُدرى هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء، ومن الساعةالتي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون (الآيات: ١٠٥-١٠٧).

ولكن الرسول يدعوهم إلى سبيل واضحة هي الدعوة إلى الله على بصيرة ورؤية واضحة له ولمن يتبعه، وهي بصيرة توحيد الله وتنزيهه عن أي نوع من أنواع الشرك (الآية: ١٠٨).

وهـذه كانت رسـالة الله من قبل، التي نزلت على رجال مـن أهل القرى، فلماذا لا يسـيرون في الأرض لـيروا ماذا كانت نهاية أولئك السـابقين، وليعرفـوا أن الدار الآخرة أفضل للمتقين، فلماذا لا يعقلون والحقيقة واضحة (الآية: ١٠٩).

وقد أرسـل الله للناس رجالاً، فبلَّغوا رسـالات الله، فلم يسـتجيبوا لهم، حتى إذا بلغـوا درجـة اليأس، وظنوا أنهم قد كُذبوا فعلاً، جاءالنصر الإلهي، فنجّى ربنا من شـاء، بينما لم يستطع أحد ردّ بأسه سبحانه عن المجرمين (الآية: ١١٠).

وإن هذه هي عبرة قصص السابقين التي لم يستوعبها سوى أولي الألباب والعقول، وليس حديثاً يمكن أن يُفترى، إنما هو كلام حق يصدق الأحاديث السابقة، ويفصل كل شيء، ويهدي المؤمنين (الآية: ١١١).

13

سُورَةُ الرَّعْدِ

* آيات الطبيعة سبيل الإيمان

سميت السورة بسورة الرعد لوجود آية محورية فيها تنبئ عن الخط العام للسورة التي توصلنا إلى الإيمان والهداية عبر آياته الكونية، فالرعد حالة طبيعية، له مسبباته وأهدافه، على أن الرعد ليس آية كونية فقط، وإنما من الممكن أن يكون آية لنا يدلنا على الله وقوته ورزقه للعباد.

وبالرغم من أن الرعد يخيفنا صوته عند سماعه، إلا أن الله ينبهنا إلى قضية مهمة وهي: أن الرعد آية من آياته، كما أن السماوات والأرض آيات له، فليست الطبيعة هي المعبود الذي يجب أن نخشاه وأن نعبده، بل هي خلق من خلق الله، سخرها لنا لنستفيد منها، فليست الطبيعة هي الحاكمة، بل إن الرعد والسماوات والأرض تسبح الله من خيفته.

لقد أصبحت الطبيعة -منذ القدم- رباً مزيفاً يعبدها بعض الناس لما رأوا عظمتها؛ فهناك من عبد الشمس وهناك من عبد القمر أو النجم أو.. أو.. ولا زال الحاضر يشهد على مخلفات الماضي، فكلمة أطلس -مثلاً- تدل على إله الأرض، وكذلك ابولّو على إله السماء.

فـإذا عبدت الله فإنه يعبِّد لك كل شيء. وقـد جاء في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ حَتَّى أَجْعَلَكَ حَياً لَا تَمُوتُ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُـنْ فَيَكُونُ أَطِعْنِـي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُـولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُـونُ»[1]. أما إذا لم تعبد الله فإنك لن تكون سيداً على الطبيعة، بل ستكون الطبيعة سيدة عليك، يسلطها الله عليك متى جحدت وكذبت.

إذا؛ فالهدف من آيات ذكر الله سبحانه في الطبيعة ليس ذاتها، وإنما الهدف من ذلك هو تعميق روح الإيمان بالله في قلب الإنسـان، وزرع اليقين في قلبه، فمسـيرة الطبيعة هي تلخيص لحياة الإنسان؛ فمثلا يقول العلماء إن الطبيعة إلى زوال، وإنها في تناقص مستمر، أفـلا يـدل ذلك على أن أعمارنا كذلك؟ وإذا لم نصدق بأن أعمارنا ستنتهي عند حد معين لوجـود موانـع نفسـية تمنع هذا التصديـق، ألا يعني ذلك أنه لا بـد أن تنتهي أعمارنا عند أفول الشـمس والأرض والقمر إلى الأبد؟ هذا إذا تصورنا أن أعمارنا بقدرعمر الشمس والقمر (الآيات: ١-٢).

إن السـياق القـرآني العـام يذكرنـا بطبيعة النظـام الموجود في الكـون، وأن في هذا النظام دلالة واضحة على قدرة ربنا سبحانه.

وكما أن في كلية الحياة عبرة، فإن في تفاصيل الحياة عبر أخرى.

وتفاصيل الآيات الربانية كفيلة بتنبيه الغافلين، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. ولكـن رغم كثرة الآيات وانتشـارها في أرجاءالكون، يبقى الإنسـان يرتاب في قدرة ربه على إحيائه بعد مماته.

ومهما يكن؛ فإن المشـكلة العتيدة لدى الإنســان هي منهجيـة التفكير الحاكمة على عقلـه، وإذا صحـت هذه المنهجية، استطاع أن يفكر تفكيراً سـلبياً لا يمنعه حجاب عن الوصول إلى المعرفة التي تزوده بالحكمة. والقرآن الكريم عبر آياته في هذه السورة المباركة يهدف إلى إصلاح منهجية الإنسـان في التفكير بعد أن يبصره بالقوى الضاغطة عليه، كما أنه يصوّر لنا الطبيعة من جديد، حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل (الآيات: ٣-٧).

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٥٨.

ثم تذكّر السورة ببعض صفات الله، فهو يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن، ويعلم تفاصيل حياة الجنين وصفاته، كما يعلم كل مكنون من القول وكل ظاهر منه، ويعلم كل من سار بالليل أو سرب بالنهار، وهو يحيط علماً بالغيب والشهود (الآيات: ٨-١٠).

ومن آياته أن جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار، فإذا جاء أجلها خلّوا بينها وبين الأجل. وأن الإنسان لا يستطيع أن يرد عن نفسه ضراً أو يجلب لها نفعاً من دون إرادة الله (الآية: ١١).

ومن آيات الله أن يرافق السحب الثقال البروق والرعود خوفاً من عقابه ورجاءً لرحمته. فالرعد الذي يسبح بحمده يهز ضمائرنا ويذكرنا بعظمة الجبار، والملائكة تسبح كذلك خشية منه. أبعد هذه الآيات يكفر الإنسان بالله ويشرك به غيره؟ (الآيات:١٢-١٤).

كما تكشف هذه السورة أن الفرق بين من يؤمن بالله، وبين من لا يؤمن به، كالفرق بين البصير والأعمى، والنور والظلمات. وأن المؤمن عندما يتصل بالله يتحول من لا شيء إلى شيء يشار إليه، ولأن الله مهيمن على كل شيء وبه تقوم الأشياء، فإنه كلما كان الإيمان أعمق، كلما كان الإنسان أكبر (الآيات: ١٥-١٨).

وضمن سياق السورة، يذكرنا الله تعالى بصفات المؤمنين السلوكية والنفسية، ومن أبرزها الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، والإنتماء إلى جبهة الرسالة ومعاداة غيرها، وخشية الله في كل حال، والخوف من سوء الحساب، والصبر عند الشدائد، وإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلن، والخلق الرفيع (الآيات: ١٩-٢٤).

ثم ينتقل السياق إلى استعراض صفات الكفار التي هي نقيض صفات المؤمنين، وأولها نقض العهد، كما يشير السياق إلى أن الرزق من الله، كما أن منعه بيد الله، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله، ولذلك فلهم الحياة الطيبة في الدنيا، وحسن المآب في الآخرة (الآيات: ٢٥-٢٩).

ثم يذكرنا القرآن فيما بعد بحقيقة أن الرسالة المحمدية امتداد طبيعي لرسالات الأنبياء، ومكملة لها، ومهيمنة عليها جميعاً، وأن سنن الله واحدة تطبق على سائر الأمم

في سائر الأجيال، وما على الرسل إذا جحد الكافرون بالرحمن، إلا أن يتوكلوا على ربهم.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفار ليس برسالة الرسول، بل بالرحمن نفسه، ولو أن الله استجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيات لما زادهم ذلك إلا عناداً واستكباراً. ثم هل هناك آية أكبر من هذا القرآن الذي لو كان من المقدر أن يُسير به الجبال ويُكَلّم به الموتى لكان ذلك؟ وإن كثيراً من القوارع نزلت على من قبلهم فلم يتعظوا، ولو أنهم كانوا يريدون الهداية بالآيات لاهتدوا بتلك القوارع واتعظوا بها.

وبعد ذلك يسأل: هل إن الله هو القائم على كل نفس بما كسبت من خير أو شر أم الشركاء؟ وهل الشركاء هم الذين ينبؤون الله ويوحون إليه؟.

إن مكرهم السيّئ، وتزيين ذلك في نفوسهم، والصدّ عن سبيل الله كان السبب الرئيسي في إضلال الله لهم. ومن يضلل الله فلن تجد له هادياً مرشداً، وأما نهاية هؤلاء فأما عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب في الآخرة، وأما نهاية المؤمنين فأحسن منهم مقاماً وأفضل نديّاً (الآيات: ٣٠-٣٥).

كما تؤكد الآيات أن مواقف الناس من الكتاب ثلاثة؛ فإما مؤمن به كله، أو مؤمن به في حدود مصلحته، أو كافر به. وبمناسبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتاب يحدثنا الله عن أن القرآن عربي، وعروبة القرآن ليس تعصباً جاهلياً للعربية، فالقرآن عربي ولكنه يخالف كل السخافات العربية، والقرآن أيضاً لا يتنازل عن قيمة مجاراةً للثقافة الجاهلية الشائعة آنذاك (الآيات: ٣٦-٣٨).

أما الآيات الأخيرة من السورة فتذكرنا بأن الأمور بيد الله تعالى، وأن إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت، وأنه ليس على الرسول إلا البلاغ، لأن على الله الحساب، فله أن يعذب وإن شاء أخّر العقوبة (الآيات: ٣٩-٤٣).

14

سورة إبراهيم

* النبي إبراهيم عليه السلام رمز وأسوة

سميت هذه السورة باسم النبي إبراهيم عليه السلام رمز التوحيد، ومحطم الأصنام، لأنها تدور حول رسالة التوحيد التي يحملها الأنبياء عليهم السلام ويخلصون من أجلها.

وفيما يبدو من سياق دروس السورة أنها تذكرنا بالجانب الإلهي من رسالة الأنبياء، وكيف أنهم يذكرون بالله تعالى، بل يجسدون بدعوتهم أعلى مثل للتوحيد، إذ لا يخشون أحداً إلا الله، وهدفهم فقط نجاة البشرية من ظلمات التقليد والجهل والتبعية إلى نور العقل والإيمان.

ويبدو أن سياق السورة يثير فينا الإحساس الفطري بالشكر للمنعم، والتذكرة بأن أبرز علائم الشكر هو معرفة المنعم والتسليم له، والعمل بأهداف النعم النبيلة.

كما تشير السورة إلى الجبت والطاغوت باعتبارهما ركائز الكفر المقيت، وكيف سيتبرآن من الكفار في يوم القيامة. وفي مقابل ذلك تحدثت السورة المباركة عن السعادة المطلقة التي تنتظر المؤمنين بالله وأنبيائه ورسله عليهم السلام.

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام رمزاً وأسوة في الشكر والدعوة الصالحة، فزاده الله من فضله، وجعل الأنبياء عليهم السلام من ذريته الصالحة.

ويشير مقطع من السورة إلى أن الصراط الذي يدعو إليه الرسل، هو صراط العزيز الحكيم. ولكن الصراع قد تطور، وتجسد عناد الكفار في إرهاب أهوج، فهددوا رسلهم بالإخراج إذا لم يخضعوا لباطلهم. غير أن الله أوحى لهم بأن الفريق الظالم هو الهالك، لأنه تجبر في الأرض وعلا فيها بغير الحق، فذهبت أعماله أدراج الرياح. كما يبين النص القرآني ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين.

وتصور الآيات الشريفة حالة تبرؤ الكافرين من بعضهم في يوم القيامة.

وكما أن ربنا يثبت الذين آمنوا بما آمنوا، فإن ضلالة الظالمين تبدو منهم، إذ يبدلون نعمة التوحيد والرسالة وغيرها إلى نقمة بسبب كفرهم بها وترك شكرها.

ثم إن الذين يشكرون الله، فيستخدمون نعمه في سبيل خيرهم، يكون مصيرهم الفلاح مثل النبي إبراهيم عليه السلام بينما الذين يتخذون من النعم وسيلة للبطش والظلم، فإن الأجل الذي حدد لاختبارهم سوف ينقضي، والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم، وإنما يؤخرهم ليوم القيامة، حيث يتمنى الكافرون لو يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب ليستجيبوا لدعوة الحق ويتبعوا الرسل، ولكن هيهات هيهات!.

وكما يهلك الله الظالمين، كذلك يورث الرسل أرضهم بوعده، فلا تظن أن ربك يخلف وعده، لأنه عزيز ذو انتقام.

وفي يوم القيامة تتجسد المسؤولية، حيث تلقى كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها؛ والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا أنما الله إله واحد، ولكي يتذكر أولو الألباب.

15

سُورَةُ الحِجْرِ

* البشرية بين المادة والقيم السماوية

سورة الحجر تحدثنا عن ثمود الذين كذبوا المرسلين وأعرضوا عن آيات الله، واعتمدوا على بيوتهم المنحوتة من الصخور، فلم تغنِ عنهم شيئاً، بل أهلكهم الله وبقيت قصتهم عبرة لنا ألا نعتمد على الصخور والأشياء، بل على القيم.

ونظرة عامة إلى السورة توحي إلينا بأن إطار هذه السورة ينسف ما يعتمد عليه البشر من أفكار تبريرية، هي من وحي الشيطان الذي أقسم أن يغوي بني آدم بكل وسيلة ممكنة. كما تنسف السورة اعتماد الإنسان على الطبيعة، وتهدينا إلى الركن الأشد، وهو الله الذي يحفظ القرآن من التزوير والتحريف، ويحفظ البشر من الأخطار، ويحفظ السماوات والأرض.

وتؤكد السورة على أجل الإنسان الذي لا يمكن إختراقه أو تجاوزه، للدلالة على أن شؤون البشرية ليست بيدها.

ثم تتحدث السورة عن كيفية تحدي الإنسان المؤمن لغواية الشيطان التي تتخذ أشكالاً متفاوتة، كالكبر والحسد والغرور والعنصرية..

كما تعلن آيات هذه السورة بكل وضوح عن أن الجنة هي جزاء التقوى، وأن

العذاب الأليم جزاء الكفر والجريمة، كما كان الشأن المريع في قوم النبي لوط عليه السلام.

وتهدينا الآيات إلى حقيقة أن الفكر لا يسلم من كيد البشر، إذ أن الإنسان الذي ينحرف يسعى لتبرير إنحرافه، ولكي لا يكتشف الفكر الصائب إنحرافه، تراه يحرِّف الفكر ذاته عبر التأويل والتفسير. ولكن الله تعالى قد أرسل القرآن مقياساً للبشر، وتعهد أن يحفظه من كيد التحريف، وهو الذي حفظ الأرض بهذا الواقع الموزون دون أن تهتز بفعل حركتها، باعتبار أن الحياة بيد الله وخزائنها لديه.

ثم ترشد الآيات القرآنية الإنسان إلى حقيقة خلقته وتطور مراحلها.. وتعلمه أن ذلك كله لينتخب الإنسان خيار التحدي الثابت والدائم لغواية الشيطان الذي قطع على نفسه أن يدفع بأولاد آدم إلى النار الأبدية.

وتلك كانت البداية، أما نهاية البشر، فهي الجنة ونعيمها لمن اتقى، والعذاب لمن غوى، كقوم النبي لوط عليه السلام الذين قرر الله أن يهلكهم دون أن يبقي منهم أحداً يحفظ سلالتهم، لما كانوا يرتكبونه من كفر وفجور يناقض حلال السماء.

ومثل قوم النبي لوط عليه السلام، قوم النبي شعيب عليه السلام، وهم أصحاب حقول مزروعة، انتقم الله منهم بناءً على السنة الإلهية الثابتة.

وأصحاب الحجر كذبوا بدورهم المرسلين، وكلما آتاهم الله سبحانه من آياته، أعرضوا عنها، وأخذوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين فيها، فنزل عليهم عذاب الله، حيث أخذتهم الصيحة في وقت الصباح، فهل منعت بيوتهم عنهم شيئاً من العذاب؟ كلا..

إن الحق هو محور وجود وطبيعة السماوات والأرض، وبه خلقن، ولذلك فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء. فإن لم ير جزاءه في الدنيا كقوم النبي لوط وثمود وأصحاب الأيكة الذين كذبوا المرسلين، فإنه سيراه -لا شك- في الآخرة التي لا ريب في مجيئها. فدع الكفار يعملون ما يشاؤون، واستقم أنت أيها المؤمن في طريقك، ويكفيك ما تنذرهم به من الحق.

16

سورة النحل

* آفاق التعامل مع النعم الإلهية

لأن هذه سورة تذكرنا بنعم الله، فقد سميت بسورة النعم عند البعض، وسورة النحل عند الآخرين، فإن الإطار العام للسورة -كما يبدو لي- هو كيف نتعامل مع نعم الخالق؟ وجملة القول في ذلك:

١- ضرورة توحيد الله، ونفي الشركاء عمن أنعم علينا.

٢- تكميل نعم الله التي لا تحصى بأعظم نعمة، وهي الوحي والرسالة.

٣- الالتزام بحدود الله في الإستفادة من هذه النعم (التقوى).

كل ذلك يجعلنا من أتباع النبي إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان شاكراً لأنعم الله.

وتكاد (الآيات: ١-٩) تذكرنا بكل موضوعات السورة جملة واحدة.

وتستوقفنا للتدبر في الآية الثانية، حيث ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ وهكذا تذكرنا بالوحي والتوحيد والتقوى، وهي الموضوعات الرئيسة في السورة، والتي يريدنا الذكر الحكيم أن نستفيدها من نعم الله ونجعل الإيمان بها شكراً عليها.

ثم تذكرنا بآيات الله، تمهيداً لذكر النعم وأعظم الآيات خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان من نطفة، وخلق ما يحتاجه من الأنعام..

وبعد ذكر أهم المنافع للأنعام تبين (الآية: ٩) أن السبيل القويم للحياة الطيبة، وبالتالي لطريقة الانتفاع بنعم الله، إنما هو السبيل الذي يهدينا إليه الله سبحانه، أما السبل الأخرى فهي جائرة. وهكذا يصل السياق بين نعمة الوحي وسائر النعم باعتباره متمماً أساسيًّا لها.

وفي (الآيات: ١٠-١٨) يذكرنا الرب بنعم الماء والزرع والثمرات، وكيف سخر لنا الشمس والقمر، وسخر البحر، وما فيه من نعمة الأسماك والطرق البحرية للتجارة، ونعمة الجبال وما فيها من فائدة حفظ الأرض ومخازن الماء وكيف جعل النجوم علامات.

ويأمرنا بالتفكر والتعقل والتذكر والشكر لعلنا نهتدي إلى حقيقة التوحيد، وأن الله الذي يخلق ليس كالشركاء الذين لا يخلقون.

وتتابع (الآيات: ١٩-٢٩) التذكرة بالخالق الذي يحيط بنا علمه، وأن علينا الخشية منه، وألاّ نستكبر أو نستنكف عن عبادته سبحانه، لأنه يعلم ذلك منا، وأنه لا يحب المستكبرين.

ويحذرنا من إنكار الرسالة، ويذكرنا بمصير المستكبرين كيف أتى الله بنيانهم من القواعد فإذا بالسقف يخر عليهم في الدنيا، أما في الآخرة فلهم الخزي والنار، وأنهم أسلموا حين جاءتهم ملائكة الموت فأدخلوهم جهنم لأنهم تكبروا.

أما المتقون، فإن موقفهم من الرسالة هو أنها خير، حيث تهيء منهاج الإحسان الذي يؤدي إلى الحسنات في الدنيا، وإلى جزائهم الأوفى في الآخرة، حيث يستقر المتقون فيها بسلام (الآيات: ٣٠-٣٢).

ولا يهتدي الكفار بعقولهم، بل ينتظرون هبوط الملائكة لينظروا إليها بأعينهم، أو نزول العذاب الذي يُنذرون به (الآيات: ٣٣-٣٤).

ومن الكفار من يبرر إنحرافه الفكري والسلوكي بالفكرة الجبرية، ويقول: لو شاء

الله لمنعنا عن عبادة الشركاء، وهذا تبرير قديم، ولا يسع الرسل سوى البلاغ الواضح، وبعدئذ تبقى لهم حريتهم واختيارهم. والله لم يأمر بعبادة الطاغوت، بل بعث الأنبياء لخلاص الناس من الطاغوت فمنهم من استجاب لدعوة الرسل فهدين ومنهم من لم يستجب فأضله الله(الآيات:٣٥-٣٧).

ويستمر السياق (الآيات: ٣٨-٤٠) في معالجة حالة الاستكبار (و لعلها أعظم عقبة في طريق الإيمان بالوحي)، وذلك بالتذكرة بالبعث، وكيف أن الهدف منه بيان الواقع الذي يتمثل في كذب الكفار.

وفي (الآيات: ٤١-٤٢) يذكرنا الرب بأجر المهاجرين، لماذا؟ لينبهنا إلى ضرورة مقاومة الاغترار بالنعم، إذا خير المؤمن بينها وبين الحق.

ويعود في (الآيات: ٤٣-٤٤) يذكرنا بالوحي، وكيف أن النبي ليس بدعاً من الرسل، فاسألوا أهل العلم الذين أحاطوا علماً بالبينات والزبر، والقرآن ذكرٌ أُنزل على رسول الله ﷺ بهدف توضيح وتكميل الرسالة التي نزلت على الناس بشكل تدريجي، والغاية الأسمى لها إثارة عقولهم وتحريضهم على التفكير.

ومرة أخرى (الآيات: ٤٥-٥٥) يذكرنا الله سبحانه بأن الذين مكروا السيئات لا أمان لهم من مكر الله. ولعل ذلك لكي يعالج غرور الاستكبار في النفس. ثم يذكرنا بأن كل شيء في الطبيعة يسجد لله سبحانه، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل يخافون ربهم، وأن الله قد نهى عن اتخاذ شريك له، وأمر بالخوف منه وتقواه. أو ليست النعم منه؟ وإذا فقدنا منها شيئاً أولسنا نجأر إليه؟ ومع ذلك يشرك كثير من الناس بالله بعد أن يكشف عنهم الضر.

ويستمر السياق في تسفيه فكرة الشرك، والاعتقاد بأن النعم من غير الله، ونسبة الأمثلة السيئة إلى ربهم سبحانه، كأن يكرهون البنت ولكنهم يزعمون أن لله البنات سبحانه.

كلا؛ لله المثل الأعلى، وللمشركين مثل السوء، وأن لهم النار، وأن الشيطان وليهم.

ولعل (الآيات: ٥٦-٦٣) تهدينا إلى ضرورة التسليم بأن النعم من الله، وعدم الانبهار بالنعم، وبمن يملك النعم من البشر، أو بما هي وسيلة للنعم من مصادر الطبيعة، لكي لا يهبط الإنسان إلى حضيض الشرك، فينسى أن المثل الأعلى لله سبحانه.

وهكذا (الآيات: ٦٤-٧٤) فهي في الوقت الذي تذكرنا بأن الرزق والوحي من الله، تبين لنا مجموعة من النعم؛ مثل الماء الذي ينزله الله من السماء فيحيي به الأرض، ويرزقنا شراباً لذيذا من بين فرث ودم لبناً خالصاً، ويرزقنا السكر من ثمرات النخيل والأعناب، ويرزقنا شراباً ثالثاً من النحل فيه شفاء للناس.

تلك نعم الله، فلماذا نشكر غيره أو نعبد سواه؟ ويقلب الله البشر من حياة إلى موت، وربما إلى هرم ويفضل بعض الناس في الرزق، فهل نعبد سواه، وهل يملك الرزق غيره؟ وهو الذي جعل للناس من أنفسهم ازواجاً وأولاداً وحفدة، ورزقهم من الطيبات، فلماذا يكفرون بنعمه ويعبدون غيره وهو لا يملك رزقاً، أو يقرنوه بسواه ويضربون له الأمثال سبحانه؟.

ويبدو أن الآيات هذه تخفف من (سَورة) الانبهار بنعم الله لكي يخلص المرء لربه عبادته ويمنحه حبه.

كذلك (الآيات: ٧٥-٨٣) تذكر الناس بأن الله وحده يملك ناصية الأقدار، بينما الشركاء المزعومون هم كعبد مملوك لا يقدر على شيء، فمن هو أحق بالعبادة؟ وأن الله يملك غيب السماوات والأرض، كما يملك أمر الساعة، وهو الذي أنعم على البشر بالعلم بعد أن خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وهذه الطيور في جو السماء ما يمسكهن إلا الله.

هكذا الولاية لله، وأنه السلطان القائم بأمر العالمين. وهكذا نعم السكن الدائم أو المتنقل كالخيم، ونعمة الأثاث والمتاع ونعمة الظلال والأكنان والثياب أيام السلم، والدروع للحرب، أو ليست من تمام نعمة الله؟ فلماذا الكفر وإنكار نعمة الله؟.

و يستمر السياق القرآني عبر (الآيات: ٨٤-٨٩) ينذر الكفار والظالمين والمشركين الذين يعبثون، ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ولا ينقذهم شركاؤهم، وألقوا

جميعاً السـلم إلى الله، بيد أن كبراءهم أشـد عذاباً. ويؤكد السـياق على شـهادة الرسـول هنالك، وأن الكتاب لابد أن يقرن بالشاهد على الناس، وأنهما لن يفترقا.

ويعـود القرآن الكريم في (الآيـات: ٩٠-٩٧) يبين واحدةً من أهم نعم الله، وهي الكتاب الذي أوحاه الرب لعبده ليتم نعمته على الناس، ويبين السبيل إلى الانتفاع بالنعم. وجملـة القول في تنظيـم الحياة حتى تكون طيبـة؛ هي العدل، والإحسـان، وإيتاء حقوق ذوي القربـى، واجتنـاب الفحشـاء والمنكـر والبغي، وهكـذا الوفاء بعهـد الله والإلتزام بالإيمان. (ويشـدد عليهـا القـرآن توكيداً وربما لأنها أهـم منظم للعلاقـات الاجتماعية). ورعاية التسـاوي أمام القانون، لكي لا تسـتضعف طائفةٌ طائفةً ثانية، لما تعتقد أنها أرفع شأناً منها، واجتناب اسـتغلال اليمين اسـتغلالاً سـيئاً، ثم الصبر (ولعله لمقاومة إغراء الشهوات).

ويشـجع السـياق العمل الصالح، لأنه مفتاح الحياة الطيبة. وهكـذا يبين الكتاب منهاجاً كاملاً للحياة الطيبة..

ولكـن كيف نسـتفيد من القرآن؟ لأن الشـيطان قد يغوينا عنـه، أو يجعلنا نحرف آياته، فإن (الآيات: ٩٨-١٠٥) تبين لنا منهاجاً لفهم القرآن:

أولاً: بالاستعاذة بالله حين قراءته من الشيطان.

ثانيـاً: بالتسـليم لكل آياتـه، لأن روح القدس قـد نزله بأمر الله فـلا اختلاف ولا نقص فيه، وشـبهات الكفـار مرفوضة حيث قالوا بأن رجلاً أعجمياً يعلم الرسـول هذا القرآن الذي هو قمة البلاغة.

ثالثاً: اجتناب الافتراء على الله (الكذب).

إن السبيل إلى الإيمان هو التعالي عن الحياة الدنيا واستحباب الآخرة عليها. وهكذا تكـون النعـم في الدنيا نافعة لمن ملكها، وأما من ملكته النعم واسـتحب الحياة الدنيا على الآخرة، فإن الله لا يهديه، لأنه يكفر بالله وبرسالاته.

هكـذا تبين (الآيات: ١٠٦-١١٣) الموقف السـليم من نعـم الله. ويبدو أن الذين

يستحبون الحياة الدنيا ويفضلون نعمها على نعم الله في الآخرة هم الذين يشرحون للكفر صدراً فيسلب منهم الرب أدوات الوعي وأولئك هم الغافلون.

أما من يسمو بنفسه عن الدنيا، ويهاجر بعد أن يُفتَن في الله ويجاهد ويعبد ربه، فإن الله بعدها لغفور رحيم.

إن تساميه عن الدنيا ينفعه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

وإن الكفر بالله يسلب النعم في الدنيا أيضاً، كما ضرب الله مثلاً قرية أسبغ الله عليها نعمة الأمن والرزق فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والخوف.

وهكذا جزاء من امتلكته الدنيا ولم يستمع لنداء الرسول، وبالتالي لم يستفد من نعمة الوحي التي تحافظ على سائر النعم.

وهذا لا يعني أبداً ترك نعم الله. كلا؛ بل يعني:

أولاً: تنظيم العلاقة معها، بحيث لا تنسينا ذكر الله.

ثانياً: تنظيم الاستفادة منها كما أمر الله.

وهكذا تبين (الآيات: ١١٤-١١٩) حدود الله في الانتفاع بنعمه، وهذا بعد من أبعاد التقوى التي جاءت الآيات الأولى في هذه السورة لتأمرنا بها.

علينا ألا نحرم الطيبات على أنفسنا، بل نأكل منها ونشكر الله عليها.

أما المحرمات؛ فهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به (إلا عند الاضطرار).

وحرام الافتراء على الله، والكذب عليه بأن هذا حلال وهذا حرام.

أما اليهود؛ فقد ظلموا أنفسهم فحرم عليهم أشياء بسبب ظلمهم.

أما رحمة الله على هذه الأمة فهي واسعة، حيث أن الله رفع القلم عمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب وأصلح.

ويعطي القرآن الكريم وعبر (الآيات: ١٢٠-١٢٣) أسوة للذين آمنوا من قصة النبي إبراهيم عليه السلام كيف كان شاكراً لأنعم الله، وأن علينا اتباع ملته.

أما قصة السبت وحرمة الصيد فيه؛ فهي خاصة بالذين اختلفوا فيه (الآية: ١٢٤).

والرسول، مهبط وحي الله، يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو المثل الأعلى للعدل والإحسان، وللصبر والاستقامة وسعة الصدر، وسيرة الرسول خير شاهد على صدق رسالته، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (الآيات: ١٢٥-١٢٨).

وهكذا تحدد سورة النحل العلاقة السليمة مع نعم الله، حيث يزداد المؤمن بواسطتها إيماناً بربه وتسليماً لرسالات ربه ونبذاً للشركاء، واستقامةً أمام المفسدين.

17

سورة الإسراء

* الإنسان ذلك المسؤول عن مصيره

لعل أهم الموضوعات التي تناولتها سورة الإسراء هي مسؤولية الإنسان عن أعماله في إطار الرسالة الإلهية، وتتحدث السورة عن طائفة من المسؤوليات تجاه المجتمع، ابتداءً من الوالدين وانتهاءً بسائر الناس.

وتعالج السورة -بتفصيل- قضية الشرك بالله الذي يمثل جذر الفساد، وسبب تهرب البشر عن مسؤولياته.

كما تبين بتفصيل أيضاً خطط الشيطان لإغواء البشر وكيفية محاربة تلك الخطط، ويضرب القرآن الأمثلة التاريخية العديدة.

وتبدأ السورة بقصة بني إسرائيل كمثل لمجتمع سعى مرة وتخاذل أخرى، وتنتهي بها.

هذه جملة القول في إطار السورة، وتلك هي خلاصة رسالات الله التي هي -في الواقع- واحدة.

فبعد أن أشار القرآن إلى واقعة الإسراء فالمعراج، ذكّرنا بأنه السميع البصير،

وبالتالي محيط بعباده علماً، مما يوحي بضرورة التقوى منه (الآية :١).

وخلاصة الكتاب الذي أنزله على النبي موسى عَلَيْتَكَلاِ لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً (الآية: ٢)، ذلك أن الشرك بالله، هو جذر كل فساد وضلال.

أفلم يكونوا ذرية الذين حملهم الرب مع النبي نوح عَلَيْتَكَلاِ في السفينة لينجيهم من الطوفان، وكان النبي نوح عبداً شكوراً (الآية: ٣).

بلى؛ ولكنهم قد أفسدوا (أو يفسدون) مرتين في الأرض، ويلاقون جزاءهم (الآية:٥) إذ يبعث الله بعد أن يحين ميعاد الجزاء في المرة الأولى عباداً له أقوياء فيدمر عرشهم، وبعد أن يعيد لهم الكرة يأتي وعد المرة، ويتبرهم تتبيراً. لماذا؟ لأن الله يجازيهم بالإحسان إحساناً وبالإساءة جزاءً وفاقاً (الآيات: ٦ - ٧) تلك هي سنة الله في التاريخ، جزاء كل مجموعة لمجمل أفعالهم، أما في الآخرة فإن الله جعل جهنم للكافرين سجناً (الآية: ٨).

إنّ الهدى من الله عبر القرآن، أما الإيمان والعمل الصالح فهو من فعل الشر، وعليهما الجزاء الكبير، والكفر قد أعد لصاحبه العذاب الأليم. (الآيات: ٩-١٠).

والجزاء يتأخر، وكان الإنسان عجولاً، فتراه يدعو بالشر كدعائه بالخير، إلا أن الجزاء لواقع (الآية: ١١).

والآن، ألقِ نظرة في آيات الكون، ماذا ترى؟.

آية الليل التي محاها الرب بحكمته، وآية النهار جعلها مبصرة بحسن تدبيره لكي تسعى لمعاشك وتعد السنوات وتفقه الحساب.

إذن كل شيء منظم ومقدر ومدبر، وأن الذي دبر شؤون الليل والنهار ونظمها، فصّل لنا القول فيها تفصيلاً.

أفيخرج البشر عن هذا النظام؟ كلا؛ بل هو الآخر محكوم بسعيه، حيث يكتب في صحيفة عمله المعلقة بعنقه كل فعاله، ليلقى كتابه منشوراً يوم القيامة.

ويقال له: اقرأ كتابك وحاسب نفسك فأنت الذي تدين نفسك بنفسك ولو كنت خاطئاً (الآيات: ١٢-١٣).

فالهدى بسعيك والضلالة من عندك، ولا أحد يتحمل وزر الآخرين، ولا يبدر الرب عباده بالعذاب إن ضلوا حتى ينذرهم برسول، وهكذا حين يحين ميعاد هلاك قرية يبعث فيها رسولاً ينذر مترفيهم وقيادة انحرافهم، ولكنهم يفسقون عن أمر الله، فهنالك تثبت عليهم الحجة فيدمرهم الله تدميراً.

وكذلك أهلك الله كثيراً من القرون من بعد طوفان نوح عليه السلام، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً. فلا يزعمن أحد أن الله غافل عنه (الآيات: ١٤-١٧).

والسعي ينتج واقعاً، ولكن حسب نية البشر. فمن أراد الدنيا أعطاه الله منها بقدر ما تقتضيه سنن الله وحكمته. إلا أن جزاءه في الآخرة سيكون جهنم حيث يصلاها مذموماً مدحوراً. أما من أراد الآخرة وسعى من أجلها بقدرها فإن الله يشكر سعيه.

والله يمد للأول في دنياه وللثاني في أخراه، وما كان عطاؤه محظوراً. هكذا يجعل حياة البشر وليدة إرادته وسعيه.

وكما أن رزق الناس في الدنيا متفاضل -بسبب تفاضل سعيهم- كذلك أكثر منه جزاء الآخرة (الآيات: ١٨ - ٢١).

ثم يحذرنا الرب من الشرك، ويبدو أن المراد منه هنا: الاسترسال مع التقاليد وتيارات المجتمع، لأنه ينتمي إلى اللوم والخذلان (الآية: ٢٢).

ويأمرنا بألاّ نعبد إلا أياه (فلا نعبد الآباء ولا نخضع لضغوط المجتمع)، إلا أن علينا إيجاد العلاقات الإيجابية مع الناس (في إطار التوحيد)، وأهمها الإحسان إلى الوالدين، وبالذات عند الكبر، والرحمة بهم والاستغفار لهم (الآيات: ٢٣ - ٢٥).

وبعد الوالدين؛ يلتزم المؤمن بحقوق الأقارب والمسكين وابن السبيل، ويتقي التبذير، لأن التبذير يجعله في صف الشياطين والكافرين بالله، غير الشاكرين لأنعمه. وفي حالة الاعراض عنهم (ماديًا) لابد أن تحسن إليهم (معنويًا) بالقول الميسور (الآيات: ٢٦ - ٢٨).

ويأمرنا الرب بالاقتصاد في الإنفاق، فلا بخل يغل اليدين ولا سرف ينتهي إلى الملامة والضيق، أو ليس الله يبسط الرزق لعباده ويقدره؟ فلماذا البخل والسرف؟ بل علينا أن نتبع أصول الحكمة في الصرف، ولماذا قتل الأولاد خشية إملاق مادام الرب هو الرزاق؟ (الآيات: ٢٩-٣١).

ومثلما نهى الله عن قتل الأولاد في إطار المسؤولية الأسرية -بما يشمل الإجهاض حسب الظاهر- ينهى عن الزنا باعتباره ذنباً كبيراً وساء سبيلاً.

وفي إطار المسؤوليات الاجتماعية يحرم قتل النفس إلا بالحق، ويجعل لوليّ القتيل حق القصاص، وينهى عن الإسراف في القتل، و يبشره بأنه كان منصوراً (الآيات: ٣٢ - ٣٣).

وتلك كانت مسؤوليات الإنسان تجاه الناس، وتتلخص في كلمات: التوحيد، وعدم الخضوع للتقاليد والضغوط، والإحسان، واحترام حقوق الآخرين.

وفي (الآيات: ٣٤ - ٣٥) يحرم الله مجرد الاقتراب إلى مال اليتيم (إلا بالتي هي أحسن)، ويأمر بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن.

و لعل هذه المسؤوليات الاجتماعية وغيرها، تأتي تحصيناً للمجتمع من بعض الثغرات التي يدخل منها الظلم إلى كيانه، فإن إقامة العدل لا يمكن إلا بسد كل أبواب الظلم والمداخل الطبيعية إلى إشاعة الظلم في المجتمع.

وهكذا يأمر الرب بضرورة اتباع العلم، وترك سوء الظن، والابتعاد عن التكبر والاستكبار في الأرض. ويجعل ذلك من الحكمة التي أوحى بها الرب إلى العباد، والتي يجمعها توحيد الله سبحانه (الآيات: ٣٦ - ٣٩).

بلى؛ إن بناء المجتمع الفاضل قائم على أساس التثبت من التهم، والمساواة أمام القانون.

وينهى الله عن الشرك، أو ليس الشرك أساس كل جريمة، وتبرير شائع لكل فساد ولا مسؤولية؟

أصحيح أن الله اختار لهم البنين واتخذ من الملائكة بنات؟ إنه بهتان عظيم. وقد صرف القرآن لهم من كل مثل ولكنهم ازدادوا نفوراً (الآيات: ٤٠ - ٤١).

لو كان هؤلاء الآلهة كما يزعمون إذاً لتحدوا سلطان الرب ذي العرش. كلا؛ سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. إن السماوات السبع والأرض تشهد بقدس مقامه وتسبح له وكل شيء يسبح بحمده، إلا أن البشر عاجز عن فهم تسبيحهم، والله حليم عن العاصين؛ غفور للمؤمنين سبحانه (الآيات: ٤٢ - ٤٤).

أما (الآيات: ٤٥ - ٥٢) فإنها تبين أخطار الكفر بالحياة الآخرة، وكيف أن الله يجعل بين الرسول ومن لا يؤمن بها حجاباً مستوراً، حيث يحيط بقلوب الكافرين بها ستاراً، فلا يفقهون القرآن، ويجعل الله في آذانهم وقراً، حتى أنهم يولون نفوراً كلما ذكر الرسول ربه في القرآن وحده.

إن تراكمات الجهل والضلالة والعصبية تجعلهم يستمعون إلى الرسول من وراء شبهات باطلة. فهم يقولون عن الرسول إنه رجل مسحور، فيضلون ولا يهتدون سبيلاً إلى الحقائق. وتراهم ينكرون البعث ويتساءلون: أبعد أن نصبح عظاماً ورفاتاً يعقل أن يخلقنا الله من جديد؟!.

وهكذا تصبح هذه الشبهات حجاباً مستوراً بينهم وبين القرآن وفهم حقائقه.

ويردهم الله بقوة؛ حيث يذكرهم بأنهم لو كانوا من الحجارة أو الحديد أو أي شيء كبير في نظرهم، فإن الله تعالى الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم. ثم يقولون متى؟ يقول الله: عسى أن يكون قريباً، ذلك اليوم الذي يدعوهم الله فيستجيبون بحمده، ويزعمون أنهم كانوا في الدنيا أو البرزخ أياماً قليلة.

ولأن الشيطان عدو مبين؛ فعلى عباد الله أن يختاروا كلماتهم لكي لا ينزغ الشيطان بينهم بها، وأن يتركوا العصبية لقومهم أو تزكية أنفسهم، إذ أن الله أعلم بهم، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء.

هكذا تبين (الآيات: ٥٣ - ٦٠) بعض المسؤوليات الاجتماعية الواجبة على

المؤمنين لبعضهم.

ولعل الصراعات الداخلية تنشأ من رواسب الشرك؛ فيعود السياق لبيان زيف الأنداد وأنهم لا يدفعون الضر عن أنصارهم، بل هم بدورهم يبتغون سبيلاً إلى الله ربهم ويرجونه ويخافونه.

وكل القرى معرضة للهلاك قبل يوم القيامة، إما بالعذاب أو الموت. ولقد كذب الأولون بآيات الله، فاستحقوا العذاب، ولأن الله لم يشأ إهلاكهم فإنه لم ينزله عليهم كلما طلبوه، إذ لو أوتوه ثم كفروا هلكوا. فهذه ثمود لما أتاهم الله الناقة آية مبصرة كفروا بها فأهلكهم الله، وإنما حكمة الآيات التخويف، ولعلهم يهتدون.

وهكذا أرى الله رسوله الرؤيا، وجعلها فتنة لهم، كما أخبره بالشجرة الملعونة، ويخوفهم الله فلا يزدادون إلا طغياناً.

وهكذا كانت الآيات للتخويف، وليس من أجل إنزال العذاب عليهم.

ويبقى سؤال هام: لماذا الشرك أساساً؟ ولم لا يخلص الناس الطاعة لله، ولمن فرض الله طاعته؟ ولماذا تنمو على صعيد مجتمع مسلم شجرة ملعونة كبني أمية يفرضون سيادتهم على الناس؟ في (الآيات: ٦١ - ٧٠) نقرأ الجواب الذي يستوحي منه قصة الخلق وكيف أضحى إبليس عدو بني آدم، وما هي خططه الماكرة.

والقصة بدأت حين أخذته العصبية الذاتية وادعى أن عنصره أفضل من عنصر آدم، ورفض السجود لآدم الذي سجد له الملائكة جميعاً.

وأمهله الله ليوم القيامة، وتحدى ربه في السيطرة على ولد آدم، وأخبره الله:

أولاً: أنه سوف يخسر العاقبة هو ومن اتبعه.

ثانياً: أنه لا سلطان له على عباد الله بالرغم من وسائله الماكرة، لأنهم يتوكلون على الله وكفى بالله وكيلاً.

أما خطط الشيطان فهي أربعة:

١ - التضليل الإعلامي.

٢- الإرهاب.

٣- إفساد النظام الاقتصادي والتربوي.

٤ - والغرور.

ولكن الله هو الذي يزجي الفلك في البحر، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي يُخشى مقامه؛ فإذا أراد أن يخسف الأرض بأهلها،أو يرسل قاصفاً من الريح، فلا أحد ينجيهم من الله سبحانه.

وهو الذي كرم بني آدم، وحملهم في البر والبحر وفضلهم على كثير من الخلق تفضيلاً.

وهكذا كان كيد الشيطان ضعيفاً، لأن الولاية لله وله الدين وبيده الأمر، وهو يريد كرامة الإنسان، بينما يريد الآخرون إضلاله.

وحبل الإنقاذ من أمواج كيد الشيطان ومكره هو القرآن.

ولكن، كيف نقاوم مكر الشيطان؟ وإلى أين ينتهي الصراع بين بني آدم وإبليس؟ وما هي عبر التاريخ في هذا الحقل؟

يبدو أن (الآيات: ٧١ - ٨١) تدور حول هذه الأسئلة. وتبدأ بالحديث عن القيادة باعتبارها تحدد مسيرة البشر. ففي يوم البعث يدعو الله كل أناس بإمامهم، ويختلف الناس بين من يؤتى كتابه بيمينه فيقرأه، وبين من يحشر أعمى فلا يهتدي سبيلاً.

ويبين القرآن بعدئذٍ كيف تعرض الرسول للضغط الإعلامي من قبل الكافرين، ليفتنوه عما أوحي إليه، فتحداهم. ولنا فيه أسوة حسنة، ويعلمنا كيف نقاوم الفتنة بالتوكل على الله كما فعل الرسول ﷺ فثبته الله. كان هذا مثلاً لخطة التضليل، ويضرب القرآن مثلاً لخطة الإرهاب حيث كادوا يستفزون النبي ﷺ من الأرض، ولو فعلوا لما بقوا من بعده إلا قليلاً، تلك سنة الله.

ولمواجهة غواية إبليس فرضت علينا إقامة الصلوات الخمس، وأمرنا بنافلة الليل

التي بعث الله بها نبيه مقاماً محموداً.

ولكي نحافظ على النظام الاقتصادي والاجتماعي والتربوي السليم ولا ندع إبليس يفسده، فعلينا أن نسأل الله أن يوفقنا للصدق في المدخل والمخرج، وأن يجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً، وأن نثق بأن الحق منتصر وأن الباطل كان زهوقاً.

ولكي نقاوم مكر إبليس وكيده علينا أن نقوم بأمرين:

١- التمسك بحبل القيادة الإلهية المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام من خلفائه، ومن ثم الأمثل من الفقهاء والأقرب إلى نهج الرسول. وقد بينت الآيات السالفة صفات الرسول في الاستقامة والصبر والتوكل والثقة، وكأنها الصفات المثلى للقيادة التي تعصمنا من مكر الشيطان.

٢- الاعتصام بالقرآن، باعتباره حبل الله المتين. و(الآيات ٨٢ - ٩٣) بيان ذلك، حيث تبين أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، بينما لا يزيد الظالمين إلا خساراً. ويمكننا أن نستلهم من هذه الآيات كيفية الاستفادة من القرآن والتمسك بحبله، ببيان أن الإنسان يغتر بالنعم، فإذا أوتيها أعرض ونأى، وإن سلبت منه استبد به اليأس.

والناس مختلفون، فكل يعمل على شاكلته، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

وإنما القرآن من الله، فإذا شاء ذهب به، وإنه لمعجز. فلو اجتمعت الجن والإنس ما استطاعوا تحديه، وفيه من كل شيء مثل، وأنهم ليطالبون ببعض الآيات المادية دون أن يهتدوا إلى أن الرسول بشر وإنما القرآن من الله، وإنما عليه البلاغ.

ولعل في هذه الآيات أهم محاور سورة الإسراء، وهو الذي يدور حول الرسالة، وإن الذي يستفيد منه إنما هو المؤمن بها، أما الظالم الذي يعرض عن نعم الله ويتولى بركنه عنها، وكذلك أصحاب المقاييس المادية فإنهم لا ينتفعون بالوحي.

ولكن لماذا لا يؤمن الناس بالهدى الذي جاءهم؟ وما هي أهم عقبات الإيمان برسالات الله؟.

أولاً: زعمهم بأن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً.

ثانياً: ارتيابهم في البعث.

وهكذا تعالج (الآيات: ٩٤ - ١٠٤) العقبات النفسية التي يضعها إبليس في طريق الإيمان بالرسالة، فيبين أن الرسول يجب أن يكون من جنس من يرسل إليهم. فلو كان سكان الأرض الملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً.

وبعد أن يبين أن الله سبحانه شهيد على صدق رسالة النبي، وأن بيده الهداية، وأن من يضله لا هادي له ولا ولي، وأنه يحشر أعمى وأبكم وأصم، وأن عاقبته جهنم التي يستمر سعيرها جزاءً على ما عملوا.

بعد كل ذلك، يستنطق وجدانهم ويقول: أليس الله الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، وإنما لا يؤاخذهم بالعذاب لأنه قدر لهم أجلاً لا ريب فيه ولكنهم لا يستغلون هذه الفرصة.

ولأن الإنسان كفور بطبعه، وبخيل قتور، فهو بحاجة إلى هادٍ ومربٍّ، وهو الرسول الذي يأتيه بالقرآن شفاء لما في الصدور.

ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل، فهذه رسالة الله تتنزل على النبي موسى، والله سبحانه يؤتيه تسع آيات بينات فتحداه فرعون واتهمه بأنه مسحور، وبيّن له النبي موسى أنها بصائر من الله وأن فرعون مبتور.

وكما جرى لرسول الله محمد ﷺ جرى لرسول الله موسى عليه السلام، حيث أراد فرعون أن يستفز الرسول من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعاً، وأورث الله الأرض لبني إسرائيل من بعده إلى أجل معدود.

هذا مثل لشهادة الله على صدق رسالاته، ومثل لمكر الشيطان وكيده، ومثل لنصرة الله عباده، وأن الحق منتصر، وأن الباطل كان زهوقاً.

ولقد جاء القرآن بالحق، وما على الرسول إلا إبلاغه، وإنما فرقه الله على أنجم ليثبت به فؤاد رسوله.

هكذا ابتدأت (الآيات: ١٠٥-١١١)، وهي تشير إلى مسألة تفريق القرآن وتنزله عبر سنين البعثة، وتؤكد أن للقرآن أصحاباً يؤمنون به وأنهم يخرون للأذقان سجداً كلما تليت عليهم آياته، ويزدادون إيماناً بوعد الله، ويسجدون ويزيدهم القرآن خشوعاً لربهم.

وهذه هي صفات المؤمنين بالقرآن، وهم عباد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم.

ومن صفاتهم أنهم يدعون الله -كما أمرهم- بأسمائه الحسنى، وأنهم لا يجهرون بصلاتهم (رياءً)، ولا يخافتون بها(خوفاً)، إنما يبتغون بين ذلك سبيلاً (لأن مشيهم الهون، وسيرتهم الاقتصاد، وامتهم وسط).

وتختم سورة الإسراء بحمد الله الذي لا ولد له ولا شريك له ولا ولي له من الذل، كما ابتدأت بحمد الله وتسبيحه.

18

سُورَةُ الكَهفِ

* أخلاقيات النهضة الإلهية

إن القرآن الحكيم يتابع في سورة الكهف سلسلتين من القضايا:

الأولى: عن زينة الحياة الدنيا، وموقف الإسلام منها.

والثانية: عن القضايا التي تتصل بالهدى والعلم والمعرفة.

ولا ريب أن بين هاتين السلسلتين علاقات هامة، إذ أن الإنسان الذي يتسلح بالهدى والعلم يتخذ موقفاً إيجابياً ومتسامياً من زينة الحياة الدنيا، أما ذلك الذي يفقد هذا السلاح، فإن موقفه من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل هو موقف الإتّباع المطلق، والاستسلام التام.

والواقع أن هذا من مظاهر إعجاز القرآن، وبلوغه المنتهى في البلاغة، حيث أن آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية ومتناسبة، تتظافر على توجيه القلب البشري إلى قضية جوهرية واحدة، إلا أن السلسلة الأولى كما يبدو هي المحور في آيات هذه السورة حيث تتحدَّث سورة الكهف عن الرؤية الإسلامية إلى زينة الحياة، وكيف ينبغي على الإنسان أن يتحرر من ضغوط زينة الحياة وحب الدنيا، وينظر إلى الحياة نظرةً موضوعيةً قوامها معرفة عاقبة الحياة، والعلاقة الوثيقة بين زينة الحياة الدنيا والتمتع بها، وبين عمل الإنسان.

فنجد في هذه السورة قصة أصحاب الكهف والرقيم الذين تحرروا من حب الجاه الذي كانوا فيه، واستطاعت إرادتهم السامية أن تقلع بهم من قاع الحياة المادية إلى سماء الحقيقة والقيم، ونجد في هذه السورة أيضاً قصة معاكسة لذلك، وهي قصة صاحب الجنة التي دخلها وزعم أنه خالد فيها، وكلما نصحه الناصح الأمين وقال: إن هذه الجنة إنما هي بإذن الله، ولولا أن تقول ما شاء الله حين تدخل جنتك، فإنها سوف لا تنفعك ولكنه لم يقبل هذه النصيحة، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه وقال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، إلى أن انتهت حياته وجنته جميعاً إلى الفساد والتلف.

وثم يعرض القرآن مثلاً عن واقع ذي القرنين لأولئك الذين بلغوا جاهاً عظيماً وملكاً كبيراً، ولكنَّهم رفضوا الخضوع لضغوط الجاه وزينة الملك.

وتعطينا السورة الكريمة في إطارها العام نظرةً شموليةً إلى موقف الإسلام من زينة الحياة الدنيا، والقسم الأول منها يلقي نظرة عامة على موضوعات السورة، كما هو شأن القرآن في بدايات السور التي تتميز بحسن المستهل، حيث أنها تلقي الضوء على إطار السورة ومجمل الموضوعات التي تبحثها.

فَتُذَكِّر آيات هذا الدرس (١-٨) بأن القرآن كتاب هداية، وأن الهداية هي طريق الإنسان المستقيم إلى نعم الله.

وتحدَّثت كذلك عن الحوافز التي تدفع الإنسان إلى الالتزام بهديّ الله، ومنها الإنذار والتبشير.

وأشارت إلى أخطار الشرك بنسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى عما يشركون ثم أشارت إلى أن على الرسول أو القائد الذي يقوم مقامه، واجب التبليغ وبيان الحقائق، وليس له أن يقتل نفسه غماً وكمداً، إذا لم يستجب الناس لهدى الله.

وأخيراً بينت الرؤية الإسلامية لزينة الحياة الدنيا، ومتاعها، بأنها مادة للابتلاء والإمتحان الإلهي بالنسبة للبشر، وأنها بالتالي زائلة، لأن الأرض سوف تصبح صعيداً جرزاً.

ثـم تحدثـت الآيات مـن: (٩-١٦) عـن وجوب ملاحظة الإنسـان لسـنن الله في الكـون، فيسـلّم لحكـم الله مهما كانت الحوادث التي يشـاهدها أو يسـمعها بالغة الغرابة عنـده وجديـدة عليـه والثـورة عـلى الظلم هي إحـدى سـنن الله في الحيـاة، لأنَّ الله يأمر بالعدل، وهو قائم بالقسط. كما بينت الآيات أسلوب الثورة وهو: أن يستجيب الإنسان لإلهام فطرته، ويفجر الثورة على كل ألوان الظلم ابتداء من نفسـه، ويعتزل مجتمع الشرك والجاهلية، ثم يأتيه تأييد الله الذي يهديه إلى الوسائل المادية والمعنوية للإنتصار.

ثم تحدثـت الآيات من: (١٧-٢٠) عن الألطاف الإلهيـة والنفحات الربانية التي يتعّرض لها الذين يقومون لله وباسم الله، إلى الحد الذي قد يوقف الله سبحانه معه بعض السـنن الطبيعية أو يغيرها لمصلحتهم، ثم أشـارت إلى سلاح هام يعطيه الله لأوليائه وهو سـلاح الرعب، وتعرّضـت الآيات لذكر بعض الصفات الأخلاقية الثورية، كما بينت أن أول مرحلة من مراحل العلم بالنسـبة للإنسـان هو الاعتراف بالجهل، ثم اقتباس العلم من منبعه الحقيقي وهو: الله العليم الحكيم.

ثـم تابعـت الآيات مـن: (٢١-٢٦) عـن دور حادثة أهـل الكهـف كواحدة من الظواهـر التـي تبـين للناس صـدق وعد الله، وترفع من نفوسـهم كل ريـب حول قضية السـاعة والمبعـث، ثم أشـارت بطريقة إيحائيـة إلى موقف القرآن من زيـارة قبور الأولياء والصالحـين ثـم بينت أن الإسـلام يؤيد المنهج العلمي القائم عـلى الحقائق لا على الرجم بالغيـب والجدليـات العميقة، وأن القرآن يدعـوا إلى المرونة والتكيف السـليم مع الحياة ويرفض البرامج الجامدة والأفكار المتحجرة.

وتحدّثت الآيات من (٢٧-٣١) عن الضمانات الوقائية للإنسان تجاه ضغوط زينة الحياة، وهي تلاوة القرآن، والإتصال الدائم بالله، والانتماء إلى التجمع الإيماني القائم على أساس المبادئ الرسالية، لا الاعتبارات المادية، وأخيراً التحلي بروح التحدي والاستعداد للصراع، ثم بينت المقياس الذي يتبعه الإنسان لمعرفة القيادة الصالحة، ثم عرضت صوراً مجسمة للجنة وللنار فيها عبرة لمن اعتبر.

وبينـت الآيات من (٣٢-٤٤) موقف الإنسـان من النعمـة والمنعم، وأن من مكر

الله بالجاحدين أن يملي لهم فيوسع النعمة عليهم، ومن ثم يؤدي اغترارهم بها إلى إنزال العقوبة الصارمة بهم، ثم بينت مراحل التدهور العقيدي ومن ثم السلوكي عند الإنسان الكفور، الذي يستند على معادلة خاطئة، وهي أن العطاء في الدنيا دليل رضى الله، بينما هو في الواقع امتحان للعباد، كما بينت أن الخضوع للثروة والأثرياء قد يكون بمنزلة الشرك بالله، وأن الولاية الحقيقية على العباد لله الصمد فقط، لا لغيره من المخلوقات التي يطرأ عليها التغيير والزوال.

وصوَّرت لنا الآيات (٤٥-٤٩) الحياة من واقع قصة الطبيعة، ودعت إلى الاهتمام بزينة الآخرة وهي الباقيات الصالحات، ثم بينت دور العمل الصالح في بناء الحضارة، ودعتْ إلى شمول النظرة المستقبلية، وامتدادها إلى ما بعد هذه الحياة الزائلة.

ثم عرضت لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة يبين لنا أن كل شيء في هذه الحياة يتحرك ولا يثبت على حال، حتى الجبال الراسيات، إذن فلا مسوغ للاعتماد على زينة الدنيا لأنها هي الأخرى تتحرك وتزول، وحمَّلت الإنسان مسؤولية أعماله كاملة أمام ربه، تلك الأعمال التي سيراها مسجلة بالكامل ومجسمة أمامه، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

ثم جاءت الآيات من (٥٠-٥٦) لتبين موقف الإنسان من أصحاب الزينة، وهم المستكبرون في الأرض وعن طريق الصور التاريخية والمستقبلية، يحث القرآن على إيجاد فاصل بين المؤمنين وبينهم، فلا يتبعونهم ولا يتخذون منهم عضداً، لأنهم أعداء أولاً، وجاهلون مضلّون ثانياً.

ثم تحدَّثت عن دور التصور الذهني في معرفة الحقائق الغيبية، وبينت أن جدل الإنسان لا حدود له، مهما كانت الحقائق القرآنية كثيرة أمامه، ثم أكدت على أن الإنسان ليس مجبراً على الهداية، وأن الاستهزاء هو أخطر حجاب بين عقل الإنسان وبين الهداية. ومَن أشد ظلماً لنفسه وللناس وللحقائق ممن أودع الله قلبه فطرة الإيمان ثم ذكَّره عبر رسالاته بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ذنوبه فجعل الله على قلبه ستاراً، ومنع عنه الفقه وجعل في أذنه وقراً فإذا به لا يهتدي أبداً.

ولأنَّ الله غفور ذو رحمة، فهو لا يعاجل الكافرين بالعذاب إلا أن لهم موعداً لا يجدون

عنه، وشاهد ذلك تاريخ القرى التي أُهلكت فـي الموعد المحدد لهلاكها (٥٧-٥٩).

ويستمر السياق القرآني (٦٠-٨٢) يحدِّثنا عن قصة موسى عليه السلام مع العالِم، ومن خلالهـا يُبين لنا صفـات العالِم والمتعلم، وأهمية العلم، كما يشـير إلى وجود خلفيات هامة للتقديرات الإلهية، والأحكام الشرعية.

فلقد عقد موسى العزم على الرحيل إلى مجمع البحرين وأنبأ فتاه ومرافقه بأنه حتى لـو مضت حقب من الزمـان فلن ينثني عن عزمه هذا، وعندما بلغا مجمع البحرين نسـيا حوتهـما الـذي سرب في الماء وعندما تـركا الموقع طلب من صاحبه الغـذاء، الا أنه أخبره بقصة الحوت التي كان قد نسـيها وقال: إن الشـيطان هو الذي أنساه وحين عرف موسى بقصـة الحوت علم بأن موقع قرب الحوت في البحر هو بالذات ميعاده مع العالم فعادا أو رجعا إليه.

عند الموقع وجد موسى العالم الذي أتاه ربه الرحمة والعلم، وحين سأله موسى عما إذا كان مستعداً لتعليم رشداً مما علمه الله، أخبره أنه لن يصبر على ذلك الرشد لأنَّه لم يحط بذلك خبراً، وأصر موسى ووعده بالطاعة إن شاء ربه.

كان موسـى نبيًّـا، وعارفاً بأحكام الرسـالة الظاهرة، ومن خـلال تعلمه لخلفيات الأحكام كان ينتفض مستنكراً لأنَّه لم يعلم حكم الشريعة.

فلـما خرق العالم السـفينة اسـتعظم الأمر، أما حينـما قتل غلاماً فقد اسـتنكر ذلك بقوة، وهكذا عندما بنى جدارا لقوم لا يستحقون ولم يطالبهم بأجر.

وفي كل مرة يذكره العالم بوعده ويعتذر منه موسى، حتى افترقا (٦٥-٧٨).

لقد أخبره أن السـفينة كانت لمسـاكين وأنه سـيقرر الملك مصادرة السفن الصالحة فقط فأردت أن أعيبها لمصلحتهم.

أما الغلام فقد كان يخشـى على أبويه الكفر فأراد الله تبديله بمن هو أزكى وأقرب رحماً.

أما الجدار فقد كان تحته كنز ليتيمين، فأراد الله سبحانه وتعالى حصولهما على الكنز كرامة لأبيهما الذي كان صالحاً (٧٩-٨٢).

وفي إطار الحديث عن زينة الحياة الدنيا في سورة الكهف تناول السياق أهم زينة منها وهي السلطة وضرب لنا عن واقع ذي القرنين مثلاً، كيف مكَّن الله به في الأرض وأتاه من كل شيء سبباً ووسيلة أما هو فقد مضى عن طريق الأسباب إلى أهدافه النبيلة، فبلغ مغرب الشمس، وسار في أهلها بالعدل، ومضى قدماً في اتباع الأسباب حتى بلغ مطلع الشمس حيث وجد الناس يعيشون حياة بدائية، وحتى إنهم لا يجدون ما يسترهم عنها، ومضى في طريق الأسباب فوجد منطقة جبلية، كان أهلها يحتاجون إلى سد يحفظهم من غارات يأجوج ومأجوج المفسدين، فبادر إلى بناء السد دون أن يطالبهم بأجر، بل شكر ربه على نعمة السلطة.

وشكر ذو القرنين ربه على هذه السلطة بدل أن يفرض على الشعب حمده وشكره، وكما يفعله الملوك عادة.

وأنبأهم بأن السد لا يقاوم أمر الرب، فإذا جاء الوعد الموعود فإن الله سيجعله دكاء وإذا بالناس يموج بعضهم ببعض وينفخ في الصور، ويجمع الله الناس على صعيد واحد جميعاً.

ليعرض على أولئك العميان الذين لم يبصروا آيات الله، ولم يسمعوا نصيحة المصلحين، يعرض عليهم جهنم لكفرهم بالله.

وهكذا ضرب الله لنا مثلاً، للمؤمن الذي تجاوز السلطة فملكها ولم تملكه واستفاد منها لأهدافه، ولم تستفد منه لها (٨٣-١٠١).

وفي الدرس الأخير من هذه السورة (١٠٢-١١٠) نجد أهم العبر القرآنية المبثوثة فيها، وفي قصصها العجيبة، ومن أبرزها ضرورة توحيد العبودية لله، وألا يتخذ العباد أولياء من دون الله، ويبين القرآن أن الأخسرين أعمالاً هم الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون عملاً، بلى أولئك هم الكافرون بآيات الله، الذي لا يأبه بهم ربهم يوم القيامة بالرغم من مظاهر الزينة والقوة عندهم في الدنيا لأنهم استهانوا

بالآيات والرسل، بينما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنَّ لهم جنات الفردوس نزلاً، يخلدون فيها ولا يبحثون لها عن بديل.

تلك السورة من كلمات الله وكلمات الله كثيرة حتى لو كان البحر مداداً لكتابتها لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله.

وخلاصة كلمات الله توحيد الله، والإعتقاد بأن الرسول بشر أوحي إليه، وأن من يرجو لقاء الله فعليه أن يعمل عملاً صالحاً، خالصاً لوجه الله، ولا يشرك بربه أحداً.

19

سُورَةُ مَرْيَم

* علاقة الإنسان بالأسرة

كان الاتجاه العام لسورة الكهف هو بحث علاقة الإنسان بزينة الحياة الدنيا، فجاءت سورة مريم لتركز الضوء على علاقة الإنسان بالأسرة والأولاد أي قضية الامتداد البشري وإطارها السليم.

وثمة ملاحظتان:

الأولى: يؤكد الإسلام على ضرورة تحديد الإنسان لعلاقته بالطبيعة في إطار علاقته الكبرى بربّه وربّها، لأن الأخرى، هي التي تحدّد أعماله وسلوكه وكيفية تكوين علاقاته. ويجب أن يضّحي بكل شيء من أجل هذه العلاقة، فهو عبد لربه يحبه ويحب من يحبه ويبغض من يبغضه. فعلاقة الإنسان بالطبيعة امتدادية وليست ذاتية، فلأن الله أمرنا أن نعمر الأرض ونبني البيت، ونكوّن العائلة، ونحب أولادنا أو نشفق عليهم. فإنا نقوم بكل ذلك في حدود أوامر الله وتوجيهاته.

ولقد جاءت سورة مريم لمعالجة هذه الحقيقة، ولذلك جاء في الحديث: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ سُورَةِ مَرْيَمَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُصِيبَ مِنْهَا مَا يُغْنِيهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ..»[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١.

والإدمان يشير إلى العمل بهذه السورة، وتكييف حياة الإنسان وعلاقاته وفقها، ومن يفعل ذلك فإنه يرى خيراً في علاقاته وحينما يأمره الإسلام أن تكون العلاقة بالطبيعة وزينة الحياة (من أموال وبنين وما أشبه) علاقة امتدادية، في إطار العلاقة مع الله، فليس لأنه يريد للإنسان الحرمان من نعيم الدنيا وطيباتها، إنما يريد له أن يستفيد من ذلك أكبر فائدة ممكنة، لأن الله هو خالق الحياة والبشر، وهو أعلم بما يصلحهم ويعود عليهم بالخير، وبالتالي هو القادر على أن يرسم لهم المنهج السليم في السلوك والعلاقات.

الثانية: إن هناك فرقاً بين الوصفة الطبية والدواء الذي تشتريه بموجبها، فبينما تشير هي أن الدواء فقط يقوم بملاحقة ميكروب المرض للقضاء عليه.والكتب التربوية والأخلاقية تشبه إلى حد بعيد الوصفة الطبية، بينما القرآن دواء وشفاء لأمراض السلوك البشري، فآياته تلاحق الجراثيم والأمراض النفسية في قلب الإنسان وتقضي عليها، لذلك لا يكتفي القرآن أن ينصحك بكيفية تكوين علاقاتك مع أولادك فحسب وإنما يتعمق حتى يصل إلى جذر المشكلة النفسية ويقتلعها، فيضرب الأمثال ويبين حقائق التاريخ ويحللها .

وقد سميت هذه السورة بمريم؛ لأن علاقة مريم الصديقة بابنها عيسى عليه السلام كانت علاقة فريدة ونموذجية، لا سيما وأن هذه السورة كما هو شأن الكثير من الآيات القرآنية تهدف -فيما تهدف- إلى جعل علاقة الإنسان بالحياة الدنيا علاقة سليمة.

والقرآن الحكيم يوقفنا في هذه السورة المباركة ليبيّن لنا حقيقة هامة، وهي: إن الخلاف العقائدي الذي انتشر حول النبي عيسى عليه السلام، إنما كان بسبب عدم معرفة الله سبحانه، والجهل بصفاتهوأسمائه، وبقدراته الواسعة المطلقة، وبكيفية خلقه للأشياء، وأن هذا الخلاف ينبع من ضعف الإيمان بالآخرة..

أما عند الحديث عن الأسرة؛ فيمكن القول بأن علاقات الإنسان يجب أن تكون علاقات إيمانية وسليمة مع أسرته،وهو يحتاج في هذا الإطار إلى الاقتداء بأولياء الله الصالحين، ليتخذ منهم أسوة في تصرفاته.

وفي سورة مريم يذكّرنا القرآن ببعض تلك القدوات الصالحة، كالأنبياء موسى

وهارون وإسماعيل وزكريا ويحيى،ومريم وابنها عيسى عليهما السلام. كما يضرب لنا من أمثلة السوء الذين عكسوا المطلوب، وكانت علاقاتهم سيئة بالنسبة إلى أسرهم، ممن ضيعوا الصلاة، وتركوا عبادة الله، واتبعوا شهواتهم..

ولكن الأسرة الفاضلة في الدنيا هي الأسرة التي تصنع في بيتها جنة معنوية، تشبه إلى حد بعيد جنات عدن في الآخرة.ومن عاش في جنان الدنيا المعنوية، فحري به أن يعيشها في الآخرة؛ نظراً لأن الآخرة صورة مصغرة من الدنيا؛ من أعمال وتصورات وأفكار.. والقرآن الكريم حين يعرض لنا مشاهد يوم القيامة، فإنه يشير إلى تلك الحقائق التي صنعت هذه المشاهد، لكي يقرب فهم الإنسان من واقع عمله في الدنيا، وكيف يتحوّل إلى واقع حي في الآخرة.

ومن دروس هذه السور المباركة هي أن الله تعالى يريد معالجة النفس البشرية من مرض الغرور بالمال والولد، وتبين أن هداية الإنسان تعود إليه قبل غيره، إلا أن الله يزيده هدىً. وإنّ من أهم ما يهدي إليه الرب عبده، هو العمل للمستقبل، لأن الأعمال الصالحة هي التي تبقى خيراً عند الله.

ثم تذكّرنا الآيات الأخيرة بيوم القيامة، لخلق معادلة في أفئدتنا، لأننا إذا عرفنا بداية الشيء ونهايته، عرفناه بصورةأفضل. فإذا عرفنا إلى أين تنتهي حياتنا وما هو مصيرها، فإنه نكون قد حصلنا على المعرفة العميقة والمطلوبة، فنتعامل معها معاملة سليمة.

20

سُورَةُ طَـه

* من هو الإنسان؟

الأمر المثير للدهشة هو أن حوالي تسعين آية من آيات هذه السورة البالغة مئة وخمسة وثلاثين آية، تبحث قصة النبي موسى عليه السلام، أما الأربعون آية الباقية منها فهي تبحث مواضيع شتى، من بينها قصة أبينا آدم عليه السلام وسبب خروجه من الجنة وكيفية إغواء إبليس له.

فهل هذه السورة كسورة يوسف، مخصصة للبحث عن قصة النبي موسى عليه السلام كما كانت تلك السورة تبحث في قصة النبي يوسف عليه السلام؟.

وحدَّثنا القرآن الحكيم عن قصة بني إسرائيل وقصة موسى عليه السلام معهم في سورة البقرة، ويحدِّثنا عن موسى وقصته مع قومه ومع فرعون كما يحدِّثنا أيضاً عن السحرة فما هو الفرق؟.

ربما يكمن الفرق في أن القرآن الحكيم في سورة البقرة -مثلاً- إنما يحدثنا عن الجانب الاجتماعي والأمني -إن صح التعبير- لبني إسرائيل، باعتبارهم أمة مستضعفة قاومت المستكبر واتصفت بصفاته عندما بنت حضارتها وكيف أنسجت عليها تلك الصفات فبدأت بحركة للتطهير وما أشبه.

هذه الموضوعات نجدها في سورة البقرة في حديثها عن بني إسرائيل، أما قصة بني إسرائيل وقصة موسى عليه السلام معهم ومع فرعون في سورة طه، فإنها تتناول جانباً آخر هو جانب الإنسان في هذه القصة، حيث جاء التركيز فيها بصورة خاصة على علاقة الإنسان بهدى الله، وأنه هو المنقذ له في صراعه مع الطبيعة والشهوات.

الإنسان بين شهوة الملك ونزعة الخلود

الإنسان الذي قد ينحرف بسبب غريزتيه الذاتيتين وهما غريزتا حب الخلود وحب الملك، هذا الإنسان نجده عند فرعون وقد اكتملت فيه أسباب الانحراف حتى أوصلته إلى أبعد ضلالة، ونجده عند موسى عليه السلام وقد قاوم الغريزتين فاكتملت فيه صفات الاستقامة، ونجده في الصراع بينهما الذي يتمخض عن مفاجأة هامة، هي السحرة الذين انحرفوا حتى وصلوا في انحرافهم إلى حد أنهم أصبحوا أدوات بيد الطاغوت فرعون، ثم مرة واحدة وبسبب تلك الإنسانية الكامنة فيهم وصلوا إلى القمة.

هذا هو الإنسان، والقرآن يركز الضوء على هذا الإنسان، ليس بصورة عامة كما نلاحظ ذلك في سورة الإعراف مثلاً، بل بصورة خاصة يركز الضوء على علاقة الإنسان بهدى الإله، ومن الذي ينقذ الإنسان في صراعه مع الطبيعة والشهوات، وكيف ينبغي للإنسان أن يتحدى الطبيعة، وبماذا؟.

ومهما يكن؛ فإن مقدمة السورة تبحث موضوعات شتى، ولا غرابة. ومن الملفت للنظر إن الآيات الأولى والأخيرة من سور القرآن قد تبدو موضوعات غير منسجمة بادئ الأمر، إلا أنها -عند التأمل- نجدها ترمز إلى كل الموضوعات التي نجدها في السورة ببلاغة نافذة وقول فصل.

وفي آيات هذه السورة المباركة إشارات دقيقة إلى موضوعات خفية، ينبغي أن نتدبر فيها، لنعرف أسباب رقي الإنسان، وما هي العوامل التي لو التزم بها لاستطاع أن يتحدى ويقاوم طبيعته، وبالتالي لاستطاع الوصول إلى الجنة.

فالآيات: (١-٨) في هذه السورة تشير إلى دور الرسالة، وأنها جاءت لسعادة

الإنسان، وأن صاحب الرسالة لا ينبغي أن يقضي على نفسه من أجل هداية الناس، بل يكفيه أن يذكّرهم.

ثم تتطرق (الآيات: ٩-٣٦) إلى مجموعة من الأسرار التي تقف وراء اصطفاء الله سبحانه وتعالى أنبياءه على الناس، وذلك من خلال سيرة النبي موسى عليه السلام كعينة جلية واسعة التفاصيل، بالإضافة إلى تبيينها مجموعة الخصال الأخلاقية التي ينبغي أن يتمتع بها الأنبياء فضلاً عما يمكن لهؤلاء الرسل الربانيين أن يترجموا أخلاقياتهم تلك في إطار سلوكياتهم ومواقفهم من الناس، ولا سيما الظالمون منهم.

وتوضح جملة من الآيات أن خلاصة رسالات الأنبياء التي تتكرر قصصها في القرآن، هي أن الإنسان رهين بعمله،وأن نتيجة العمل غير محدودة بالآخرة فقط، بل قد يحصل المرء على عاقبة عمله في الدنيا أيضاً، كما انحرف فرعون بطغيانه، فقضى عليه الرب القادر بالغرق.

ولهذا حذر الله عز وجل بني إسرائيل مراراً من الطغيان وكفران النعمة، حتى لا يحل عليهم غضبه. ولكنه إن انحرف قليلاً، فإن باب الرجعة والتوبة الصادقة يبقى مفتوحاً له.

وتشير (الآيات: ٣٧-٤٢) إلى سلسلتين من النعم الإلهية على الإنسان، تمثل شرطاً مسبقاً لتلقيه النعمة الكبرى، وهي نعمة الهداية الإلهية. السلسلة الأولى: هي النعم المادية. والسلسلة الثانية: هي النعم المعنوية.

بالإضافة إلى أن (الآيات: ٤٣-٥٥) تبين أن في طريق الإنسان إلى ربه عقبات، ولابد من تصفيتها وإزاحتها؛ العقبة الأولى: هي الاستهزاء أو ما يعبر عنه بانعدام الإحساس بالمسؤولية. والعقبة الثانية: هي التراجع إلى الوراء، أو الحنين إلى سيرة القرون الأولى..

ومن العبر الأساسية التي يستفيدها الإنسان من قصص التأريخ هي معرفته بأن الحياة الدنيا ليست دائمة، كما أن معرفته هذه تعطيه معرفة أعمق بالحياة ذاتها، إذ يرى أنها قصيرة، وأنها مجرد جسر إلى البقاء الأبدي في الدار الآخرة.



والآيات: (٥٦-٧٣) تؤكد أن على صاحب الرسالة أن لا يتصور الطاغوت حديداً لا يلين، بل هو بشر من لحم ودم، وأن يعي أن جلّ اهتمامات الطاغوت هي تلفيق الإشاعات ضد المصلحين، ومحاولة احتواء العملية الإصلاحية والتغييرية.

ونفس هذه الحقيقة نجد تذكيراً بها في كتاب الله، الذي يخسر من أعرض عنه، إذ يفقد البصيرة في الدنيا، والبصر في الآخرة، كما تتحول ذنوبه وأخطاؤه إلى أثقال يحملها يوم القيامة.. ذلك اليوم الرهيب؛ اليوم الذي تخشع فيه أصوات الخلائق لربها، ونرى الناس يبحثون عمن ينقذهم من عذاب النار، وليس ثمة شفاعة بدون إذن الله.

فمن أجل أن لا نتورط بحمل هذه الأثقال علينا، يجدر بنا أن نستلهم العبر من التاريخ، والذكرى من القرآن.

ونحن بين هذا وذاك ينبغي أن نعلم بأن حياتنا قصيرة جداً، وأن أمامنا حياة أخرى؛ لا حصر لأمدها، وأن سعادتنا أوشقاءنا فيها مرهون بعملنا في الدنيا، فنسعى جاهدين لأن نكون سعيدين فيها. (الآيات: ٧٤-٨٢).

وتشير (الآيات: ٨٣-٩٨) إلى ما يمكن أن يتعرض له المجتمع الرسالي من مؤمرات وانحرافات ثقافية وعقائدية داخلية، تقف وراءها الشهوات وحب المال والجهل والأنانية، إضافة إلى تأكيدها ضرورة اتخاذ الثلة المؤمنة المخلصة سلوكاً حكيماً وواعياً من شأنه أن يجنب المجتمع الرسالي مخاطر الانحراف.

كما تتطرق (الآيات: ٩٩-١١٢) إلى حقيقة كون الإنسان خاضعاً بكيانه الطبيعي لله سبحانه وتعالى،ويتجسد خضوعه الكامل والمطلق في يوم القيامة؛ أما في الدنيا فقد أعطاه ربه الحليم فرصة لتجربة إرادته، فهو باستطاعته السمو إلى أن يكون أفضل من سائر المخلوقات.. فيستر بإرادته شهواته، وبعقله جهله، وبتقواه غرائزه.. وأنه لولا هذا الجانب الخير في حياته، لكان أضعف وأعجز من كثير من الأحياء.

أما (الآيات: ١١٣-١٣٥) فهي خلاصة لعبرها، فتبين سلبيات النفس البشرية بعد الإشارة إلى عوامل الانحراف فيها، ذلك لأن معرفة الإنسان بنفسه وبالعوامل المؤثرة فيها تساعده على الاختيار السليم.

إن هناك مجالاً للإنسان أن يسمو ويسبق الآخرين، ولكن ينبغي أن يكون تسابقه معهم شريفاً بنية البناء؛ فلا يكون على حطام الدنيا، ولا يتحول إلى صراع هدّام.

إذن؛ فسورة طه المباركة تحدثنا عن الإنسان، وتقص علينا أنباء أربعة نماذج بشرية، هم: موسى وهارون عليهما السلام، وهما أعلى قمة بشرية، ثم السحرة الذين اهتدوا بعد الضلالة، ثم فرعون في الحضيض، وأخيراً جنود فرعون الذين استخفهم فأطاعوه فأضلهم فهوى بهم إلى قعر الهاوية.

21

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

* مسؤولية الإنسان تجاه الأنبياء

بدايتها هزة ضمير، ونهايتها ومضة أمل، وبين البداية الصاعقة والنهاية الحانية، يتلو علينا القرآن الكريم آيات الوعي،ليعالج فينا الغفلة والإعراض، واللعب واللهو، مذكراً بعاقبة المكذبين، وأن الحياة جد، وأن الملائكة عباد مكرمون، وأن الآلهة لا تنفع،هي ليست كهفاً منيعاً للاعبين واللاهين، وأن الله واحد أحد، وأن الموت واقع، وأن الاستهزاء بالرسل عاقبته العذاب، كما أنها تذكر بدور الرسل، وعاقبة المكذبين بهم، وشهادة صدقهم في نصر الله لهم.

فما هو -إذن- الإطار العام لهذه السورة؟ هل أنه يحيط بمحور النبوة ودور الأنبياء كما يدل عليه اسم السورة؟أم أن محور السورة قضية الغفلة، وكيف تعالج في النفس، ليشعر الإنسان بمسؤولياته، وأن الحياة جد لا هي لهو ولا لعب؟.

لعل السورة تحدثنا عن الأنبياء عليهم السلام، ولكن من زاوية تذكيرهم البشر، وكيف ينبغي أن نداوي حالة الغفلة من أنفسنابالاستماع إليهم، والإيمان بهم وبما أرسلوا به.

ذلك أن سوراً أخرى تحدثنا أيضاً عن الأنبياء عليهم السلام، ولكن من زوايا مختلفة، مثل طبيعة الصراع الاجتماعي أو السياسي الذي خاضوه؛ مثل سورة القصص، أو الأذى

الذي لحقهم وكيف استقاموا حتى نصرهم الله مثل سورة هود.

إن الشعور بالمسؤولية هو قمة الوعي، وإن السبيل إليه مقاومة حالة الغفلة والسهو، والتي لا تتحقق إلا بالإنذار باقتراب موعد الحساب.

وقد جاء النبي يذكرهم، إلا أنهم استمعوا الذكر وهم يلعبون، لأن قلوبهم لاهية، لا تستقر على فكرة.

و بعد أن يذكر السياق بأن إعراضهم عن الذكر بادعاء أنه سحر، أو حلم مختلط، أو افتراء، أو خيالات شاعر.. وبالتالي تبريرهم التكذيب بالحق، بأننا نبحث عن آيات جديدة، بعدئذ ينذرهم بأن الهلاك هو مصير المكذبين (الآيات ١-١٥).

و يبين القرآن أن الحياة جد لا لعب، وأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وبالتالي لا ينبغي اتخاذها لعباً ولهواً (الآيات: ١٦-١٨) ويؤكد ذلك بأن الملائكة وهم الأعرف والأقوى منهم يعبدون الله بجد ويسبحونه وله يسجدون (الآيات: ١٩-٢٠)، ولأنهم يهربون من المسؤولية عادة إلى كنف الآلهة، فيزعمون أنها تنقذهم من جزاء أفعالهم، يذكرهم الرب بأنه الله الواحد (الآيات: ٢١-٢٤).

ويستمر السياق بذكر التوحيد والشواهدالفطرية عليه (الآيات: ٢٥-٣٣)، ثم يعود بعد تزييف فكرة الشرك التبريرية، ليهز الإنسان من أعماقه بذكرالموت، وأن كل نفس ذائقة الموت، حتى النبي الكريم عند ربه (الآيات: ٣٤-٣٥).

أما الاستهزاء؛ (وهو: صورة من صور اللهو وعدم الجدية في استقبال القضية المصيرية) فإن عاقبته الدمار (الآية: ٣٦).

وبعد تفنيد الشرك والاستهزاء يعالج القرآن حالة الاستعجال (الآيات: ٣٧-٣٩) (حيث إن الإنسان يبعد المسؤولية عن نفسه بالقول أنه لو كان لكل فعل جزاء، فلماذا يتأخر الجزاء)؟.

ويعود السياق ليبين مصير المستهزئين، ويقول: إن الله هو حافظكم في الليل والنهار فاحذروه ولا تستهزئوا به، وإنه هو الذي يكلؤكم ولا أحد غيره، وإن الآلهة لا

تمنع عنكم العذاب (الآيات: ٤٠-٤٣).

واستمرار النعم، قد يوحي إلى الإنسان بأنه لا نقص ولا جزاء في الحياة، ولكن الرب يذكرنا بأن نظرة إلى الأرض كفيلة بإثبات حقيقة إن الموت والفناء يلاحقان أطرافها (الآية: ٤٤).

إن من يلهو لا ينتفع بالوحي لأنه الصم، وهل يسمع الصم الدعاء، حتى ولو تم إنذارهم بالخطر المحدق بهم؟ (الآية: ٤٥).

إنهم يعترفون بذنبهم إذا أصابتهم نفحة بسيطة من عذاب الله، فكيف يغفلون عن الموازين القسط الدقيقة التي وضعت ليوم القيامة؟ (الآيات: ٤٧-٤٦).

لهذا الهدف؛ وهو تذكرة الإنسان، وإيقاظ ضميره، واستثارة عقله، جاء الأنبياءعليهم السلام، يحملون معهم الذكر، والله أيدهم بنصره، فأهلك المكذبين بهم والمستهزئين، وأنقذهم ومن آمن معهم من العذاب ورفع كلمتهم. وهكذا يقص علينا القرآن قصة الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ويحيى ومريم وابنها عيسى عليهم السلام، ويبين كرامتهم عند ربهم وشهادةالصدق على رسالتهم الواحدة حيث إن الاختلاف جاء من قبل الناس أنفسهم (الآيات: ٤٨-٩٣).

ويستلهم السياق من تلك القصص المضيئة أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (الآية: ٩٤)، وهو الجانب الآخر لفكرة المسؤولية.

وبعد أن يبين أشراط الساعة واقتراب الوعد الحق وندم الكفار وكيف أن الله يلقي الآلهة المزيفة ومن عبدها في النار،يؤكد بأن دخول هؤلاء النار التي لهم فيها زفير، لدليل على أنهم ليسوا بآلهة (الآيات: ٩٥-١٠٠).

أتريد أن تتخلص من النار؟ فكن ممن هداه الله، واستمع الذكر، فهناك لا تسمع حسيسها، ولا يحزنك الفزع الأكبر (الآيات: ١٠١-١٠٣)، هنالك يطوي الله السماء كما تطوى الأوراق، ولكن قبل ذلك اليوم سوف يورث الله الأرض لعباده الصالحين، وهذا

البلاغ يفهمه القوم العابدون (الآيات: ١٠٤-١٠٦).

والرسـول رحمة للعالمين (وتتجـلى الرحمة في يوم وراثـة الأرض). وبعد أن يذكرنا السـياق بالتوحيد، وينذرنا من مغبـة التولي، يخبرنا بأن الله يعلم الجهـر وما تكتمون، وأن المتـاع الدنيوي فتنة ونهايته قريبة، يختم السـورة بالدعاء الذي يأمر به رسـوله النذير، بأن يطلب من الله أن يحكم بالحق (بينه وبين الجاحدين)، وهو الرحمن المستعان على الأعداء وما يصفونه من تهم (الآيات: ١٠٧-١١٢).

22
سورة الحج

* التقوى ومعالجة الأمراض الروحية

الآيات: (١-٧) من سورة الحج تصور لنا أهوال الساعة بهدف بث روح التقوى من الله تعالى، بعد أن يهز سياقها الأول ضمير الإنسان هزاً عنيفاً بتصوير اللحظات الحرجة لوقوع الساعة.

ولعل التقوى من الأهداف التي تحققها كل السور القرآنية، إلا أن انعكاساتها على الحياة تختلف، وقد سبق الحديث لدى دراسة الإطار العام لسورة البقرة أن آياتها تهدف بيان صبغة الله التي جعلها للأمة المسلمة، والتي تتجسد في التقوى،وتكاد تكون سورة الحج تأكيداً على تلك الصبغة، حيث أنها تبدأ بأمر الناس بالتقوى، وتذكرنا بمناسك الحج،وواجبات الجهاد، وتنتهي ببيان خصائص الأمة الإسلامية.

ولكن هذه السورة التي اختلف المفسرون في أنها نزلت بمكة أو المدينة، أو فيهما معاً، تتميز عن سورة البقرة -فيما يبدو لي- في أنها شفاء للقلب من أمراض الغفلة والجدل والجهل والنفاق، وهي تعالج أيضاً الأعذار التي يلجأ إليها الإنسان هرباً من المسؤولية؛ مثل التظني والتمني، والاتكال على عبادة الأوثان، والخوف من الطغاة، والخشية من الهزيمة أمام قوتهم.

كيف يشفي الله بآيات هذه السورة تلك الأمراض، ويطهر القلب من الأعذار المانعة عن التقوى؟.

فيما يلي نتذكر معاً الحقائق التي نستوحيها من التدبر في آيات هذه السورة التي تفيض هيبة وجلالاً.

نرى في بدايتها هزة عنيفة تزلزل قناعات الإنسان، السادر في الغي، الغافل عن المصير الفظيع الذي ينتظره في يوم القيامة.

ثم في (الآيات: ٨-١٤) يعالج السياق التبرير القديم الجديد، الذي تلجأ إليه النفس البشرية هرباً من عظمة المسؤولية وهيبة الجزاء.. وذلك هو الجدل في الله بغير علم، والريب في البعث باعتباره مستحيلاً.

وبعد التذكرة بقدرة الله على النشور، يعالج حالة الجدل بغير علم، وحالة الإيمان الحرفي، حيث يهدف صاحبه المصالح العاجلة، ويحذره بأنه الخاسر في الدنيا والآخرة.

ويهدينا السياق القرآني في (الآيات: ١٥-٢٢) إلى ضلالة من يظن بأن الله لا ينصره في الدنيا والآخرة، أوليس هو السلطان الحق للسماوات والأرض، وهو الذي يفعل ما يشاء وهو الذي يفصل بين الناس -على اختلافهم- بالحق؟.

ثم يبين (الآيات ٢٣-٢٩) جزاء المؤمنين، وعقاب الكفار، وبالذات الذين يصدون عن المسجد الحرام، ذلك البيت الذي بناه النبي إبراهيم عليه السلام ويجب قصده ابتغاء مرضاة الرب.

إن من أعظم حكم الحج بث روح التقوى في القلب، لتطهيره من درن الشرك، وذلك عبر ذكر الله، وإطعام البائس والفقير، وتطهير البدن من التفث.

وهكذا يبدأ السياق بذكر الحج من (الآية: ٢٦)، ويستمر ببيان جانب هام من التقوى، هو تعظيم حرمات الله واحترام شعائره، وينهى عن الأوثان، ويأمر برفضها عبر الحنيفية التي تعني الطهارة والنقاء.

إن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب كما أشارت إلى ذلك (الآيات: ٣٠-٣٥)، والهدف من الذبح تنمية التقوى، عبر ذكر الله عليها وقد حدد الله لكل أمة منسكاً، ليذكروا الله على نعمائه.

وأسمى درجات التقوى حالة الإخبات، حيث يذكرنا السياق بصفات المخبتين من خشية الله والصبر وإقامة الصلاة والإنفاق (الآيات: ٣٦-٣٧).

وخلال (الآيات: ٣٨-٤١) يذكرنا السياق بالجهاد الذي هو حصن المقدسات، ودرع الحرمات. والعلاقة وثيقة بين الحج (الذي يسمى بجهاد الضعفاء) والجهاد، أو ليسا يهدفان معاً إعلاء كلمة الحق، أحدهما بصورة سلمية، والثاني بالدفاع الدامي؟.

ولعل الإذن بالجهاد في هذا السياق لتكميل جوانب التقوى، حتى لا يتبادر إلى الذهن أن التقوى تعني العزلة والتقوقع والرهبنة.. عموماً يبدو أن هذه الآيات هي سنام السورة.

ثم يعالج السياق القرآني عبر (الآيات: ٤٢-٥١) تبريراً شيطانيًّا آخر، حيث يظن المكذبون بالرسالات أن تأخير العذاب دليل إهمال الله لهم، بينما ينبغي السير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين الذين أملى الله لهم ثم أخذهم أخذاً شديداً، بينما أسبغ على الصالحين نعمه ظاهرة وباطنة والسير في الأرض لا ينفع الذين يسعون في آيات الله معاجزين، وهم يعاندونها ويتحدونها ولكن لهم عذاب شديد.

و يداوي الذكر الحكيم عبر (الآيات: ٥٢-٥٧) قلب البشر من التمنيات التي هي أرضية وساوس الشيطان، والله سبحانه يؤيد أنبياءه فينسخ ما يلقي الشيطان، ثم يحكم آياته. وعلينا أن نعالج هذه التمنيات بآيات القرآن، حتى لا تكون فتنة لنا.

ولكن القلب المريض والقاسي يستقبل ما يلقيه الشيطان فيه عند التمني، فيضل عن الصراط السوي. والكفار يترددون في ريبهم، ولهم عذاب شديد.

و هناك عذر شيطاني آخر تعالجه آيات الذكر، وهو اليأس، حيث يتساءل المرء: ماذا ينفع القيام لله والمطالبة بالحقوق الضائعة؟.

بلى؛ إن الذين يهاجرون في سبيل الله، ويدافعون عن أنفسهم ضد البغي ينصرهم الله، ولا يعجز الله شيء في السماوات والأرض، أوليس هو الملك الغني الحميد الرؤوف الرحيم، وإنه يحيي ويميت؟ (الآيات: ٥٨-٦٦).

و لكي نعالج حالة اليأس لابد من النظر في آيات قدرة الله ورحمته.

و لعل ما يعوق الإنسان عن العمل هو الجدل في الدين، والله نهى عنه، ونبّأنا بأنه قد جعل لكل أمة منهجاً ومنسكاً، وإنه عليم بكل شيء.

و الشرك ملجأ المبررين، حيث يزعم المشرك بأن الاعتماد على الشركاء ينجيه من المسؤوليات، ولكن القرآن يذكرنا بأن أولئك لم يخلقوا ذباباً، وأنهم لا يقدرون على مقاومته، (الآيات: ٦٧-٧٣).

وفي (الآيات: ٧٤-٧٧) من السورة يبين الله كيف يصطفي رسلاً من الملائكة ومن الناس، وأنه المهيمن عليهم، فلا يزعم البعض بأنهم أنصاف آلهة.

وفي ختام السورة نقرأ (الآية: ٧٨) التي تحدد ملامح الأمة الإسلامية، وتأمر بالجهاد القائم على تبييت النية المطلقة في التضحية المطلقة في سبيل الله، وتؤكد على أنه نعم المولى ونعم النصير.

23

سُورَةُ المُؤْمِنُون

* المؤمنون ومشروع الإصلاح القرآني

الإطار العام لسورة المؤمنون -بإيجاز شديد- هو الإيمان، أو صفات طائفة متميزة من البشر وهم المؤمنون،الآيات (الآيات: ١-١١).

ولكن يبقى السؤال عن علاقة موضوعات هذه السورة بهذا الإطار العام؟ دعنا نذكر أولاً موجزاً من موضوعات السورة:

١- مراحل خلق الإنسان (الآيات: ١٢-١٦).

٢- إن حركة الشمس، والقمر، ووجود المطر، والزرع، والثمرات، والأنعام، كل ذلك يخدم حياة البشر (الآيات: ١٧-٢٢).

٣- كذب قوم نوح بالرسل، وكذلك قرون بعدهم كثيرون، فأهلكهم الله باستكبارهم. كما أهلك فرعون وملأه حين كذبوا برسولهم موسى بن عمران عليه السلام (الآيات: ٢٣-٤٨).

٤- ولقد آوى الرب مريم الصديقة وابنها الكريم ربوة، وأمر الرسل بأكل الطيبات، والقيام بالأعمال الصالحة(الآيات: ٤٩-٥٢).

٥- لقد اغتر الكفار بالنعم الإلهية، فكانت عاقبتهم النار (الآيات: ٥٣-٥٦).

٦- والصفات المثلى للمؤمنين (الآيات ٥٧-٦٢).

٧- جزاء الكفار في الدنيا (الآيات: ٦٣-٩١).

٨- موقف النبي من ذلك الجزاء (الآيات: ٩٢-٩٨).

٩- عقاب الكفار في الآخرة (الآيات: ٩٩-١١٥).

١٠- مشاهد من يوم القيامة، وثواب المؤمنين فيها (الآيات: ١١٦-١١٨).

و لعلنا نجد في الجواب التالي على هذا السؤال، ليس فقط الرابط بين هذه الموضوعات وبين الإطار العام فيها، بل وأيضاً الرابط بين موضوعات سائر السور القرآنية الكريمة وبين الأطر العامة فيها.

والجواب هو: إن القرآن ليس مجرد دعوة للإصلاح، بل هو الإصلاح ذاته؛ وليس وصفة طبيب، بل دواء للمريض،وشفاء عاجل؛ إنه ضياء ونور وهدى.

أو ليست حقائق الإيمان ظاهرة، وشديدة الظهور، أو ليس الله خالق السماوات والأرض أكبر شهادة من كل شيء؟.

فلماذا -إذن- لا يؤمن به أكثر الناس بالرغم من حرص أصحاب الرسالات على هدايتهم؟!.

لأن القلوب مريضة، والعيون مصابة، وفي الآذان وقر. إن ركام العقد، وحجب الغفلة، وسحب الكبر والغرور والسخرية لاتدع أنوار الحق تغمر القلوب.

و بالقرآن يعالج المؤمنون كل هذه الأمراض، وموضوعات السورة هذه تصب في هذا المجرى.. كيف؟.

بعد أن حدد الذكر ملامح التجمع المؤمن، وبَيَّن أنهم هم المفلحون (الآيات: ١-١١)، ذكرنا الله بنفسه،من خلال آياته في خلق الإنسان، أو ليس أساس الإيمان معرفة الرب؟! ثم عدد نعمه علينا، وكيف أنها تحيط بالإنسان،وتهدينا إلى ذلك التدبير الرشيد في الخلق، ولكن أو ليست هذه الآيات ظاهرة، وتشهد على وحدانية الرب، من خلال وحدة التدبير؟ بلى؛ إذن، لماذا يكفر أكثر الناس بربهم؟ لأنهم مستكبرون (الآيات: ٢١-٢٢)، وكيف نعالج الاستكبار؟ إنما بمعرفة عاقبة من استكبروا من قبل، وقوم نوح أبرز

شاهد، حيث أغرقهم الله بالطوفان العظيم، وحمل المؤمنين وحدهم في الفلك المشحون. وهكذا عاد وثمود، وقرون متمادية، حيث أتبع الرب بعضهم بعضاً، وجعلهم أحاديث. (الآيات: ٢٣-٤٤).

وهكذا استكبر الملأ من قوم فرعون لما ذكرهم النبي موسى عليه السلام بربهم، فأغرقهم الله في النيل، ونجى بني إسرائيل من الغرق، وأنزل على النبي موسى عليه السلام الكتاب فرقاناً وضياءً لعلهم يهتدون (الآيات: ٤٥-٤٩).

إن إنقاذ المؤمنين دليل رحمة إلهية تخصهم، بينما الشيطان يريد أن يغرينا بوساوسه التي منها أن الإيمان يضر البشر. كلا؛فهذه مريم وابنها البار، يؤويهما الرب إلى ربوة ذات قرار ومعين، ويأمر الأنبياء بأن يأكلوا من الطيبات، ويعملوا صالحاً، ويعبدوا ربهم الواحد، ولا يتفرقوا شيعاً. إلا أن موقف الكفار من النعم، بل ومن رسالات الله كان خاطئاً،حيث تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً، لأنهم اغتروا بالنعم وفرحوا بها، وزعموا أن ذلك دليل سلامة خطهم، وهم لايشعرون (الآيات: ٥٠-٦٥).

أما قدرة الإيمان فنجدها في الذين يشفقون من خشية الله، ويستجيبون لآياته، ولا يشركون بربهم، وحتى عطاؤهم في الله لا يطمئنون إليه، بل لا يزالون وجلين لأنهم يؤمنون بالرجوع إلى الله سبحانه، فهم لذلك يسارعون في الخيرات ويتسابقون إليها (الآيات: ٥٧-٦١).

ولكن لا يعني ذلك أن الله ينهكهم بالمسؤوليات، بل ربنا الرحيم لا يكلف نفساً إلا ما تقدر عليه وتطيقه، وأن الله يكتب لهم أعمالهم كلها وهم لا يُظلمون (الآية: ٦٢).

ثم يذكّرنا القرآن بأن أولئك الكفار -الذين أشارت الآيات السابقة إلى بعض ملامحهم- يعيشون في غمرات الشهوات والضلالة، يمارسون أعمالاً إجرامية ويستمرون عليها حتى يأخذ الله مترفيهم (وهم قياداتهم الفاسدة والمفسدة) بالعذاب، فإذا بهم يتضرعون من هول العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، أفلم يكونوا يتولون هاربين كلما تُليت عليه آيات الله وهم يستكبرون بها، وعندما يسهرون بالليالي كانوا يقولون كلاماً تافهاً ضدها؟ (الآيات: ٦٣-٦٧).

ولماذا الاستكبار على الحق؟ لماذا لا يتدبرون في القرآن ليجدوا أنه يهديهم إلى الحق؟ ألا يعرفون رسولهم بإخلاصه وصدقه وأمانته؟ فلماذا إذن ينكرونه؟ ولماذا يتهمونه بالجنون؟.

إن سبب جحودهم له، أنه يدعوهم إلى الحق الذي يكرهه أكثرهم (الآيات: ٦٨-٧٠) والحق هو مجموعة القوانين والسنن التي خلق الله الكون على أساسها، فعليهم أن يتبعوا الحق حتى تصلح الأمور، أما إذا جُعلت القوانين والسنن تابعة لأهوائهم فإن السماوات والأرض ومن فيهن تفسد (الآية: ٧١).

وهنا تأتي آيات الذكر الحكيم لتساعدنا على تجاوز العقبات التي تعترض طريق الإيمان، وهي: الخوف على الثروة،والمحافظة على التقاليد، ووساوس الشيطان بأن الإيمان بالحق لا يكشف الضر (الآيات: ٧٢-٧٧).

ثم بعد تطهير القلب من هذه الوساوس يعود ويذكرنا بنعم الله علينا (الآيات: ٧٨-٨٠) ويخص السياق جانباً هاماً من آيات آخر السورة بالإيمان بالآخرة، لأنه بذاته جزء من الإيمان، وفي ذات الوقت، مكمل للإيمان بالله، وشرط للإيمان بالرسالات.

فالله يحيي ويميت، ويدبر الحياة، وهو بالتالي قادر على أن يعيد الإنسان بعدما كان تراباً وعظاماً(الآيات: ٨١-٨٣).

ويساعدنا الذكر الحكيم مرة أخرى على تجاوز عقبات في طريق الإيمان، كالجهل، والغفلة، والفسق، والتأثر بضلالات الغواة (الآيات:٨٤-٩٠).

ومن تلك العقبات الزعم بأن لله شريكاً سبحانه وتعالى، والقرآن يذكرنا بسخافة هذا الزعم (الآيات: ١-٩٢).

ولكي يتميز المؤمنون عن الكفار يأمر الله رسوله بأن يستعيذ بالله من العذاب الذي ينزل على الظالمين، ويأمره بالسيرة الحسنة، الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، بل وحتى من مجرد حضورهم (الآيات:٩٣-٩٨).

ولعل كل ذلك يخدم حالة التميز المطلوبة بين المؤمنين، والمغوين الذين يسحرون

الناس، ولا يدعونهم يؤمنون بربهم الكريم.

ولابد أن نحذر عاقبة هؤلاء الذين يندمون عند نزول الموت بهم، ويطلبون العودة إلى الحياة حتى يصححوا مسيرتهم،ويأتيهم الجواب: كلا؛ بل سوف يبقون في البرزخ حتى ينفخ في الصور، وآنذاك لا أنساب بينهم، ولا هم يتساءلون عنها، ولعل الاعتماد على الأنساب عقبة في طريق الإيمان (الآيات: ٩٩-١٠١).

ويحذرنا الرب من الموازين، حيث يخسر الذين خفت موازينهم، بينما يفلح المؤمنون الذين تثقل موازينهم. ويبدو أن ذلك أعظم وسيلة لتربية النفس، حيث يسعى المؤمن للتخلص من النار التي تصيب أولئك الذين كذبوا بآيات الله،واعترفوا بشقائهم،طلبوا العودة إلى الدنيا، فرفض طلبهم وأسكتوا؛ أو ليسوا كانوا يسخرون من عباد الله حين يدعون ربهم، فنسوا ذكر الله (بتلك السخرية)؟! (الآيات: ١٠٢-١١١).

ويبدو أن السياق يعالج -بعدئذ- حالة التسويف في النفس والتي هي الأخرى عقبة في طريق الإيمان.

فإذا بسائل يقول: كم لبثتم في الدنيا؟ فلا يعرفون حساب بقائهم، ولكنهم يعتبرونه يوماً أو بعض يوم،.بلى؛ لقد لبثوا قليلاً في الدنيا (بالقياس إلى زمن الآخرة)، ولكنهم لم يعلموا ذلك وإلا لما استهانوا بحياتهم الأخرة (الآيات: ١١٢-١١٤).

ويعالج العبثية التي يزعم أصحابها أن الحياة بلا هدف، ويذكّرهم بأنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب، وأنه تعالى الرب الملك الحق، فلا عبث ولا لعب ولا لهو في الخلق

ويذكرنا الرب بالتوحيد، وأن حساب المشركين عسير عند ربهم، وأنهم لا يفلحون، وتنتهي السورة بفتح باب التوبة والدعاء، إلى الله وهو أرحم الراحمين، (الآيات: ١١٥-١١٨).

24

سورة النور

* مميزات البيت الإسلامي

كما السور الرفيع يصون بيت الإنسان وشرفه وقيمه، كذلك هو شأن شرائع الرب في المجتمع.

والأسرة كمشكاة، تحفظ ضياء الفطرة ونور الوحي عن عواصف الشهوة، وأدران الهوى.

ونور الله الذي هبط من السماء استقر في بيوت رفعها الرب بذكره.

حول هذا المحور تدور موضوعات سورة النور المباركة، ولكن كيف؟.

نقرأ في (الآية: ١) من السورة إشارة إلى السورة التي فرضها الرب، وأنزل فيها آيات بينات، بهدف تذكر الناس وتلك السورة تصون بآياتها التي تفيض حزماً فطرة البشر، وذلك:

أولاً: بفرض حد الزانية والزاني، وتهديد مبطن بأن المؤمنة والمؤمن لا يمارسان الزنا (الآيات: ٢-٣).

ثانياً: بتحصين البيت من عبث الفاسقين، وفرض حد القذف على من رمى محصناً بالزنا، من دون أن يأتي بأربعة شهداء (الآيات: ٤-٥).

ثالثاً: بتشريع حكم اللعان بين الزوجة والزوج، الذي يرميها بالفاحشة، فعليهما القسم أربعاً، ثم التلاعن في الخامسة (الآيات: ٦-١٠).

ويعالج القرآن مرض الشائعة، التي تدور تاريخياً حول قصة الإفك، بينما تجري في كل إشاعة باطلة (الآيات: ١١-٢٥).

وهكذا يزكي القرآن الأجواء، فلا قذف ولا شائعة (وهي قذف جماعي).

ويشير إلى التطابق الاجتماعي بين الخبيثات والخبيثين كما بين الطيبات والطيبين (الآية: ٢٦).

وبعد أن تزكي الآيات الأولى أجواء المجتمع من لوث الزنا والقذف والإشاعة، ينتقل السياق إلى تقرير (حرمة البيت) و(حرية الإنسان في بيته) فينهى عن دخول البيت إلا بعد الاستيناس والسلام على أهله،والرجوع عنه عند افتقاد الإذن لأنه الأزكى، إلا البيوت العامة وغير المسكونة، (الآيات: ٢٧-٢٩).

كما يوصي في (الآيات: ٣٠-٣١) بضرورة ممارسة التقوى الاجتماعية - الجنسية عمليًّا، إذ يأمر المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج.

وفي إطار صيانة الأسرة يأمر القرآن بتنظيف الطرق والمراكز العامة من سهام إبليس، كما يأمر النساء بذلك، وأيضاً بالحجاب.

وحين يسد الشرع الحنيف أبواب الفساد، يفتح باب النكاح ويشجع عليه، ويأمر بالعفة لمن لا يجد سبيلاً إلى النكاح، ويعالج وضع العبيد والإماء، فيأمر بمكاتبة من علم منه الخير من العبيد، وعدم إكراه الفتيات على البغاء إن أردن تحصناً (الآيات: ٣٢-٣٣).

على أي أساس متين، ترتفع قواعد البيت الطاهر؟ أوليس على الوحي الذي يهبط إليه، وذكر الله الذي يصعد منه؟! بلى؛ ولذلك كانت سورة النور هي سور الأسرة، ومن نور الوحي ضياء البيت، وكانت الأسرة مشكاة، فيها من نور الوحي مصباح تحيط به زجاجة شفافة من أولي الأبصار -الرجال الأتقياء حفظة الأسرة- يتقد شعاعاً من شجرة المعرفة.. وكانت بيوت النبوة التي أذن الله لها أن تُرفع، حصوناً منيعة للوحي على مستوى الأمة، كما البيت حصن القيم على مستوى الأسرة.

والأمة التي لا تكرم بيت النبوة، كما الأسرة التي لا تأبه بالقيم، تتساقط أطرافها

وتغدو قيمها شديدة الظلام.

ونـور المجتمع مـن بيت النبوة، ونـور الأسرة من ضياء القيم، ويـشرق هذا النور وذاك بنور الله (الآيات: ٣٤-٤٠).

وأشرقت السماوات والأرض بنور ربها، ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض، وله الملك، وهو الذي يزجي السحاب، ويبعث بالبرق، ويقلب الليل والنهار، وأنه خلق كل دابة من ماء؟ بلى؛ إنه الرب الذي أنزل آيات مبينات،وهو يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (الآيات: ٤١-٤٦).

وهكذا يحيط السياق عبر (الآيات: ٤٧-٥٤) بالنواحي المعنوية للبيت الرفيع، ثم يعالج موضوع الطاعة التي تعتبر من أهم ركائز التربية، ويقول: لابد من التسليم لحكم الله والرسـول، والرضا بالحـق، كان له أم عليه،وبعد أن ينعـت المؤمنين بفضيلة الطاعة، يلوم البعض ممن يَدَّعونها ويحلفون عليها، ولكنهم حين يجد الجد يخشون.

ويأمرهم بالطاعة لله وللرسول ليهتدوا، ويذكّر بأن الله قد وعد المؤمنين الصالحين أعمالاً باستخلافهم في الأرض،ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسـول، وعدم اليأس من روح الله، وألا يحسبوا الكفار معجزين في الأرض (الآيات: ٥٥-٥٧).

ويعـود القـرآن في (الآيـات: ٥٨-٦١) إلى حرمة البيت، ويأمرنا بالاحتشام أمام الأطفال والخدم، فلا يدخلوا البيت -الذي هو عورة- أوقات الراحة إلا بعد الاستئذان، ويضع عن القواعد من النساء فريضة الحجاب، كما يرفع عن الأعمى والأعرج والمريض الحرج (لعله للتساهل معهم)، كما يرفع الحرج عن الأكل في بيوت الأقارب والأصدقاء، ويأمر بالسلام عند دخول البيوت.

وبعد أن يبين بعض آداب المجتمع، وعدم التسلل إلى البيت عند وجود الاستنفار للحرب أو ما أشبه، إلا بعد إذن القيادة،وينهى عن دعاء الرسول كدعاء بعضهم بعضاً، بعد كل ذلك، يُحذِّر المتسللين لواذاً من فتنة أو عذاب أليم. ويختم القرآن الحديث مذكراً بأن الله محيط علماً بالناس، وأنه ينبئهم بما عملوا (الآيات: ٦٢-٦٤).

25

سورة الفرقان

* القرآن؛ هدية السماء لأهل الأرض

لأن هـذه السـورة تبيّن حقائق عن الوحي، ولأن أهـم ميزة للوحي هو تفريقه بين الحق والباطل، فقد سميت بـ(الفرقان) الذي يشير إلى الآيات المحكمات في القرآن.

والقرآن رسالة، وعظمة الرسالة تأتي أولاً من جانب مرسلها.

و(الآيـات: ١-٦) مـن هذه السـورة التي يبـدو أنها تبين حقائق الوحي وتنسـف العقبـات التـي تعـترض طريـق الإيمان بـه، تذكرنـا بمـن أرسـل الكتـاب، وبالكتاب، وبالرسول الذي أرسل معه:

أولاً: الله هـو الـذي أنـزل الفرقـان، وهو رب السـماوات والأرض الذي أرسـل الكتـاب، إنـه الله الذي تبارك وتعالى، أوليس خيره عميم ثابت لا يفنى ولا يتناقص، وله وحده ملك السماوات والأرض، وهو الذي قدر كل شيء؟.

ثانياً: ومن آمن بالله عرف رسـالاته، أما من اتخذ من دونه شركاء فسوف لا يحظى بالإيمان بالرسـالة، لذلك تراهم يتهمون الرسـالة بالافتراء، ويزعمون أنها أساطير. بينما الـذي يعـرف الله، وأنه العليـم بسر الخلق، يؤمن بالرسـالة التي تكشـف جانباً من ذلك السر.

ثالثاً: قالـوا كيف يبعث الله بشراً رسـولاً، إنه يأكل ويكتسـب معيشـته؟ وقالوا: لماذا لم ينـزل معه ملك، ولم يلق إليه كنز؟ ثم قالوا: إنه رجل مسـحور. وهكذا ضلوا عن السبيل بسبب ضربهم الأمثال للرسول، (الآيات: ٧-٩).

وبعد أن يجيب السـياق عن افتراءاتهم بأن الله قادر على أن يجعل للرسـول ما يملأ عيونهـم من الجنـات والقصور (الآيـة: ١٠)، يبـين في (الآيـات: ١١-١٩) جذر الكفر بالرسالة المتمثل:

أولاً: في تكذيب السـاعة التي ينذرهـم بها حيث تستدعيهم من بعيد بزفير وتغيظ، فإذا أقحموا فيها تنادوا بالهلاك،ويقارنها الذكر بالجنات التي وعد المتقون.

ثانياً: باعتمادهم على شركائهم، حيث يذكرنا الرب بأن الأنداد لا يغنون عنا شـيئاً في ذلك اليوم الذي يقفون فيه أمام المحكمة،يتبرؤون ممن كانوا يعبدونهم.

ثالثاً: إن من أسـباب الكفر بالرسالة نسـيان الذكر بسبب تطاول العمر واستمرار النعم، فكان سبباً لهلاكهم.

ويعود الذكر إلى رد شبهاتهم التي سبقت الواحدة تلو الأخرى:

أولاً: قالوا لماذا يأكل رسولنا الطعام ويمشي في الأسواق؟ فقال الرب: إن المرسلين سـابقاً كانوا أيضاً يأكلون الطعام،ويمشـون في الأسواق، وإن ابتلاء الناس ببعضهـم سنّة الله التي تمضي في الخلق لمعرفة من يصبر، وهو البصير بهم (الآية: ٢٠).

ثانيـاً: قالـوا لماذا لم ينـزل معه ملك نذيـراً؟ يقول ربنـا: إنه الاسـتكبار والعتو. أو لا يعلمـون أنـه لو تنزلت الملائكة، وانكشـف الغطاء فقد لزمهم الجـزاء، ولا بشرى لهم يومئذ، وتنتثر أعمالهم فلا تنفعهم. ويمضي السـياق في بيان أهوال السـاعة التي كذبوا بها لعلهم يتذكرون (الآيات: ٢١-٢٦).

ثالثـاً: من أسـباب الكفر بالوحي خلة السـوء، حيث يعضّ الظـالم -آنئذ- على يديه، وينادي بالويل على نفسه على ما اتخذ من أخلاء سوء أضلوه عن الذكر، (الآيات: ٢٧-٢٩).

رابعـاً: يـأتي الرسـول يـوم القيامة يشـكو إلى ربـه من قومـه الذين اتخـذوا القرآن

مهجوراً، (الآيات: ٣٠-٣١).

خامساً: وقالوا لولا أنزل القرآن جملة واحدة؟ ويجيب السياق بأن الحكمة هي تثبيت الفؤاد، ومقاومة أمثلتهم الباطلة بالحق المبين، (الآيات: ٣٢-٣٤).

ويحدث السياق في (الآيات: ٣٥-٤٠) عن مثل للرسالة الإلهية، حيث بعث الله نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون رسولاً، كما بعث نوحاً عليه السلام إلى قومه، وأرسل إلى عاد وثمود وأصحاب الرس، فماذا كانت عاقبة الذين كذبوا بالرسالة؟ إن مصير القرية التي أمطرت مطر السوء، مَثَلٌ واحد لعاقبة أولئك المكذبين. أفلا يعتبر هؤلاء بهم ويكفون عن تكذيبهم؟!.

سادساً: ويتخذون الرسول هزواً، ولكنهم يعترفون بمدى تأثيره فيهم. والواقع؛ إن الهدى من الله وليس الرسول وكيلاً عنهم، ولا يهديهم الله، إذ أنهم اتخذوا أهواءهم آلهتهم. ويبين القرآن أن الله هو الذي جعل الشمس دليل الظل، وأحيى ميت البلاد، وصرف الأمثال، فهو الهادي والمذكر، ولكن أكثر الناس يكفرون، (الآيات: ٤١-٥٠).

والله سبحانه المالك المقتدر، وقد أمر الرسول بجهاد الكفار جهاداً كبيراً، وبيّن آيات قدرته البالغة، حيث مرج البحرين،وجعل بينهما حاجزاً، وأنه قد خلق من الماء بشراً، (الآيات: ٥١-٥٤).

ولعل الآيات توحي بأن من يكفر بالرسالة سوف يتعرض لمعاداة المؤمنين، ولا ينفعه الأنداد شيئاً، كما أنهم لا يضرونه إذا خالفهم. وفي المقابل لا يطلب الرسول أجراً، ولا يعتمد إلا على الله سبحانه، (الآيات: ٥٥-٦٧).

ويأمر الله الرسول بالتوكل على الحي القيوم، ويذكره بأسمائه الحسنى، فقد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على عرش القدرة، ينشر رحمته على عباده، وهم ينفرون من السجود للرحمن بكفرهم، (الآيات: ٥٨-٦٠).

وفي الآيات الأخيرة وهي: (٦١-٧٦) يذكرنا القرآن باسم ﴿تَبَارَكَ﴾ الذي به جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً منيراً، ثم يضرب مثلاً من واقع عباد الرحمن

الذيـن صاغهم الوحي، فهم يمشـون عـلى الأرض هوناً، وإذا خاطبهـم الجاهلون قالوا سـلاماً، وهـم يبيتـون لربهم سـجداً وقيامـاً، ويحـذرون عـذاب الآخرة،ويقتصدون في الإنفاق، ولا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ويتوبون إلى الله، ولا يشـهدون الزور، ويمرون باللغو كراماً، وتعي أفئدتهم آيات ربهم، ويتطلعون إلى أن يصبح الواحـد منهم إمامـاً للمتقين،فيجزيهم الله الغرفة بما صـبروا، ويلقون فيها تحيةً وسلاماً.

وفي الآيـة الأخيرة يذكرنا السـياق بدور الدعاء، ولعل السـبب يتلخص في أنه رد التحية من قبل العبد لرسالات الرب.

26

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

* حقيقة الصراع بين رسالات الله وثقافة البشر

سميت هذه السورة باسم (الشعراء) لأن السورة تتحدث عن رسالات الله في مواجهة ثقافات البشر.

تدور آيات هذه السورة حول رسالات الله، على نهج سورة الفرقان ولكن بتفصيل أكثر، وضمن بيان الصراع بينها وبين الكيانات الجاهلية ذات الثقافة المنحرفة.

وبعد أن تذكرنا فاتحة السورة بالله تعالى، تبين حرص النبي على هداية الناس، وتؤكد أن الله لا يكرههم على الهدى،وتبين من صفات الرب اسمي (العزة والرحمة) اللذين يتجليان في الطبيعة وفي الصراع.

ويقص علينا السياق أنباء النبيين، وتنتهي كل قصة بذكر هذين الاسمين الكريمين، وتؤكد بأن في تلك القصص آيات،ولكن أغلب الناس لا يؤمنون.

وتنتهي السورة بأمر الرسول بالتوكل على العزيز الرحيم.

في قصة النبي موسى عليه السلام يأمر الله موسى بحمل رسالته إلى فرعون، ويبين موسى عقبات الطريق، والله ينفيها بـ(كلاً)، ويعده بالنصر، ويحاور النبي موسى فرعون

برسالة الله، ويجادل فرعون بما يملك من قوة.

ويبدو أن لكل رسالة محتوى اجتماعي، هدفه إصلاح نوع الفساد المنتشر في المجتمع، فقد حارب النبي موسى عليه السلام العنصرية والاستكبار، والنبي إبراهيم عليه السلام الوثنية والرجعية، والنبي نوح عليه السلام الطبقية والعناد، والنبي هود عليه السلام العبثية والتجبر، والنبي صالح عليه السلام الإسراف والفساد، والنبي لوط عليه السلام الشذوذ والإباحية، والنبي شعيب عليه السلام الغش والتطفيف. ولعل هذه المفاسد متدرجة في خطورتها حسب هذا الترتيب الذي نجده في سورة الشعراء.

ويجري الحوار بين النبي وقومه، ويعاندونه، ويهددونه، وفي لحظة الحسم ينصر الله النبي والمؤمنين، ويأخذ الكافرين بعذاب شديد، ولعل العذاب يتناسب ونوع الفساد.

ويبدأ النبي بالتذكرة بالله، والأمر بتقواه وطاعته، وينذرهم عذاب ربهم.

ويؤكد الأنبياء عليهم السلام على أنهم لا يطالبونهم بأجر، وإنما أجرهم على الله، وبالتالي لا يدعون للناس مجالاً للشك في صدق رسالاتهم. و بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك شواهد على صدق رسالات الله، فهي تدعو إلى الله، وتتعالى على حواجز الدم والأرض والزمن، وهي تتحدى بقوة الله كل القوى مما يستحيل على البشر، وتحارب الفساد الأكبر في المجتمع.

ويد الغيب تمتد لنصرتهم في الوقت المناسب بإهلاك أعدائهم، هذا بالإضافة إلى قوة الحجة، وسلامة السلوك، والمعاجز الظاهرة؛ كالعصى، والناقة، وخمود النيران، وانفلاق البحر، والطوفان.

إن الصراع الدائر بين رسالة الله وثقافة الأرض، صراع ممتد عبر الزمن، لأن رسالات الله تهدف تغيير كل القيم الجاهلية، وإقامة كيان ثقافي جديد.

فحينما يدعو الأنبياء عليهم السلام شعوبهم إلى التسليم والإيمان بالله، فإنهم يدعونهم في ذات الوقت إلى التسليم لكل القيم الإلهية التي تحمل التحضر والتمدن لأولئك الناس الذين سلموا لخرافات الماضي، وفساد الواقع.

وبالرغم من أن الرسل عليهم السلام قد تحملوا الصعوبات في سبيل تبليغ رسالاتهم، إلا أنهم استطاعوا أن يغيروا أفكار البشرية، حتى أن الأفكار الصحيحة التي نجدها في الأقوام الجاهلية لابد أن يكون الدين الإلهي مصدرها، لأن الرسل كانوا بحق المحرك الأساسي للتاريخ البشري، وإلا فإن البشرية كانت تسير بشكل طبيعي نحو النهاية.

ومن هنا؛ كان لزاماً علينا أن نقف ويقف معنا التاريخ كله إجلالاً لذلك الفكر الذي يصيغ أجيالاً مؤمنة، وأن نقف إجلالاً أمام صبر الرسل وتضحياتهم.

وفي سياق تبيان الصراع بين رسالات الله وثقافة الشعراء، يضرب لنا الرب مثلاً من قصة النبي إبراهيم عليه السلام وقومه،وكيف أوحى الله إليه بمقاومة الفساد العريض الذي تردّوا فيه، فعبدوا الأصنام؛ وحين سألهم إبراهيم عليه السلام عن ذلك، لم يحروا جواباً، وأصروا على التمسك بدين آبائهم الجهلة، فأعلن البراءة منهم..

ويؤكد النص القرآني الخاص بهذه السورة الشريفة أن محتوى رسالات الله واحد، وإنما اختلف ظاهره بحسب اختلاف الظروف، لأن كل رسالة استهدفت إصلاح الفساد المستشري في المجتمع الذي أنزلت فيه، وكذب كل قوم رسولهم، فانتصر الله للرسول وللمؤمنين، وأهلك الكافرين بعذاب شديد.

أما الدرس المهم الآخر الذي تعكسه آيات السورة؛ فهو أنها تحدد معالم الرسالة الإلهية وخصائصها المميزة، وتحصر في خمس نقاط، هي:

١- أنها لا تختص بقوم أو أرض أو زمن.
٢- وأنها رسالة حق تعكس حقائق الحياة المادية والمعنوية، وتمتد من الدنيا إلى الآخرة.
٣- وأنها تهدف الإصلاح الجذري الذي ينتهي إلى اقتلاع الفساد والانحراف كلية.
٤- وأنها تخاطب الناس بلغتهم، بالضد للغة الشعراء الغامضة المعقدة. فالرسالة لغة الواقع لكشف الحقائق، كما هي للناس.
٥- وأن خطها ممتد عبر العصور من آدم عليه السلام إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله ويشهد بها ولها العلماء المنصفون.

وفي خاتمة السورة يبين ربنا أن القرآن أنزله رب العالمين، نزل به الروح الأمين، وبلغة عربية مبينة، وقد شهد على صدقه علماء بني إسرائيل.

وبعد أن بين الفروق الأساسية بين وحي الحق، وأفكار الشيطان، أمر الله تعالى الرسول بإنذار عشيرته، والعطف على المؤمنين، والبراءة من العصاة، والتوكل على العزيز الرحيم. بعدئذٍ يبين القرآن ميزات وحي الشيطان الذي يتنزل على كل أفاك أثيم، وأن الشعراء (أدعياء العلم والدين) إنما يتبعهم الغاوون، وينعتهم بالاسترسال و اللامسؤولية. وتختم السورة ببيان الفوارق الكبيرة بين رسالات الرب، وبين ما يوحيه الشيطان.. وتبين أن محور رسالات الله هو التوحيد، كما يمضي السياق قدماً في شرح صفات الرسول النابعة من هذا المحور. فهو رسول نذير لأقرب الناس إليه وهم عشيرته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، ويعلن براءته من العصاة؛ متوكلاً على العزيز الرحيم.

ومن جانب آخر، يهبط الشيطان على كل كذاب فاجر..

وحقاً إن المراد من الشعراء في هذه السورة ليس خصوص من أنشد شعراً، إنما يشمل كل من اتبع خياله وترك وحي الله؛ كفلاسفة اليونان، والعرفاء المتأثرون بهم، والمتصوفة، وطائفة من المتكلمين، وبعض المتفقهين من علماء السوء، وأنصاف المثقفين الذين يتبعون أهواءهم وأهواء من يدفع إليهم ويرشوهم ويشتري أقلامهم، ليغيروا دين الله ويخالفوا أمره.

بلى؛ هناك فئة من (الشعراء) مؤمنة صالحة، تذكر الله كثيراً، لئلا يخدعها الشيطان، وإذا ظلم الجبارون أفراد هذه الفئة لقولهم الحق، فهم ينتصرون، وإن عاقبة الظلم هي الخيبة والبوار، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

27

سورة النمل

* من معطيات العدل الإلهي

ذكر (النمل) في قصة سليمان عليه السلام فجاءت السورة بهذا الاسم. أوليس طريفا أن يقارن أكبر ملك آتاه الله لواحد من عباده باسم النمل؟!. بلى؛ إن مملكة العدل الإلهي لا بد أن تكون بحيث يشعر النمل بالأمان في ظلها. إن هذا ما تبشر به رسالات الله، ولعله لذلك سميت هذه السورة باسم (النمل).

لا تخرج موضوعات هذه السورة عن الإطار العام للطواسين الثلاث (الشعراء والقصص بالإضافة إلى سورةالنمل) وهو بيان خصائص الوحي مع التركيز على بيان الأمثلة من تاريخ رسالات الله الأولى، وكأنها جميعاًتفصيلات لما ذُكّر به القرآن في سورة الفرقان.

تطلع علينا فاتحة السورة بذكر القرآن الذي جعله الله هدىً وبشرى للمؤمنين، أما الذين يكفرون بالآخرة فإن الله زين لهم أعمالهم و سلبهم بصائرهم، ولهم سوء العذاب (الآيات: ١-٥).

وأن الرسول يلقى القرآن من لدن حكيم عليم (الآية: ٦).

ويبدو أن هذين الاسمين الإلهيين يتجليان في آيات هذه السورة كما تجلى اسما

(العزيز الرحيم) في السورة السابقة (الشعراء).

و تلقي الآيات حزمة ضوء على قصة النبي موسى عليه السلام؛ كيف تلقى الوحي، حين آنس ناراً، فباركها الله ومن حولها،وناداه: إنه أنا الله العزيز الحكيم، وأعطاه معجزة العصى واليد البيضاء في تسع آيات، وأمره بإبلاغ فرعون رسالات ربه.

فلما جحدوا بها -بعد أن استيقنتها أنفسهم- نبذهم في اليم (الآيات: ٧-١٤).

وبعدئذ يفصل القول في قصة النبي سليمان عليه السلام، ويبدو أن هناك تقابلين فيها:

أولاً: بين فرعون، وهو أعظم ملك كافر، والنبي سليمان عليه السلام، وهو أكبر ملك عادل.

ثانياً: بين بلقيس؛ الملكة العربية التي آمنت، وثمود؛ القرى العربية التي كفرت فدمرها الله شر تدمير.

ونقرأ في قصة النبي سليمان عليه السلام عن تسخير الجن والطير، وعن مملكة النمل التي شملها عدل سليمان عليه السلام، وعن استخدام الهدهد والريح وسيلتين حضاريتين، وأيضاً الانتفاع بالاسم الأعظم في نقل عرش بلقيس لتكتمل صورة مملكة الحق في الأرض.

أما في قصة بلقيس؛ فنقرأ استشارتها قومها، واتخاذها القرار الحكيم، إلا أن حكمتها لم تجدها نفعاً حين كفرت بالله العظيم، وسجدت للشمس من دونه، ولكنها بالتالي آمنت مع النبي سليمان بالله رب العالمين (الآيات: ١٥-٤٤).

أما في قصة ثمود؛ فنقرأ قصة الصراع بين المستضعفين والمستكبرين، وكيف أن الكفار تطيروا بالنبي صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وكيف فسد ثمة النظام القبائلي، وبدل أن يكونوا حماة الضعفاء تآمروا على نبيهم، ومكروا ومكر الله،ودمرهم أجمعين (الآيات: ٤٥-٥٣).

ويختم السياق قصص المرسلين بقصة قوم النبي لوط، الذين نهاهم نبيهم عن شذوذهم الجنسي، فلما أرادوا أن يخرجوه ومن معه أمطر الله عليهم مطر السوء (الآيات: ٥٤-٥٨).

ويبدو أن السورة تضرب لنا في القسم الأول (الآيات: ١-٥٨) أمثلة عن النظم الاجتماعية الفاسدة التي لابد أن تنزع عن فسادها (كما فعلت بلقيس) وإلا دمرت شر تدمير، ويقارنها بمثال رائع من النظام الإلهي في الأرض لابد أن تتطلع إليه البشرية متمثلاً في قصة النبي سليمان عليه السلام.

وأما في القسم الثاني؛ فإن الآيات تذكرنا بالقرآن بعد أن تهدينا إلى آيات ربنا في الخلق والتي تدل على أن الله واحد لاشريك له، لا في أصل الخلق ولا في تقديره وتدبيره (الآيات: ٥٩-٦٠).

الله هو الذي خلق السماوات والأرض وأجرى فيهما أنظمة لحياة البشر، وهو الذي يلجأ إليه المضطر فيجيبه ويكشف عنه السوء، ويهدي الناس في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته (الآيات: ٦١-٦٤).

ثم يذكر بأنه عالم الغيب لا يعلمه إلا هو، وأنه مالك يوم الدين حيث يقف دونه علم الآخرين (الآيات: ٦٥-٦٦).

ويمضي السياق قدماً في التذكرة بالآخرة، ويأمر الذين كفروا بأن يسيروا في الأرض ليعتبروا بمصير المجرمين، ولا يستعجلوا العذاب فعسى أن يكون قريباً منهم (الآيات: ٦٧-٧٤).

أما القرآن وخصائصه فهي التالية:

أولاً: يحتوي على علم ما يغيب عن الناس.

ثانياً: يحل الخلافات التي لا زالت عند أصحاب الكتب السابقة.

ثالثاً: إنه هدىً ورحمة للمؤمنين.

رابعاً: يقضي بين الناس بالحق (الآيات: ٧٥-٧٨).

ويأمر الله رسوله بالتوكل عليه، وألا يأبه بأولئك الجاحدين الذين يشبههم بالموتى والصم المدبرين، ويوجهه إلى المؤمنين الذين هم لربهم مسلمون (الآيات: ٧٩-٨١).

ويحذر من حلول العقاب في يوم يخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم (الآية: ٨٢).

وحين يحشر بعض المجرمين ويُسألون: لماذا كذبتم بآيات الله؟ فيقع عليهم القول بما ظلموا (الآيات: ٨٣-٨٥).

ثم يُذَكِّر القرآن بالله تعالى وبآياته، وكيف جعل الليل سكناً والنهار معاشاً، ولكنه سوف يفزعهم بنفخة الصور، ولا ينجو من ذلك الفزع العظيم إلا المحسنون، أما من جاء بالسيئة فهو يساق إلى النار على وجهه.(الآيات: ٨٦-٩٠).

وفي نهاية السورة يوجه الخطاب إلى الرسول باعتباره حامل رسالات الله، وأنه يعبد الله وحده، ويتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، أما الضالون فإن الرسول لم يكلف إلا بإنذارهم.(الآيات: ٩١-٩٢)

وتختم السورة بحمد الله، وبإنذار مبطن لأولئك الجاحدين بأن آيات الله الخارقة ستأتيهم بحيث يعرفونها، وأن الله ليس بغافل عما يعملون.(الآية: ٩٣).

28

سُورَةُ القَصَص

* قصص القرآن: بصائر العلم وهدى الحقائق

جاءت كلمة (القصص) اسماً لهذه السورة التي احتوت على مجموعة متناثرة من القصص القصيرة ذات العبرة المشتركة.

القرآن ظاهره حكم وباطنه علم، هكذا وصفت الروايات كتاب ربنا العزيز، وإنك إذا نظرت إلى ظاهر سورة القصص استفدت الكثير من الأحكام، ولكنها في باطنها بصائر علمية تهدينا إلى مجموعة متكاملة من الحقائق، أبرزها؛ أن ظاهر الدنيا غير واقعها، فهي تغر بزبرجها، وتضر بمخبرها، تبدو لناظرها أن الناس قادرون عليها، إلا أن يد الغيب هي التي تحرك حوادثها بالنهاية. فعلينا -إذن- عدم الاطمئنان إليها، وعلى أصحاب الدعوة ألا يخافوا من أولي القوة والثروة من أهلها.

ولكي يهدينا السياق إلى هذه الحقيقة، يفصل القول في مسائل شتى تلتقي بالتالي وتلك الحقيقة:

ألف: يبين السياق بتفصيل كيف تمتد يد الغيب لنصرة أصحاب الرسالة، وكيف تُجري الألطاف الخفية لربنا المقتدر،الحوادثَ لتنتهي إلى الغاية المقدرة.

فرعـون علا في الأرض، واسـتضعف طائفة من الناس. هذا ظاهـر الحياة الدنيا، أما حقيقتها؛ فهي إرادة الله على وراثة المستضعفين، و التمكين لهم في الأرض، وأن يذيق فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون منهم، وبأيدي المستضعفين أنفسهم (الآيات: ١-٦).

لننظر كيف تتحقق هذه الإرادة العليا؟.

فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل الذكور، ولكن الله يأمر أم موسـى بوضع وليدها في التابوت، وقذفه في النيل (الآية: ٧).

يلتقـط زبانية فرعون التابوت فيهمّ بقتلـه، ولكن يد الغيب لا تدعه، إذ يوحي إلى زوجته أن تمنعه من ذلك، لينمو عدوه ومادة حزنه في بيته.(الآيات: ٨-٩).

أم موسـى تـكاد تبـوح بالـسر جزعـاً عـلى وليدهـا، والله يربـط عـلى قلبهـا (الآيات:١٠-١١).

ثـم يبحثـون له عن مرضعـة من غير بني إسرائيـل، بيد أن الله يحـرم عليه المراضع حتى يرده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن (الآيات: ١٢-١٣).

ولما صار موسـى بالغـاً من الناحية الشرعيـة، وذلك بتكاملـه العضوي، وتكامل عقله آتاه الله النبوة، ولكن لم تكن النبوة بسـبب قرابة بين الله وبين موسـى، بل كان جزاءً لعمله وإحسانه (الآية: ١٤).

ثم يسـتعرض القرآن لقطة من الصراع بين الرسـاليين وأعدائهم وموقف موسـى المناصر للمسـتضعف الذي كان رسـاليًا من شـيعته، وبعد الانتصار على عدوه يسـتغفر موسـى ربـه لكي لا يُصـاب بغرور النصر، ثـم يعاهد الله أن لا يسـتخدم القـوة والعلم والحكمـة التـي وهبها الله له إلا من أجل الخير، وفي سـبيل الله، والدفـاع عن الحق، وقد تجسَّـد هذا الأمر في اليوم التالي حيث اسـتنصره الإسرائيلي على شخص آخر، إلا أنه تبين أنـه لم يكـن محقـاً هذه المـرة، بـل أذاع سر تواجد موسـى في المدينة مما أثار انتباه سـلطات فرعون (الآيات: ١٥-١٩).

وعلى إثر ذلك يتآمر فرعون وملأه بقتله، فيبعث الله إليه رجلاً مؤمناً ليخبره بذلك،

ويهيء له الرب أمر الهجرة إلى مدين، ويقدر هناك من يستقبله (الآيات: ٢٠-٢٨).

هكذا يعلم حملة رسالات الرب أن الله معهم، وأن هناك حوادث خفية تجري رغم الطغاة لمصلحة الرساليين، فلا يهنوا ولا يحزنوا.

بـاء: ولا تعنـي الألطاف الخفيـة لربنا أن ينام الرسـاليون على حريـر الأماني، بل عليهم توخّي الحذر دوماً، وأن يتعالوا على الطغاة بذكاء أحدّ، وانضباط أشدّ، وتضحيات سخية. كيف؟.

يتلو علينا الرب في سـورة القصص -التي نستلهم منها دروساً عظيمة في أساليب الحركـة الرسـالية- قصـة زوج فرعـون، ومؤمـن آل فرعـون، اللذين كانـا في الظاهر في السـلطة، ويعملون في الباطن لصالح الرسالة، كما يبين كيف كانت الحركة حذرة، حيث أن أخت موسـى تابعت بحذر شـديد تابوت أخيها، (ولعلها لصغر سنها أو لأنها امرأة بكر، لم تكن تثير انتباه أحد).

أمـا النبي موسـى عليه السلام فقد دخـل المدينة على حين غفلة من أهلهـا عملاً بالتقاة، وأذاع غوي من بني إسرائيل السر، وورط الحركة كلها، مما يحذرنا عن مثل ذلك، ثم يبين القرآن كيف كان النبي موسى عليه السلام مترقباً حين خروجه من المدينة، وكيف اختار مدين في خطة مرنة، لأنه كان يدعو الله أبداً ليهديه سواء السبيل.

ونقرأ في موضـع آخر من السورة (الآية: ٥٤) ثناء القرآن على أهل الصبر والتقية، وهـم البقية المؤمنة من أهل الكتاب، الذين اتسموا بصفات الصبر، ودرء السيئة بالحسنة، والإنفاق، والإعراض عن لغو الجاهلين وجدلياتهم. وهذه الصفات هي برامج أصحاب الرسالة في عصر التقية والعمل السري.

وفي سياق سورة القصص نقرأ عن أخلاقيات المهاجر في سبيل الله، وفي طليعتها؛ الإحسـان إلى النـاس، والاحتفـاظ بقيـم الرسـالة بالرغم من مشـاكل الهجـرة، ووفاؤه بالحقـوق (لقـد قـضى النبي موسـى عليه السلام أبعـد الأجلين) وتجـذره في بـلاد الهجرة عبر الزواج.

جيم: وسـورة القصص تركز -فيما يبدو- على دور شخصية القائد وصفاته، فبعد بيـان إرادة الله بإنقـاذ المستضعفين، نقرأ مبـاشرة قصة ولادة النبي موسـى عليه السلام ثم إن موسـى عليه السلام تتجلى شـخصيته في صورة قائد مغيب، ثم يحضر فجـأة في ميدان الصراع لينصر واحداً من شيعته، ثم تلاحقه أجهزة النظام فيها، وتبقى صفة الإحسان أبرز صفاته قبل ابتعاثه رسـولاً، ويؤكد السـياق أنها وراء اصطفائه بالعلـم والحكم (وكذلك نجزي المحسـنين)، ونجد ذلك عندما يتجاوز ذاته، وكل علاقته بالدنيا عندما يتلقى الوحي في الجانب الغربي عند الشجرة.

دال: وفي الجهة المعاكسـة تبرز شـخصيّة إمام الكفر (فرعون)، ورمز المال الطاغي (قارون)، ومثال البيوقراطية الفاسدة (هامان) (الآيات: ٢٩-٤٢).

هــاء: وتذكـر السـورة بتواصل الوحـي من النبـي موسـى عليه السلام إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بهدف التذكرة، خصوصاً لقوم ما أنذروا من قبل،الرسـالة هذه التي تشـابه رسالة موسـى عليه السلام حدث غيبي ينذر بها الرب القوم الضالين بين يدي عذاب شـديد، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، لأنهم يطالبون دائماً بآيات جديدة، فيقولون مثلاً: لماذا لا يأتي النبي بآيـة شـبيهة بما ظهرت عـلى يد النبي موسـى عليه السلام، مع أنهم كفروا بما أنزل على موسـى عليه السلام (الآيات: ٤٣-٥٠).

وبعد أن يبين السـياق صفات المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، الذين يسارعون إلى الإيمان بالنبي (الآيات: ٥١-٥٦)، يبين شبهة أخرى يتشبث بها الجاحدون، إذ يقولون: نخشى أن نفقد -لو آمنا- السلام الذي ننعم به في الحرم (الآيات: ٥٧) ويردها الرب:

أولاً: إن الله هو الذي وفر هذا الأمن لهم.

ثانيـاً: إن البطـر (الفرح بالأمن والغرور به) قد أهلك قروناً سـالفة، ولكن الله لم يهلكهم حتى بعث إليهم رسولاً، يتلو عليهم آياته.

ثالثـاً: إن متـاع الدنيـا في الآخرة قليل، وليسـوا سـواءً مـع من متعـه الله بالدنيا، وأحضره للحسـاب والعقاب يوم القيامة،ومن وعده الله وعداً حسـناً فهو لاقيه (الآيات: ٥٨-٦١).

واو: في خواتيم سـورة القصص يحذرنا الرب من الشرك به -أنداداً- أولي سـلطة كانوا أو ذوي ثروة، ففي يوم الحساب يحضرهم جميعاً أئمة الغي ومن اتبعوهم (وأشركوا بـالله بطاعتهم) فيتـبرؤون من بعضهم،وتعمـي عليهم الأنباء، ولا يتسـاءلون (الآيات: ٦٢-٦٦) ويذكرنـا الـرب بأن من يختار لنـا القيادة هو الرب،تعـالى الرب عما يشركون. وبعد أن يذكرنا ربنا بهيمنته على الخليقة، وأنه لو أعدم ضياء النهار، أو اسكن الليل فماذا كنا نعمل؟! (الآيات: ٦٧-٧٣).

بعـد ذلك يعود السـياق إلى موضوع الشرك، ولكن هـذه المرة يعالج الشرك بقصة أصحـاب الثـروة، ابتداءً من قصة قارون الذي كان من قوم موسـى عليه السلام فبغى عليهم، وانتهـى بـه المطاف إلى الهلاك، فخسـف الله به وبداره الأرض، وما قـدر أحد على نصره (الآيات: ٧٤-٧٦).

وفي (الآيات: ٧٧-٨٨) يحدد الله الموقف السليم من السلطة والثروة، وهو موقف التسـامي عليها،ذلك لأن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسـاداً، والعاقبة للمتقين.

ويرغبنا الذكر الحكيم في فعل الخيرات، لأن من جاء بالحسنة فله خير منها، بينما لا يُجزى الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون.

ويبـشر رسـوله بالعـودة إلى معـاده، ويبين أن الكتـاب رحمة من الـرب، وعليه أن يجاهد به الكفار، ويواجه ضغوطهم.

29

سُورَةُ العَنكَبُوت

* صرح الكفر وبيت العنكبوت

العنكبوت؛ حشرة حقيرة، إلا أن نسجها يُرى في كل مكان، وهي تعتمد عليه كأنه فعلاً بيت معمور، إلا أن هَبَّة نسيم كفيلة باقتلاعه.. هكذا يضرب ربنا مثلاً للعلاقات الشركية، ويسمي به سورة تحدثنا عن حقيقة الدنيا، وعلاقات أبنائهابعضهم، وفتنتها للمؤمنين.

ما هي الدنيا؟ وما هي حقيقتها؟ وما هي علاقات أبنائها ببعضهم؟ وما هو مصيرها؟ وما هي مسؤوليتنا فيها؟.

إن عشرات من الأسئلة ترتسم يومياً في أذهاننا ونحن نصارع ظواهر الدنيا، ونجد في الذكر الحكيم بصائر جلية تهدينا ليس فقط إلى الحقائق وإنما ترفع الستائر الغليظة التي لا تدعنا نرى الدنيا على حقيقتها، ولعلنا نجد منظومة متكاملة لهذه البصائر هنا في سورة العنكبوت.

ويبدو أن الهدف الأسمى من هذه البصائر التي تجلو بها الأفئدة الزاكية، بناء المؤمن الصابر الذي يتحدى كالجبل الأشم عواصف الفتن.

لقد شاهدنا عبر الطواسين التي سبقت سورة العنكبوت، كيف جاهد رسل الله

الأمم الفاسدة، وكيف ينبغي أن يسير على هداهم الصالحون الذين يجاهدون الفساد، ويصبرون على الأذى، وينتظرون نصر ربهم، وهو كما يبدو موضوع هذه السورة.

من أجل تحقيق هذا الهدف التربوي المتسامي لابد أن يعرف المجاهد حقيقة الدنيا، وحكمة فتنها، وضرورتها، وأن الذين يرتكبون السيئات لا يسبقون ربهم، ويعرف أن مدة الفتنة محدودة إلى أجل مسمى، حين يلقى المجاهد ربه ليوفيه جزاءه (الآيات: ١-٧).

أما الضغوط؛ فتأتي من الوالدين اللذين قد يجاهداه على الشرك، وقد تأتي من المجتمع الفاسد الذي يريد أن يفتنه، وقدتأتي من السلطة الفاسدة التي مهما كانت فتنتها شديدة فإنها أخف من عذاب الله. (الآيات: ٨-١٣).

ويعود القرآن يذكرنا بقصص نوح وإبراهيم ولوط وسائر الأنبياء العظام عليهم السلام وكيف جاهدوا رفض الفاسدين من أممهم، وأن الله أهلك أولئك الفاسدين، ونصر عباده المخلصين. كل ذلك يذكرنا به الرب لعلنا نتخذه قدوة، ونعرف أن سنن الصراع كانت جارية عند المقربين إلى الله سبحانه، وهم الذين اختارهم الله على علم، فكيف بنا ولمّا يعلم المجاهدون منا والصابرون.

وعبر قصة النبي إبراهيم عليه السلام والحوار الذي جرى بينه وبين قومه المشركين يذكرنا الرب بزيف الأوثان، وأنها تعبيرعن العلاقات الاجتماعية الباطلة التي يتجلى زيفها في الآخرة، حيث أن الكفار الذين اتخذوا الأوثان محور تجمعهم يلعن بعضهم بعضاً. (الآيات: ١٤-٣٥).

ويبدو أن (الآيات: ٣٦-٤٠) التي اختصرت قصص العديد من الرسل الكرام، وأوجزت القول في مصير المكذبين بهم، تبين السنن الإلهية التي جرت فيهم جميعاً -سنة الإنذار، سنة الرفض، سنة العذاب المدمر- لعلنا نعرف حقائق كبرى من خلال تلك القصص، وبالذات فيما يتصل بالجهاد في سبيل الله.

وبعدها مباشرة؛ نقرأ الآية التي سميت السورة بها، ولعلها تبين أهم بصائر السورة أو تختصر بصائرها جميعاً، وهي أن العلاقات الشركية تشبه في زيفها، وثقة أصحابها بها، واعتمادهم عليها العنكبوت التي اتخذت بيتاً، وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت. (الآية: ٤١).

مـا أكرم هذه الآية، وما أعظم البصائر التي فيها، وما أحوجنا إليها ونحن نصارع المستكبرين والمترفين؟.

إنهـا تبين واقع هؤلاء المشركين، وأنه أوهـن البيوت، وأن عاصفة الرفض تقتلعها بإذن الله.

لمـاذا هـم كذلك؟ لأن بناء الخلق قائم على أسـاس الحق، أما بناؤهم فهو متشبث بنسج العنكبوت الباطل، ومن خلال هذه البصيرة يعرفنا الذكر بحقيقة الدنيا، والتي لو عرفناها هانت علينا مصيباتها، واحتقرنا زينتها، واتقينا مكرها، وانقشعت عن بصائرنا غشاوة غرورها.(الآيات: ٤٢-٤٤).

فما هو البرنامج الذي يجعلنا نعرف حقيقة الدنيا، ونتحدى الفتن التي تتوالى علينا؟ إنه يتلخص في تلاوة الكتاب، وإقامة الصلاة، وذكر الله.(الآية: ٤٥).

ويتعـرض السـياق لبيان الموقف من أهل الكتاب، ولعلـه يهدف تكميل الصورة، حيث أن الموقف من المفسـدين أضحى واضحاً من خلال قصص الرسل، وبقي الموقف من أتباع الرسـل، ولأن تكريم الرسـل يقتضي تكريم أتباعهم، ولأن جوالسورة هو جو الجهـاد، والجهـاد مع الظلم والكفر بحاجـة إلى وحدة الصف، فإنه كان مناسـباً الحديث عن أهل الكتاب،وأنه ينبغي جدالهم بالتي هي أحسن، وبيان أسس الوحدة التي تجمعنا وإياهـم، وإنما القسـوة تكون مع الظالمين منهـم (كما تكون مع الظالمين منا)، (الآية: ٤٦).

ويبين السـياق مصداق الجدال بالتي هي أحسـن؛ أي شواهد صدق الرسالة التي تقنـع المنصفين من أهل الكتاب، أما الكافرون فإنهم يجحدونها (من واقع كفرهم). فهذا النبـي لم يكتـب ولم يقـرأ من قبـل، وقد جاء بآيات تتبـين في صدور العلـماء فيصدقونها، بيـد أن الظالمـين يجحدون بها (من واقـع ظلمهم) وهـم يطالبون بالمزيـد من الآيات، ولا يعلمون أن أمر الآيات بيد الله لا الرسـول. وهـذا الكتاب العظيم أليس فيه آيات كافية، والله أعظم شهيد على صدق رسالاته بما يهدي القلوب الصادقة إليها وبنصره وتأييده لها. (الآيات: ٤٧-٥٢).

ويجـادل الذكـر الذيـن يسـتعجلون بالعذاب، ويقول: إنه سـوف يؤخـر إلى أجل

مسمىً، ولكن يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، حيث تغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم.(الآيات: ٥٣-٥٥).

وهكذا يثبت الله الذين آمنوا، ويعلمهم كيف يجادلون عن الرسالة، ولكن ماذا عن الضغوط التي يتعرضون لها؟ يقول ربنا: إن الهجرة إلى أرض الله الواسعة، ومعرفة أن الموت قدر لكل نفس، وأن العاقبة هي الأهم، حيث يبوّئ الله الصالحين جناتٍ جزاء أعمالهم، وأن علينا الصبر على البلاء والتوكل على الله عند الشدائد حتى نستحق تلك الجنات. وأن الأرزاق بيد الله، فلا يخشى المجاهد قطع رزقه بسبب الهجرة، أو لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. ويفصل الذكر الحديث في ذلك، ويبين أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه هو الذي ينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعدموتها، (الآيات: ٥٦-٦٣).

ولكي تطمئن نفوس المجاهدين يبين القرآن حقيقة الدنيا، وأنها لهو ولعب، وإنما الحياة حقاً في الدار الآخرة، وأن علاقات المشركين باطلة، والدليل أنها لا تنفعهم عند الشدة، فحين تحيط بهم أمواج البحر وتكاد تبتلعهم، يدعون الله مخلصين له الدين، ثم يشركون بعدئذ بالله كفراً بنعمته، ومزيداً من التمتع بملذات الدنيا الزائلة التي سوف يعلمون مدى خسارتهم بها.(الآيات: ٦٤-٦٦).

ثم يبين الله أنهم يؤمنون بالباطل، ويكفرون بنعمته عليهم -والرسالة أعظم نعمة- ألا تراهم لا يعتبرون بهذا الحكم الإلهي الذي يؤمّن لهم السلام في مكة، بينما يُتَخطف الناس من حولهم.(الآية: ٦٧).

وبعد أن يبين مدى الظلم الذي يقترفه الذين يفترون على الله كذباً بحق أنفسهم والناس، يبشر المجاهدين بأنه سيهديهم سبله التي تقربهم إليه، وتساعدهم للتمكن في الأرض، وأن الله لمع المحسنين (الآيات: ٦٨-٦٩).

30

سورة الروم

* قدرة الله، ومسؤولية الإنسان، والإيمان بالآخرة

استوحي اسم السورة من واقعة تاريخية هامة جرت بين الروم الذين كانوا على هدى المسيح بن مريم عليه السلام ظاهراً،وبين الفرس، في عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

تدور آيات هذه السورة حول عدة محاور، أبرزها:

ألف: تبصير الإنسان بهيمنة الرب على السماوات والأرض، وأن هناك تقديراً ظاهراً، وقضاءً خفياً، ويضرب القرآن مثلاً من هذه الحقيقة بغلبة الفرس على الروم في أدنى الأرض، كيف أنها جرت ضمن تقديرات الخليقة، إلاّ أنه ينبئنا بقضاء الله الذي لا يرد، وبنصر الله، وهذا وعد إلهي لا يخلف، بيد أن أكثر الناس لا يعلمون سوى الظاهر من الحياة الدنيا (الآيات: ١-٧).

وأعظم ما يجهله أغلب الناس من الحياة، أن الله خلقها بالحق وأجل مسمى، ولذلك ترى الظالمين قد دُمِّروا حين خالفوا الحق،لكن عندما حان أجلهم، بالرغم من شدة قوتهم وعظيم عمرانهم (الآيات : ٨-١١).

باء: ويتصل هذا المحور بالمحور الثاني، ألا وهو مسؤولية الإنسان عن أفعاله دون أن يقدر الشركاء المزعومون على نجاته من جزاء السيئات.

ويطول الحديث حول هذا المحور (الآيات: ١٢-١٦) و(الآيات: ٢٨-٤٥)، حيث يبين القرآن أن المجرمين يبلسون عند قيام الساعة، وأن الناس يومئذ يتفرقون بين صالحين يجزون وكافرين يحضرون في العذاب.

ويحتج الذكر وجدانياً لوحدانية الرب وضرورة إخلاص الدين له وتطهيره من دنس الشرك، ويحذر من الشرك في السياسة باتباع القادة الذين لم يأمر الله باتباعهم، ومن الشرك في الاجتماع بالتحزب، والتوسل بغير الله، ومن الشرك في الاقتصاد بالاستئثار بالثروة وعدم إنفاقها في سبيل الله، وكذلك بالربا الذي لا يربو عندالله (الآيات: ٢٩-٣٩).

ويبين القرآن أن ما يظهر من الفساد في البر والبحر إنما هو بما كسبت أيدي الناس، وأن الحكمة منه تحسيس الناس بنتائج بعض أعمالهم السيئة، لعلهم يرجعون عن غيهم (الآيات: ٤٠-٤١).

وهذا دليل واضح على المسؤولية، وهناك دليل آخر يتمثل في عاقبة المشركين من قبل الذين يأمر الله بالسير في الأرض للنظر في نهايتهم (الآية: ٤٢).

جيم: ولكي يعي البشر مسؤوليته أكثر فأكثر، لابد أن يؤمن بالساعة حين يبعث للجزاء. وهذا هو المحور الثالث والأهم في السورة. ولكن كيف يؤمن البشر بالبعث، وهوى نفسه، وشيطان قلبه يزينان له سوء عمله، ويطولان أمله،ويلقيان في روعه الشبهات؟.

والجواب: بمعرفة الله. أليس الله بقادر على أن يعيد الإنسان بعد هلاكه؟ بلى؛ أوليس حكيماً، ومن حكمته أن يجزي الصالحين بالحسنى والكفار بالنار؟ بلى؛ إذن فالساعة آتية لا ريب فيها.

وليزداد المؤمن معرفة بخالقه، فيزداد إيماناً وتصديقاً بالنشور، ووعياً للساعة، يذكرنا الرب بآياته المبثوثة في الآفاق والمحسوسة في النفس مساءً وصبحاً وعشياً وعند الظهيرة، التي يتجلى بها أن حق التسبيح والحمد لله وحده.

ويهدينا إلى روعة الحياة، وكيف يخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويأمر بالتفكر في أنفسنا وكيف خلقنا من التراب، ثم جعل لنا أزواجاً نسكن إليها. ويأمرنا بتعلم آياته في السماء والأرض، وفي اختلاف ألسنة الناس، وكيف ننام ليلاً ثم يبعثنا نهاراً لاكتساب المعائش. ويذكرنا بنعمة الغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها، ويلفت نظرنا إلى عظمة السماوات والأرض.. ويستدل بذلك كله على أنه عزيز حكيم (الآيات: ١٧-٢٧).

ومرة أخرى وفي موقع آخر من السورة (الآيات: ٤٨-٥٠) يبين لنا نعمة الرياح التي تبشر ببركات الغيث، كما تحمل الفلك، وتوجب الشكر، ويصف لنا سبحانه نزول الغيث بأروع وصف، ويأمرنا بأن ننظر إلى آثار رحمته، وكيف يحيي الأرض بعد موتها.. ثم يذكرنا بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

ويبين لنا آياته في أنفسنا؛ كيف نتقلب بين ضعف وقوة، ثم ضعف وشيبة، ويذكرنا -مرة أخرى- بأنه العليم القدير (الآيات: ٥١-٥٤).

وفي الآيات الأخيرة من السورة (الآيات: ٥٥-٦٠) يصور لنا بعض مشاهد القيامة حيث يعالج طول الأمل عند الإنسان، وأنه لا ينفعه يومئذ عذر ولا هو يستتاب.

وبالإضافة إلى هذه المحاور نجد في السورة حديثاً مبثوثاً بين أرجائه عن شروط المعرفة، وعن أهميتها، وأن في القرآن من كل مثل.

كما أن السورة تذكرنا بالزمن، وموقف المؤمنين منه، وضرورة الصبر حتى يأتي وعد الله.

31

سُورَةُ لُقمَان

* حكمة اللّه في قلوب الشاكرين

لم يكن لقمان نبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً، وكانت حكمته إلهية، وقد خلدها الذكر الحكيم في آياته لتكون نبراساً وهدىً، وسمى السورة باسمه ليضرب مثلاً من واقع عبد شكر الله فشكره الله، وآتاه الحكمة بفضله.

جملة معارف سورة لقمان التنويه بحكمة الله التي تجلت في الكتاب، وتتجلى في قلوب المحسنين، ولا ينتفع بها المستكبرون. ولقد آتاها ربنا لقمان، ولخصها في كلمة واحدة، هي شكر الله، وفصلها لقمان لابنه في عشر وصايا تنبعث من الشكر؛ أولها معرفة الخالق، وآخرها عدم التكبر على المخلوقين.

وتبين السورة بتفصيل آيات الله التي تهدي إلى توحيده، وتوحيد الله وحدود شكر عباده؛ أي لا يجوز أن يطيع الفرد والديه إذا أمراه بالشرك بالله.

وضمن هذا الإطار تنتظم موضوعات سورة لقمان، وفيما يلي بعض التفصيل:

إن حكمة الكتاب تنفع المحسنين فتكون لهم هدى ورحمة، وهم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالآخرة. فهم أصحاب الهداية والفلاح، بينما هنالك أناس يشترون بأعمارهم وأموالهم لهو الحديث، من أفكار باطلة،وممارسات ماجنة

كالغناء، و هدفهم الضلالة عن سبيل الله، ويحذر القرآن بأن لهذه الطائفة عذاباً مهيناً (الآيات: ١-٧).

بينما أعد ربنا للصالحين جنات النعيم. أوليس ربنا حكيماً، يعطي كل فريق جزاءه العادل وهو القوي العزيز؟!(الآيات: ٨-٩).

ولكي نعرف حكمة الله، وبالتالي نشكره ليرزقنا من حكمته، يذكرنا السياق بخلق السماوات بغير عمد تُرى، ووضع الجبال في مراسيها لتحافظ على استقرار الأرض، وخلق كل دابة (عمكنة التصور) ورزقها عبر النبات الذي ينبته في الأرض بالغيث، ويجعله زوجاً كريماً (بحكمته البالغة). هذا ما خلقه الله، وهكذا خلقه، فماذا خلق الشركاء؟ كلا؛ إن الظالمين في ضلال مبين (الآيات: ١٠-١١).

ويعود السياق لبيان آيات الله في (الآيات: ٢٠-٣٠) بعد أن يذكرنا بمفردات الحكمة التي آتاها لقمان ولخصها في كلمة واحدة (شكر الله)، ذلك لأن شكر الله لا يتم إلا بمعرفته ومعرفة آلائه ونعمائه علينا، وأول ما يذكره أن الشكر لله يعود إلى نفس الشاكر، لأن الله غني حميد. ثم يذكرنا بأن شرط الشكر اجتناب الشرك، وينبغي أن يشكر الإنسان والديه ولكن في حدود شكر الله، فإذا أمراه بالشرك فلا يجوز له إطاعتهما (الآيات: ١٢-١٥).

ولابد أن يعرف الإنسان أنه مسؤول عن أعماله، وأنه حتى لو كان العمل بوزن خردلة أتى الله به أنى كان (وهكذا تعود إلى الإنسان أعماله) (الآية: ١٦).

ومن مفردات الشكر وبالتالي الحكمة إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر؛ ومن مفرداته المشي هوناً،عدم المشي مرحاً، واجتناب الاختيال والفخر، والقصد في المشي، والغض من الصوت (الآيات: ١٧-١٩).

ثم يذكرنا السياق بنعم الله علينا والتي تستدعي الشكر. أوليس كل شيء نقدر عليه فإنما سخره الله لنا، وأسبغ النعم ظاهرة باطنة، بينما نجد البعض يجادل في الله بغير إثارة من علم أو هدى أو كتاب منير.

وهـم يتبعـون آباءهـم الذين اتبعوا الشـيطان، وأكـد ربنا أن الخوف مـن الآباء لا أسـاس له، لأن التسـليم لله وحده،والإحسان إلى العباد يجعل العبد مصوناً من الأشرار، لأنه العروة الوثقى، ولأن لله عاقبةالأمور (الآيات: ٢٠-٢١).

أمـا الكفـار؛ فإنهم لا يُحزنـون المؤمنـين، لأن عاقبتهم إلى الله الـذي يجازيهم. بلى؛ يمتعهـم في الدنيـا قليـلاً (دون أن يدل ذلـك على قربهم إلى الله) ثـم يضطرهم إلى عذاب غليظ (الآيات: ٢٣-٢٤).

ويذكّر السـياق بعشر أسـماء حسـنى لرب العالمين مع تقديم شـواهد حق عليها، لترسـيخ قواعـد الإيمان في قلوبهم. فـالله هوالخالق الذي لا ينكر أحـد ذلك، وهو الغني الحميـد، فله ما في السـماوات والأرض، وهو العزيز الحكيـم الذي لا تحصي كلماته، وهو السـميع البصـير، وهو الخبير الـذي يولج الليـل في النهار، والنهار في الليل، وقد سـخر الشمس والقمروأجراهما في المسير المحدد لهما، وهو الحق الذي لا يزال ملكه، بينما يبطل ما يدعون من دونه وهو العلي الكبير (الآيات: ٢٥-٣٠).

والله يهـدي النـاس عبر آياتـه، ولكن الذين يعيشـون الصبر والشـكر يهتدون بها، ويعـرض ربنا سـبحانه الناس لبعض السـاعات الحرجة ليتضرعوا إليـه، ولكنهم بعدها ينقسمون فريقين؛ فمنهم مقتصد ومنهم جاحد، والجاحد هو كل ختاركفور، وهو الذي لا يفي بوعده ولا يشكر نعماء ربه (الآيات: ٣١-٣٢).

وفي الآيتـين الأخيرتين من السـورة (الآيات: ٣٣-٣٤) يحـذر ربنا الناس من يوم القيامـة، حين لا تنفع العلاقات النسبية الحميمة، ويؤكد لهـم أن وعده حق، فلا تغرنهم الدنيا وأهلها (وبذلك يلخص الرب التحذير من عوامل الانحراف).

وفي الخاتمة يذكرنا بعلمه المحيط وقدرته الواسعة.

32

سُورَةُ السَّجْدَة

* الرب يتجلى في قلوب المؤمنين

في أربع سور قرآنية يجب السجود عند الأمر به، وهي التي تسمى بالعزائم. وهذه السورة أولها في الترتيب، ولذلك حق أن تسمى بذلك، وقد تسمى بـ (الم. السجدة).

لعل آية السجدة (الآية: ١٥) هي محور السورة، وهي تبين أعظم صفات المؤمنين المخلصين، المتمثلة في تجلي الله لقلوبهم الزكية، حتى أنهم يخرون سجداً لله إذا ذكّروا بآياته، وتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم.

وتترى آيات السورة للوصول إلى هذا المحور، انطلاقاً من اسم الربوبية لإله العالمين. فهو الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مما يوحي بترتيبها خلقاً بعد خلق، وطوراً بعد طور. ثم هو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وإليه يرجع العباد أعمالهم، وهو عالم الغيب والشهادة، يحيط علماً بالخلق، فلا يعزب عن علمه شيء في السماوات والأرض (الآيات: ١-٦).

ويذكرنا السياق بتجليات اسم الرب في خلق الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وتعاهد أمره طوراً بعد طور حتى جعله بشراً سوياً، ويتقلب في تقدير الرب وتدبيره مادام حياً، ثم يتوفاه ملك الموت الذي وكل به من عند الرب، وحين يتحول تراباً، وتنشر



أجزاؤه في الأرض، لا يكون بعيداً عن هيمنة الرب وتقديره، وحين يبعث إلى محكمة العدل الإلهية، ترى المجرمين ناكسي رؤوسهم، يتضرعون إليه، ويدعونه أن يرجعهم ليعملوا صالحاً (الآيات: ٧-١٢).

كلا؛ إن الله أقسم صادقاً أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، ولذلك تركهم يختارون طريقهم بحرية تامة، فإذا شاؤوا اختاروا الجنة، ولكن كيف النجاة من ذل ذلك الموقف، حين يندم المجرمون على أعمالهم؟ (الآيات: ١٣-١٤).

إنما بالتضرع إليه، وهكذا يحصر القرآن المؤمنين بآيات الله.. أولئك الذين إذا سمعوها خروا سجداً، وسبحوا بحمد ربهم.

وجزاء هؤلاء عظيم، إلى درجة لا يمكن وصفه، حيث يقر الله أعينهم بالجزاء الحسن (الآيات: ١٥-١٧).

وإن من هؤلاء من يختارهم الله للإمامة، لأنهم يهدون بأمر الله، ويصبرون على الأذى في جنبه، ولأنهم كانوا بآيات الله يوقنون (الآية: ٢٤).

ولعل الهدف الأسمى للسورة بناء هذه الطائفة المختارة، وهذا هو محور السورة الأساس -فيما يبدو- إلا أن هناك بصيرة أخرى تعطيها آيات السورة؛ هي نسف التمنيات التي يحلم بها الإنسان، ويريد أن يكون المؤمن والفاسق سواء، كلا؛ لا يستوون. إن للمؤمنين جنات المأوى، بينما مأوى الفاسقين النار خالدين فيها (الآيات: ١٨-٢٠). ودليل الفرق بين هذين الفريقين في الآخرة، هو عذاب الله الذي يصيب الفساق بأعمالهم في الدنيا: الفقر، والذل، والأمراض، والحروب، والزلازل، والفيضانات و... كل ذلك دليل مسؤولية البشر عن أعمالهم السيئة، وأنها لن تمر بلا حساب (الآيات: ٢١-٢٢).

ثم يشير الذكر الحكيم إلى أن أسمى هدف لرسالات الله هو رفع الشك والريب عن قلب الإنسان، ولن يؤدي المصلح (الرسول) هذا الهدف إلا إذا كان بنفسه بعيداً عن الشك (الآية: ٢٣).

بعد ذلك يبين الله صفات الإمام وهي ثلاث: الهدى والصبر واليقين (الآية: ٢٤).

وبالرغم من وجود أئمة صالحين وقادة يتصفون بهذه الصفات، إلا أن هناك فريقاً يكفرون بالحق، ولكن ميزان الله دقيق، يفصل به يوم القيامة بين هؤلاء وهؤلاء. ونظرة إلى التاريخ تهدينا إلى أن نكال الله الذي يصيب الكفار، وه-وبرغم عظمته- يعتبر عند الله عذاباً أدنى، فكيف يهرب الفاسقون والمجرمون الذين يعرضون عن آيات الله من الانتقام بالعذاب الأكبر؟! (الآيات: ٢٥-٢٦).

وفي خاتمة السورة (الآيات: ٢٧-٣٠) يذكرنا الرب بآيات رحمته، وأنه يسوق الماء إلى الأرض الجرز لينبت لهم ولأنعامهم زرعاً.

ويحذر أولئك الذين ينتظرون الآيات الواضحة التي تجبرهم على الإيمان، وينذرهم بأنه في يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم في ذلك اليوم.

ثم يأمر المؤمنين بالإعراض عنهم، والإنتظار، كما أن الكفار ينتظرون ليرى الجميع جزاء أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

إن السور القرآنية، ومنها هذه السورة، التي تتحدث عن مشاهد يوم القيامة تثير فينا مزيجاً من الرغبة والرهبة،وتدعونا إلى السعي الحثيث نحو عمل الصالحات، حتى لا نكون من ضحايا الغفلة.

وتصور لنا آيات هذه السورة، المجرمين -الذين يعتقدون بأن الجريمة والخط المنحرف هو السبيل لإشباع الغرورفي الدنيا- وهم منكّسي الرؤوس؛ بما نسوا وتغافلوا عن يوم القيامة، تاركين الاستعداد لهذا اليوم، فنسيهم الله تعالى.

والآيات الأخيرة من السورة، تم فيها التأكيد على صفة اليقين التي تجب أن يتصف بها الإنسان، حتى لا يبقى لديه أدنى أثرٍ من الهوى وضعف الإرادة، إذ الإنسان يعرف الحقائق بعقله وفطرته، ولكنه يشكك فيها بهواه وفكره الباطل،ولذلك فهو بحاجة إلى اليقين لإزالة هذا الشك.

أما كيف يحصل الفرد على اليقين؟.

إنه يحصل عليه بالمزيد من النظر إلى آيات الله وإمعان التفكير فيها.



* ترسيخ دعائم القيادة الرسالية في الأمة

اتخذ اسم الاحزاب لهذه السورة من قصة حرب الخندق، حيث تحزبت قريش واليهود ضد المسلمين، فردّ الله كيدهم،ولعلها كانت أعظم خطر درأه الله سبحانه عن رسالته.

حقائق شتى تذكرنا بها سورة الأحزاب، إلا أن محورها -فيما يبدو للمتدبر فيها- ترسيخ دعائم القيادةالرسالية في الأمة، التي هي ذروة الدين، وسنام الشريعة، والأمانة الكبرى التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان فظلم نفسه بها.

وتجري آيات السورة عبر هذا الإطار لتذكرنا بشخصية القائد الرسالي، الذي يتعالى -بتوفيق الله وعصمته- على قوى الضغط الاجتماعية؛ فهو يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ويتبع وحي الله، ويتوكل عليه (الآيات: ١-٣).

وينقل لنا السياق قصتين: إحداهما شخصية، والثانية عامة.

ألف: فمن خلال قصة زيد الذي تبناه الرسول، ينفي الذكر الحكيم عادة جاهلية كانت سارية حتى نقضها الإسلام بالقرآن، وعبر تحدي شخص الرسول لها، وهي إلحاق الولد بمن تبناه، دون من كان من صلبه، ونستوحي منها أمرين:

أولاً: إن الرسول ﷺ ليس أبا لزيد، ولا يحق له أن يدعي القيادة بهذا العنوان.

ثانياً: إن النبي ﷺ يتحدى شخصياً عادات الجاهلية، ويتحمل الأذى في ذلك، مما يبين صفة التحدي عند القائدالرسالي (الآيات: ٤-٥).

ويكمل السياق بيان شخصية القائد بأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأن أزواجه أمهات المؤمنين، وأن أولي الأرحام -وهم هنا أبناء الرسول من صلبه- بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وهكذا يرسم الخط القيادي للأمة من بعد الرسول (الآية: ٦).

ويؤكد على الميثاق الذي أخذه الله من النبي، كما أخذه من أولي العزم من الرسل قبل أن يحمّلهم الرسالة. ولعل أعظم بنود الميثاق: عدم الخضوع للمنافقين والكافرين، وإخلاص الطاعة لله (الآيات: ٧-٨).

بـاء: ومن خلال قصة الأحزاب، يبين السياق صفات القيادة الرسالية وكيف يجب أن تتبع في الساعات الحرجة، وألَّا تخور عزيمة المؤمنين في طاعتهم لها بمجرد تعرضهم لابتلاء شديد، وكيف ينبغي أن يتخذ الرسول أسوة حسنة.

بلى؛ إنّ الطاعة حقاً تتبين عند مواجهة الأخطار، وعلى الناس أن يرفعوا بطاعتهم للرسول إلى هذا المستوى، ولايكونوا كالمنافقين الذين يستأذنون الرسول قائلين: إن بيوتنا مكشوفة، ففضحهم الله بأنهم لا يريدون إلا فراراً.

ومن خلال كشف القرآن لصفات المنافقين يحذرنا من الوقوع في مهلكة النفاق عند مواجهة الخطر.

كما أنه يبين لنا مدى رسوخ إيمان المؤمنين الصادقين، عندما قالوا -وهم يرون أمواج الأحزاب تترى على المدينةلاقتحامها-: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً (الآيات: ٩-٢٢).

وبعد بيان صفات المؤمنين الصادقين وجزاءهم الحسن، يبين كيف رد الله الكافرين على أعقابهم، وكيف أنزل اليهود من قلاعهم، وأورث المسلمين أرضهم وديارهم (الآيات: ٢٣-٢٧).

ويعود السياق لبيان أحكام نساء النبي، ويخيرهم بين التشرف بخدمة الرسول أو التعلق بزينة الدنيا، وأن من يرتكب منهن فاحشة يضاعف لها العذاب ضعفين (لمكانتها من رسول الله)، كما أن من تقنت منهن وتعمل صالحاًتحصل على الأجر مرتين (الآيات: ٢٨-٣١).

ونستلهم من كل ذلك كيف يجب أن يكون بيت القائد الرسالي نظيفاً من الطمع، وبعيداً عن اختراق القانون.

ثم يأمر القرآن نساء النبي بأوامر مشددة في عدم الخضوع بالقول، ويأمرهن بأن يقُلن قولاً معروفاً، وألاّ يخرجن من بيوتهن، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

ويبين السياق فضيلة آل بيت الرسول ﷺ، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، ليبين الخط الرسالي بعد رحيل النبي ﷺ الذي لابد أن يلتف المسلمون حوله (الآيات: ٣٢-٣٣).

ويعود إلى نساء النبي وكيف يجب عليهن أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة (الآية: ٣٤).

ويذكر القرآن صفات المؤمنين والمؤمنات، لتكون مثلاً أمامنا ومقياساً لمعرفة الناس، ويبين أن أبرز صفاتهم جميعاً؛التسليم لقضاء الله ورسوله، ولعل التسليم للقضاء أسمى مراتب التسليم للقيادة، وأعلى درجات الإيمان بعد الثبات في الحرب (الآية: ٣٥).

ويبين الذكر قصة زواج الرسول ﷺ من مطلقة زيد، لينقض الله عادة جاهلية كانت تقضي بأن الدعي ابن، وأنه لايجوز النكاح من مطلقته.

ويبين أن النبي ﷺ بشر، وأنه لا حرج عليه فيما فرض الله له (الآيات: ٣٦-٣٨).

ويصف النبي ﷺ ومن مضى على نهجه ممن يبلغ رسالات ربه، بأنهم يخشونه وحده، ولا يخشون أحداًغيره (الآية: ٣٩).

ويبين أن أعظم علاقة توصل الأمة برسولهم، هي رسالته إليهم، وأنه ليس محمد ﷺ أبا أحد من رجالهم، ولكنه الرسول وخاتم النبيين (الآية: ٤٠).

ولكي يتقرب الناس إلى مقام الرسول فعليهم أن يتقربوا إلى ربهم زلفى، وعليهم أن يذكروا الله كثيراً ويسبحوه بكرة وأصيلاً، فهو الذي يصلّي عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور (الآيات: ٤١-٤٤).

ويعود إلى ذكر صفات النبي ﷺ السامية فهو الرسول الشاهد، والمبشر النذير، والداعي إلى الله بإذنه، والسراج المنير،وأن من آمن بالله وبرسوله يحصل على فضل كبير (الآيات: ٤٥-٤٧).

ويكرر ما ذكر به في أول السورة من رفض طاعة الكفار والمنافقين، وترك أذاهم (الآية: ٤٨).

ويعد ذكر حكم شرعي عام في الطلاق يقضي بضرورة إعطاء المهر (لدى الاتفاق عليه)، وإعطاء شيء تمتع به المطلقة لدى عدم الاتفاق على المهر، فلابد إذن من ثمن للبضع. بعدئذ يبين ميزة للرسول، هي أن المرأة لو وهبت نفسها للرسول كان له أن يتقبلها من دون مهر، بعكس سائر المؤمنين، وأنه ﷺ يرجي من نسائه من يشاء، ويأوي إليه من يشاء، وأنه لا يحل له النساء من بعد (الآيات: ٤٩-٥٢).

ويؤدب السياق المسلمين ويأمرهم بأن لا يذهبوا إلى بيت الرسول ﷺ ينتظرون الطعام، ولا يجلسوا بعد دعوتهم إليه وإطعامهم مستأنسين لحديث، ويبين أن ذلك يؤذي الرسول ﷺ، وأن عليهم ألا يطلبوا من نساء النبي حاجة إلا من وراء حجاب. ويبدو أن ذلك أيضاً مما يخص نساء النبي، إذ يجوز لغيرهن التحدث مع الرجال مباشرة إذا حافظن على سترهن.

وتختص نساء النبي أيضاً بحرمة نكاحهن بعد وفاة الرسول ﷺ.

بلى؛ لا جناح عليهن في التعامل مع الأقرباء، ومع نسائهن أو أمهاتهن (الآيات: ٥٣-٥٥).

وهكذا يسرد السياق خصائص الرسول ﷺ، مما يكشف عن جانب من عظمته، ثم يأمر بضرورة التواصل معه عبر الصلاة عليه، أوليس الله وملائكته يصلون عليه؟

فيجب الصلاة والسلام عليه، ولابد من التسليم له وطاعته (الآية: ٥٦).

ويلعن القرآن الذين يؤذون رسول الله ﷺ، سواء ببث الشائعات ضده أو ضد نسائه أو بأذى ذريته، ويتوعدهم بعذاب أليم في الآخرة (الآية: ٥٧).

ويبين جانباً من أذى المنافقين للرسول ﷺ، وذلك حين ينهى نساء النبي وسائر نساء المسلمين عن عدم مراعاة الستر تماماً، مما يجعلهن يعرفن ويؤذين (الآيات: ٥٨-٥٩).

وفي ذات الوقت يوجه تهديداً شديداً إلى المنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين من الاستمرار في أذى الرسول ﷺ،وينذرهم بطردهم وقتلهم. ولكي ينصحهم؛ يحذرهم من القيامة، ويبين أن الناس يسألون عن الساعة، فيقول: لعل الساعة تكون قريباً، ويبين لعن الله للكفار حيث يخلدون في السعير، ولا يجدون ولياً ولا نصيراً. هنالك حين تقلب وجوههم في النار، ويتمنون لو كانوا يطيعون الله والرسول، ويحاولون إلقاء اللوم على السادات والكبراء الذين أضلوهم السبيل (الآيات: ٦٠-٦٨).

وينذرهم السياق -مرة أخرى- بعاقبة الذين آذوا النبي موسى عليه السلام فلم يحصلوا على شيء، لأن الله كان قدجعل النبي موسى عليه السلام وجيهاً، فما قيمة أذاهم؟ (الآية: ٦٩).

ويأمر الله المؤمنين بالقول السديد (البعيد عن التهمة والسب) ويعدهم بالمغفرة، ويبين أن من أطاع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً (الآيات: ٧٠-٧١).

ويبين أن الطاعة للرسول، ولأولي الأمر من بعده هي الأمانة الكبرى التي أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها، بينما حملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً، حيث إن المنافقين فشلوا في احتمال الأمانة، فعذبهم الله، بينما تاب على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً (الآيات: ٧٢-٧٣).

34

سُورَةُ سَبَإٍ

* مسؤولية الإنسان؛ سُنّةٌ إلهيّة

أقتُبس إسم السورة من قصة مشهورة عند العرب، وقد بين القرآن عبرتها الأساسية، وهي قصة حضارة سبأ، التي دمرت بسيل العرم لانحرافها وفسادها.

تتشابه آيات الذكر في بيان مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وتفنيد الأعذار التي يتشبث بها البشر للفرار عنها بزعمه.

ومن غرر السور التي تزرع الإحساس بالمسؤولية الذي لو ترسخ في قلب الإنسان لزكاه، وأصلح أعماله، هي سورة (سبأ) التي تذكرنا أيضاً بالوحي المنزل على النبي ﷺ.

وواقع الجزاء (المسؤولية) تجل لاسمي الحكيم الخبير اللذين نحمد الله بهما، فهو العالم بما يلج في الأرض ومايخرج منها (الآيات: ١-٢). وعند قيام الساعة يتجلى الجزاء بأبرز صوره، حيث لا ينفع تشكيك الكفار بها، وحيث يحيط الرب علماً بكل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة؛ وحيث الجزاء الوافر للصالحين، والعذاب الأليم لمن يسعون في آيات الله معاجزين (معاندين ومتحدّين) (الآيات: ٣-٥).

وينقسم الناس فريقين تجاه الوحي؛ فبينما يراه أهل العلم هو الحق، يستهزئ به الكفار، ويقولون: هل الرسول مفتر أم به جنة؟ كلا؛ بل إنهم لا يؤمنون بالآخرة، فهم

في العذاب والضلال البعيد.

وينذرهم الذكر بأن كفرهم برسالات الله قد يعرضهم لعذابه، الذي إن شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم من السماء كسفاً (الآيات: ٦-٩).

ويعرض السياق صورتين للحضارة؛ أولاهما صالحة حيث استمرت، بينما الثانية دمرت لفسادها، وهما بالتالي صورتان بارزتان لواقع الجزاء والمسؤولية.

فلقد آتى الرب النبي داود عليه السلام فضلاً، وألان له الحديد، وعلمه صنعة الدروع السابغة، وسخر لسليمان عليه السلام الريح والجن،وأمر داود سليمان عليه السلام بالشكر له، فاستمرت حضارتهما إلى ما بعد موت النبي سليمان، الذي ما دل على موته إلاالأرضة التي أكلت عصاته، فعلمت الجن أنهم بقوا في العذاب لجهلهم بالغيب (وبالتالي لا يجوز الاعتماد عليهم للهروب من الجزاء كما زعم الجاهليون).

أما الصورة الثانية؛ فتتمثل في قصة سبأ، الذين آتاهم الله جنتين عن يمين وشمال، وأمرهم أيضاً بالشكر، فأعرضوا،فأرسل عليهم سيل العرم.

ومثلهم مثل القرى الآمنة التي بارك الله فيها، فكفرت، فجعلهم الله أحاديث يعتبر بها كل صبار شكور (الآيات: ١٠-١٩).

وينسف القرآن الكريم أسس التبرير التي يعتمد عليها الكفار، والتي هي في ذات الوقت حجب للقلب، وغشاوةللبصر:

ألف: إلقاء اللوم على إبليس الذي صدق عليهم ظنه، ويؤكد الذكر أنه لا سلطان له عليهم، وإنما يبتلي الله به الناس، ليعلم من هو المؤمن حقاً بالآخرة عمن هو منها في شك.

باء: الأنداد الذين يزعمون أنهم يغنون عنهم شيئاً، ويجرمون اعتماداً عليهم، إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا شرك لهم في السلطة، ولا أعوان لهم ولا أعضاد، ولا تنفع شفاعتهم إلا لمن أذن الله له، كما أنهم لا يملكون للناس رزقاً، ولا يتحملون عنهم وزراً.

جيم: إن الناس إما على هدى أو في ضلال مبين، وإن أهل الصلاح لا يزرون من

مسؤولية المجرمين شيئاً (الآيات: ٢٠-٢٧).

ويذكر السياق بأن الرسول بشير ونذير لكافة الناس، وأن وعد الله آتٍ، لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ساعة، ويصورلهم مسؤوليتهم عن إيمانهم بالرسالة، وأن جزاء كفرهم اليوم يتجلى عند قيام الساعة، حيث يتلاوم الكفار، ويلقي بعضهم المسؤولية على عاتق البعض الآخر (الآيات: ٢٨-٣١).

دال: يلقي المستضعفون اللوم على المستكبرين، ولكنهم لا يتحملون عنهم وزراً، بل يقولون لهم: إنكم كنتم مجرمين. وحين يشترك الجميع في الأغلال يعلمون أنهم كانوا جميعاً مسؤولين عن أعمالهم (بشهادة أنهم في العذاب مشتركون) (الآيات: ٣١-٣٤).

هـاء: كثرة الأموال والأولاد لا ترفع عن أصحابها الجزاء والمسؤولية، ويزعم المترفون الذين كفروا بالرسالات الإلهيةأنهم غير معذبين، ويفند الذكر هذه الفكرة بما يلي:

أولاً: إن الرزق من الله، فكيف يقف حاجزاً دون جزاء الله؟

ثانياً: إن الأموال والأولاد لا يقربونهم عند الله زلفى، إلا بقدر الاستفادة منها في العمل الصالح والإنفاق. ويعود القرآن ليذكرنا: أن الإنسان مسؤول عن رفضه، وأن الذين يسعون في آيات الله معاجزين يحضرون للجزاء غداً عندربهم (الآيات: ٣٥-٣٩).

واو: إن بعضهم كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أنهم يعبدون الملائكة، (كل ذلك ليستمروا في جرائمهم اعتماداً على شفاعة الملائكة) بينما ترفضهم الملائكة.

ويبين الرب أنهم لا يملكون لبعضهم نفعاً ولا ضراً، وأن الظالمين مجزيون بالنار، (ولا ينقذهم ادعاؤهم الانتماء إلى الملائكة من جزاء ظلمهم) (الآيات: ٤٠-٤٢).

ويكشف القرآن الحجب التي يتلبس بها قلب الكافر الواحد بعد الآخر.

أولاً: حجاب التقليد، حيث تراهم يتهمون رسولهم بالإفتراء أو بالسحر، لأنه يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم.

ويقـول الذكر: إن آباءهم لم ينزل عليهم كتاب يدرسـونه، ولا بعث فيهـم نذيـر (حتـى يفتخروا بآبائهـم الذين لم يكـن لهم رسـالة ولا معرفة) (الآيات: ٤٣-٤٤).

ثانياً: حجب الغرور، حيث تجدهم يكذبون بالرسالة اعتماداً على قوتهم، في حين أن قـوة الأمـم الغابرة التي كانـت أكثر من هؤلاء عشرات المـرات لم تدفع الجزاء المتمثل في العذاب النكير (الآية: ٤٥).

ثالثـاً: حجـاب الغفلـة، حيث يدعوهـم الرب للقيـام من أجـل الله، والتفكر في رسـولهم ليعرفـوا دلائل الصدق فيه. فهـو ليس بمجنون لكنـه يرى عذاباً شديداً فينذر به. (وهذا هو دليل حماسه الكبير الذي فسره الكفار بالجنون)، وهـو لا يطلـب أجراً إلا ما يعـود بالتالي إليهم، وهذا شـاهد صدق على أنه حق.

ثم إن الرب يشهد له بالصدق، وهو على كل شيء شهيد. فهو يقذف بالحق فيهدم أركان الباطل، فلا يتجدد ولا يعود (الآيات: ٤٦-٤٨).

ويؤكد ربنا أن خسارة الضلالة تعود على صاحبها، (فالإنسان مجزي بضلالته شاء أم أبى) (الآيات: ٤٩-٥٠).

ويحـذر الرب من مغبة الضلالة، حيـث لا يفوت أحد منهم من قبضة العدالة، بل يؤخـذون من مـكان قريب، فيقولون: آمنـا! ولكن هيهات، فقد فـات الأوان، وهنالك حيـل بينهـم وبين ما يشـتهون كما فعل بأتباعهـم من قبل. كل ذلك بسـبب أنهم كانوا في شك مريب (الآيات: ٥١-٥٤).

35

سورة فاطر

* معرفة الله؛ ينبوع كل خير

اتُّخذ اسم هذه السورة من فاتحتها التي شرعت بحمد الله على ما فطر السماوات والأرض.

تذكرنا سورة فاطر بمحامد ربنا الكريم الذي فطر السماوات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً، وأتقن الصنع، وأحسن التدبير، وهو العزيز الحكيم.

ولأن معرفة الرب ينبوع كل خير، وأصل كل فضيلة وخلق كريم، فإن القرآن يشفي صدور المؤمنين من أوساخ الغفلة، ببيان أسماء الله وكريم فعاله وواسع رحمته. فله الملك والتدبير، فما فتحه من رحمة لا ممسك لها، وما أمسكها فلا مرسل لها (الآيات: ١-٢).

وضلالة البشر عن هذه الحقيقة تدعوه إلى الشرك بالله العظيم. ويذكر القرآن الناس جميعا بأن فاطر السماوات والأرض ومبتدعهما بدءاً هو الذي يرزق الإنسان منهما، فهو الحقيق بالعبادة وحده لا إله إلا هو فأنى يؤفكون (الآية: ٣).

ولكي يعرف البشر ربه؛ فهو بحاجة إلى إزالة حواجز مثل حب الدنيا والغرور بها، واتباع المضلين المغرورين بها،واتباع الشيطان أو عدم الحذر الكافي منه. ويذكرنا القرآن بأن وعد الله (بالجزاء) حق، فعلينا إذن تجاوز هذه الحواجز، ويبين جزاء الكفار وحسن جزاء الصالحين (الآيات: ٤-٧).

وبعد أن يبصرنا السياق بحاجز تزيين الأعمال (و لعله العادة السيئة) يعود ليذكرنا بربنا العزيز تمهيداً لبيان محور هام (ولعله الأساسي) في هذه السورة، فترى ما هو ذلك المحور؟.

يتطلع الإنسان نحو العزة والغنا، ولكنه يضل -عادة- الطريق، وبدل أن يحصل عليهما بالإيمان بالله والعمل الصالح، تراه يؤمن بالشركاء المزعومين، ويمكر السيئات. ويذكرنا القرآن بأن الأنداد لا يملكون قطميراً، وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، وأن السبيل القويم لبلوغ الطموح المشروع في العزة والغنا هو سبيل الله، ومعرفة أنه الفاطر الرازق العزيز الغني، وأنه المالك الحق، وأنه الحكيم الذي يجازي كلاً بعمله، وأنه يحب الصالحين..

وخلاصة المحور : تبصير البشر بالسبيل القويم لبلوغ تطلعاته المشروعة.

هكذا يذكر السياق بأن الله أرسل الرياح لتثير السحاب، وينزل الغيث حيث يشاء فيحيي به الأرض بإذنه، فهوالرزاق، أو ليس الزرع والضرع من الغيث؟.

وهكذا ينتشر الناس في يوم البعث للحساب.

ومن أراد العزة فلله العزة جميعاً. (هكذا ينبغي الحصول على العزة، وهي أعظم طموح عند البشر، لأنها تعني الأمن والسلامةالذكر الحسن عند الرب لا عند الطغاة والأنداد). ولكن كيف؟ ومن هو الذي يعزه الله؟.

الجواب: صاحب الكلم الطيب والعمل الصالح، أما المكر السيء فيمحقه ولا يجنى منه إلاالبوار (الآيات: ٨-١٠).

منذ أن كنا نطفة أو جنيناً، إلى الولادة، وحتى زيادة العمر ونقصانه، كل ذلك بيد الله، وهو مسجل في كتاب، وهو عند الله يسير، (فلماذا نطلب الغنا من غيره؟ أوليس خلقنا وأجلنا بيده، فلو قصر أعمارنا ماذا تنفعنا العزة أوالغنا)؟. (الآية: ١١).

وبيده الملك، انظر إلى هذين البحرين، أحدهما ملح أجاج، والثاني عذب فرات. إنهما لا يستويان (فلا يستوي الصالح ولا المسيء) و لكن مع ذلك يرزقنا الله منهما لحماً طرياً، وحلية نلبسها، وذلل ظهرهما للسفن الماخرةلتنقل البضائع، ولتهدينا إلى نعمه فنشكره بها.

وهو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، وحدد مسيرتهما. فهو المالك حقاً، بينما لايملك الشركاء المزعومون من قطمير. (فلابد أن نبحث عن الغنا عند ربنا المالك، وليس عند الطغاةوالمترفين)، وهم لا يكشفون الكرب عند الشدائد، فلا يسمعون الدعاء، ولا يستجيبون لو سمعوا، ولا ينفعون يوم القيامة، ولا أحد أفضل من الخبير ينقل النبأ (الآيات: ١٢-١٤).

ويؤكد السياق على فقر البشر -كل البشر- إلى ربه، وأن الله هو الغني (فلا يجوز الخضوع لهذا وذاك طلبا لغناه).

وهل هنالك فقر أعظم من أن الله إن يشأ يذهبهم جميعاً ويأت بآخرين بيسر؟.

ويبدو أن المحور الثاني الذي يتحدث عنه القرآن هنا بتفصيل، وهو محور المسؤولية، يتصل بالمحور الأول، إذ أن معرفة الإنسان بأنه مجازى بعمله يجعله بعيداً عن المكر السيء، مندفعاً نحو العمل الصالح، يبلغ أهدافه بالسعي والاجتهاد عبر المناهج السليمة.

لا أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله ووزرها حتى ولو كان ذا قربى. (ولا يفهم هذه الحقيقة ويخشى ذنبه إلا من يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة ويتزكى)، وإنما ينذر الرسول من يخشى الله ويقيم الصلاة ويتزكى، وإنما يتزكى لنفسه (الآيات: ١٥-١٨).

ويجب أن يكون مفهوماً وبوضوح هذا الأمر، إنه لا يستوي الكافر والمؤمن الصالح، إذ هذه المعرفة تساهم كثيراً في اختيار المنهج السليم لبلوغ الأهداف.

لا يستوي الأعمى والبصير (فلا يستوي الكافر والمؤمن)، ولا الظلمات ولا النور (فأين الضلالةوأين الهدى)، ولا الظل ولا الحرور (السلام والأمن والعافية خير من الحرب والخوف والمرض)، وما يستوي الأحياء (الذين يستمعون كلام الله ويحيون به) ولا الأموات (الآيات: ١٩-٢٢).

وإن الله بعث الرسول منذراً بعذاب نكير يصيب المكذبين، كما أرسل في كل أمة نذيراً ومبشراً الصالحين بأن لهم أجراً حسناً (الآيات: ٢٣-٢٦).

والمحور الثالث في السورة فيما يبدو هو: الإشارة إلى اختلاف ألوان الجبال، وألوان

البشر والدواب والأنعام، ووعي العلماء لإشارات هذا الاختلاف، وأنهم المصطفون الذين أورثهم الله الكتاب على اختلاف مستوياتهم، وجزاؤهم الحسنى عند ربهم، ولعل هذا المحور يتصل بالمحور الأول في بيان نموذج حي عمن اتبع رضوان ربه فهداه الله إلى السبيل القويم للعزة والغنا والجزاء الحسن.

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج الله به ثمرات مختلفا ألوانها؟ إن في ذلك لآية على التدبير وحسن التقدير ودقة النظم، وأن الله مهيمن على الخليقة.

وإذا نظرت إلى الجبال رأيت فيها جدداً بيضاً وحمراً وغرابيب سود، وهي تشهد بطبقات الصخور في الأرض ذات الطبيعة المختلفة، و تشهد أيضاً على السيطرة التامة.

وهكذا الناس والدواب والأنعام كل منها مختلف ألوانه، واختلاف اللون مع وحدة الخصائص يشهد على حسن التدبير، كما يشهد على أن الخليقة تختلف. وهكذا الناس ليسوا سواء في درجاتهم، فليس سواء عالم وجهول، إنما يخشى الله من عباده العلماء، و إن الذين يتاجرون مع الله بتلاوة الكتاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيله سراً وعلانية، فإن تجارتهم لن تبور، وأن الله يزيدهم من فضله، وهو غفور وشكور (الآيات: ٢٧-٣٠).

والكتاب الذي أنزل على الرسول ﷺ حق ويصدق الذي بين يديه، وقد أورثه الله الذين اصطفاهم من عباده (وهم ورثة الأنبياء من علماء أهل بيت الرسول ﷺ فمنهم ظالم لنفسه (إذ لم يتحمل علم الكتاب كماينبغي، بل خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً)، ومنهم مقتصد (قد حمل الكتاب بقدر مناسب، وهو العالم الرباني الذي يصوم نهاره ويقوم ليله)، ومنهم سابق بالخيرات (وهو الإمام الذي بلغ حق اليقين) (الآيات: ٣١-٣٢).

وجزاؤهم جميعاً جنات عدن يدخلونها يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤاً، وهم يحمدون الله على ما أذهب عنهم الحزن، بينما الكفار يخلدون في العذاب الشديد، ولا ينفعهم الصراخ، ويقال لهم: ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكرة، وأرسلناإليكم النذير؟ (الآيات: ٣٣-٣٧).

ويعود السياق لبيان أسماء الله الحسنى، مما يوجب علينا تقواه والحذر من عقابه.

فالله يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما في الصدور (فعلى الإنسان مراقبته علانية وسراً)، وهو الذي يستبدل قوماًبآخرين، وإن عاقبة الكفر مقت وخسارة، وأما الشركاء المزعومون، لا يقدرون على نجاتهم من عذاب الله، لأنهم لايملكون شيئاً، فهم لم يخلقوا شيئاً من الأرض، وليسوا مؤثرين في تدبير السماوات، ولم يحصلوا على تخويل من الله بإدارةشؤون الخلق، وإنما يعدون أنفسهم غروراً، والله يمسك السماوات الأرض و يمنعهما من الزوال فما الذي يصنعه الطغاةوالمترفون؟ (الآيات: ٣٨-٤١).

ولعل الآيات الأخيرة من السورة إعادة تأكيد على محاورها، ببيان أنهم أقسموا بالله أنهم يبادرون إلى قبول النذير أكثر من غيرهم، ولكنهم ازدادوا نفوراً بعد أن جاءهم النذير، و السبب أنهم كانوا يريدون العزة بالكفر والاستكبار،ويريدون المال بالمكر. أما الكفر؛ فقد أورثهم المقت والصغار، وأما المكر فقد أورثهم الفقر وعاد عليهم بالخسران، ولايحيق المكر السيء إلا بأهله (الآيات: ٤٢-٤٣).

وينذرهم السياق بأنهم يتعرضون لعاقبة الكفار من قبلهم، فهل ينتظرون ذلك المصير الذي جرت عليه سنن الله التي لاتبديل فيها ولا تحويل؟! دعهم يسيرون في الأرض لينظروا عاقبة الظالمين من قبلهم.(الآية: ٤٤).

وتختم السورة التي تركزت في بيان تدبير الله للخلق، ببيان أن الله لو أخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة،ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً (بعض يعذبهم وبعض يغفر لهم) (الآية: ٤٥).

وخلاصة القول في إطار هذه السورة؛ أنها تدور حول فكرة أساسية ومؤثرة في تربية الإنسان وتزكيته، وهي أن الله هو المهيمن عليه، وهو الذي يدبر أموره وشؤون الكون، ذلك أن الإنسان الذي يشهد بذلك ليس فقط يطمئن إلى رحاب ربه، وإنما يدفعه هذا الشعور أيضاً إلى أن يحدد تصرفاته وسلوكه وفق مناهج الله سبحانه وتعالى.

وهناك إيحاء آخر لهذه الفكرة، وهو أن لا يطمئن البشر إلى رخاءٍ، ولا ييأسوا عند ضراءٍ.

36

سورة يس

* حقيقة الرسالة ركيزة الحياة

اتخذ اسم السورة من الكلمة الأولى فيها التي قالوا أنها اسم لنبينا الأكرم محمد ﷺ، ولعلها ترمز إليه كما ترمز إليه كلمة (طه) والله العالم.

بعد القسم بالشأن العظيم الذي هو للقرآن الحكيم، يخاطب ربنا سيد الخلائق (يس) محمد ﷺ بأنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، وأن الكتاب تنزيل من رب عزيز رحيم، ويهدف إنذار قوم جاهلين بها أُنذرآباؤهم من قبل، ثم أضحت قلوب أكثرهم كالصخر لا تقبل الإيمان. أرأيت الذي وضعت على عنقه الأغلال، حتى أصبح مقمحاً، مرفوع الرأس إلى الأعلى حتى لا يرى شيئاً؟ هل يقدر على النظر!، أم الذي وضع سداً منيعاً أمامه وخلفه، وحجبت بصره غشاوة فهل يبصر؟ كلا؛ كذلك لا ينتفع هؤلاء بالإنذار، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.(الآيات: ١-١٠).

فلمن القرآن إذن؟.

إنما هو ينذر من يتبع الذكر، ويهتدي ويطيع آيات القرآن، ويخشى الرحمن بالغيب. وهذا يتجنب المهالك التي تنذر بها،ويبشره الله بمغفرة لذنوبه السابقة وهفواته، وبأجر

فيـه الرزق والكرامة. ويـأتي كمال الجزاء في الآخرة، حيث يحيي الله الموتى، وقد كتب من قبـل مـا قدموه لحياتهـم هناك وما خلفوه وراءهم من آثـار، وكل شيء قد أحصي في إمام مبين (الآيات:١١-١٢).

وهذه الرسـالة جاءت على سنة رسـالات الله السـابقة، ويضرب القرآن مثلاً من أصحاب القرية حين جاءها المرسلون،ثم يمضي في بيان شبهاتهم الواهية، ويردها:

أولاً: على لسان الأنبياء عليهم السلام.

ثانياً: على لسـان واحد ممن هداهم الله للإيـمان، وأدخله جنته. فقال: ياليت قومي يعلمـون. وأهلـك الله قومه مـن بعده بصيحة، وتحسر على العباد الذيـن لا يبعث إليهم رسـول إلا كانوا به يستهزئون، دون أن يعتبروا بمصير السـابقين الذين سوف يحضرهم الله وإياهم لديه (الآيات: ١٣-٣٢).

و يذكرنـا القـرآن بآيات الله لعلنا نهتدي إليه ونتبع رسله؛ فمن الأرض الميتة التي يحيهـا (بالغيث) ويخـرج منهاحبا فمنه يأكلـون، إلى الجنات ذات الثمرات المختلفة، إلى الليل والنهار والشـمس التي تجري لمستقر لها، إلى القمر الذي يجري في منازله حتى يعود كالعرجـون القديـم، إلى التدبـير اللطيف للشـمس والقمر، إلى وسـائل النقل من سـفن وأنعام البر (الآيات:٣٣-٤٢).

و يذكرنـا بأنـه يحفظهم من غضب الأمـواج برحمته وحتى يقضـوا آجالهم، وترى أن الـرب الرحيـم يريد لهم الخيرات أيضاً حين يأمرهم بالتقـوى (ليحفظهم من عواقب الذنـب) ولكنهـم يعرضون بالرغم من تواتر الآيات، وتراهـم يبررون بخلهم بأنه كيف ينفق على من لو شاء الله أطعمه (مما عكس فكرهم وقيمهم المادية)، ويتساءلون باستهزاء:

متى هذا الوعد بالجزاء؟ لماذا يتأخر إن كنتم صادقين؟.

بـلى؛ إنـه آتٍ ومـاذا ينتظرون ومـاذا يسـتعجلون ماينتظـرون إلا صيحـة واحدة تأخذهم وهم سـادرون في بحر الجدل العقيم، وهنالك لا يسـمح لهم الوقت بالتوصية، ولاهـم يعـودون إلى أهلهم مـرة ثانية (و يبقون في عـالم البرزخ حتى يوم النشـور)، فإذا

نفخ في الصور فإذا هم يخرجون من القبور، ويتوجهون إلى ربهم، وبدل التساؤل المشوب بالسخرية تراهم يقولون: يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا؟ إنه الله المقتدر فيعترفون ويقولون: هذا ما وعد الرحمن (من النشور) وصدق المرسلون (حين أنذروا بذلك اليوم الرهيب) وهنالك الحكم العدل الذي يشمل كل الحاضرين (الآيات: ٤٣-٥٤).

ويصور السياق بعض مشاهد الجزاء، فأصحاب الجنة في شغل فاكهون، بينما يمتاز المجرمون إلى النار، ويحاكم الرب عبيده قائلاً: ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان؟! هو عدوكم، وصراطه منحرف عن الصراط الإلهي المستقيم، وإنه قد أضل كثيراً من الناس وأوردهم النار، أفلا اعتبرتم بمصيرهم؟ واليوم ادخلوا جهنم تلك التي وعدتم إياها.

وبعد أن يصور لنا جانباً من عذاب جهنم يقول: ولو كنا نريد لجزيناهم في الدنيا، فطمسنا على أعينهم ومسخناهم. وفعلاً؛ يفعل الله ببعضهم فلا يقدرون منعه، فمن يطول عمره ينكسه في الخلق، أفلا تعقلون إنه قادر على أن يصيبهم بمثل ذلك (الآيات: ٥٥-٦٨).

ويعطف القرآن الحديث عن الآخرة -بعد أن خشعت النفوس الطيبة بتصوير مشاهد منها- يعطفه إلى ردشبهاتهم حول الرسول صلى الله عليه وآله فيقول: وما علمناه الشعر (ولا يتناسب حديثه والشعر أبداً) إن هو إلا ذكروقرآن مبين، ويهدف إنذار من يملك قلباً حياً، أما بالنسبة إلى غيرهم فلكي يتم الحجةعليهم (الآيات: ٦٩-٧٠).

ويذكرنا السياق بالتوحيد الذي هو أساس كل عقيدة صالحة، فمن آمن بالله حقاً لم يطع الشركاء الموهومين، بل أطاع الرسول الذي أمر الله بطاعته فقط، أو لم يروا آنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً (ثم خولناهم التصرف فيها،وجعلناها ذلولاً يسخرونها) فهم لها مالكون؟ (و بعد ذكر نعم الله يوجههم إلى الشكر الذي من أبرز معانيه الإيمان بالله وطاعة رسوله، ولكنهم أشركوا) واتخذوا من دون الله آلهة (و هم يريدون جبر نقصهم بها) لعلهم يُنصرون، (والواقع أن العكس هو الصحيح) والآلهة لا يستطيعون نصرهم، بل إن المشركين لهم جند محضرون (الآيات: ٧١-٧٥).

ويخاطب السياق الرسول ليثبت فؤاده ولينذر الكفار، ويقول: لا يحزنك ما يقولون لك، إن الله يعلم سرهم وعلنهم (الآية: ٧٦).

ويعود السياق إلى الإيمان بالآخرة، وكيف يكفر بها هذا الإنسان الذي أسبغ الرب عليه النعم، ويخاصم فيها بكل صلافة، أفلا يرى الإنسان أنه مخلوق من نطفة (مهينة) فإذا به يصبح خصيماً لله؟! فهو يتقلب في نعم الله ويجادل في آياته (٧٧)، ويضرب الانسان مثلاً فيأخذ عظماً يفتته ويقول: من يحيي العظام وهي رميم؟! قل: يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم فالله يعلم أين ذهبت ذرات جسد هذا الشخص أو ذاك، وهو الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً لكم توقدون عليها مع أن النار باطنة فيها، وهو الذي خلق السماوات والأرض فهل يعجزه إرجاع البشر؟! كلا؛ وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء (و تعالى عما يصفه الجاهلون بالنقص والعجز. كلا؛ هو العلي المقتدر على بعث الإنسان) وإليه ترجعون (الآيات: ٧٨-٨٣).

وكلمة أخيرة؛ لقد ذكرت النصوص أن (يس) قلب القرآن، وهي -بحق- غرة السور المكيةالتي جاءت فيها حقائق الرسالة بصورة مركزة، مما يجعلها ركيزة الحياة للإنسان المسلم، لأنها حوت خلاصة دروس الحياة، وحكمة المرسلين، ومتطلبات الحضارة.

37

سورة الصافات

* آفاق العلاقة بين الخالق والخلق

تهدينا سورة الصافات بآياتها السامية إلى ذات الأفكار والحقائق التي كانت الآيات السابقة في سورة (يس) تؤكد عليها بإضافات أخرى، وأسلوب أدبي نفسي جديد.

تبدأ آياتها بذكر الملائكة التي تصطف انتظاراً لأمر الله تعالى، وبذلك سميت بسورة (الصافات)، كما تحدثنا الآيات الأخيرة منها عن الجن والملائكة، وشبهات الجاهليين حول علاقتهما بربهما، فقد زعموا بأن لهما علاقة نسبية بالله (الآية: ١٥٨)، وذهب بعضهم بعيداً؛ إذ قالوا بأن الجن نتيجة مباشرة لعلاقة زوجية بين الملائكة وربهم -تعالى عما يشركون-.

بينما تحدثنا السورة في أواسطها عن الأنبياء عليهم السلام، والعلاقة بين السياقين أن القرآن حينما بيّن خطأ الجاهليين الفظيع في تصورهم حول علاقة الملائكة والجن بالله كان لابد من الإشارة لنفس الخطأ الذي وقع فيه الآخرون عندما تصوروا بأن هناك علاقة مشابهة بين الله والرسل، انطلاقاً من تقييمهم للمعجز الذي طالما تكرر على يد الأنبياء عليهم السلام من دون الآخرين، فاتخذوا ذلك دليلاً على أنهم أبناء الله، ولهذا نجد الآيات تطيل الحديث حول هذا الموضوع مؤكدةً بأن نبوة هؤلاء لم تكن بأسباب ذاتية تكوينية فيهم،

إنما أعطاهم الرب هذه المنزلة الرفيعة لما وجده فيهم من عمق الإيمان،وصدق العمل، وشجاعة الإقدام، والإحسان إلى الناس. ولعل الحديث عنهم ﷺ في هذه السورة المباركة يتصل بهذا الجانب من حياتهم، نفياً للبدع الجاهلية.

من هنا؛ نستطيع القول بأن الخط العام لسورة الصافات هو بيان العلاقة السليمة بين الله عز وجل وسائر خلقه، التي تتجسد من جهته في الإنشاء، والخلق، والإبداع، والرزق، و... . أما ما دون هذه العلاقة، فإن هناك معراجاً واحداً يتقرب من خلاله الخلق لربهم، وهو الإيمان والعمل الصالح.

وحين نتدبر في جمل بصائر السورة تتجلى لنا المسؤولية بأظهر صورها، والتي تصعقنا عند قول الرب: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

فالشرك بالله من خلال الاعتقاد بربوبية الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفة الأخرى، له مبرر نفسي، وهو محاولة التملص من المسؤولية.

ويوم القيامة، هو يوم ستتجلى فيه المسؤولية بشكل واضح وأكيد، حيث الصيحة العظيمة؛ فإذا بالظالمين قيام ينظرون عذاب الله، وهناك تتجلى المسؤولية التي طالما تهربوا منها في الدنيا، فتسقط تبريراتهم التي زعموا بأنهم قادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

ويبقى أن من أبرز أدّلة المسؤولية في الدنيا، وجود الجزاء. فلو كنا في مجتمع يحكمه الظلم، ثم سكتنا عنه، فشملنا الذل والبلاء، فإن ذلك دليل مسؤوليتنا عن الوضع، حتى لو بررنا ذلك بثقافة الجبر أو فلسفة الانتظار.

ومحور المسؤولية هو الذي يوصل محاور السورة ببعضها، وأبرزها ثلاثة محاور:

الأول: نفي الأنداد الذين يتخذهم الجاهلون آلهة لعلهم ينصرون. إن غايتهم من عبادة الآلهة التنصل من جزاء أفعالهم،ولكن هيهات! فالملائكة صافون لربهم صفاً، والشياطين محجوبون عن السماء، وترصدهم الشهب، والمستكبرون محضرون لحساب عسير.

الثاني: الأنبياء والأولياء عليهم السلام عباد الله المكرمون، فلا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يمكن التعويل عليهم لمواجهة سنن الرب،كيف وإنما بلغوا درجاتهم هذه بأنهم عباد الله المخلصون، الذين أخلصوا ولاءهم لقيادتهم الشرعية، وأخلصهم الله سبحانه من شوائب الشرك وآثار الضغوط الإجتماعية والتاريخية.

الثالث: نسف قواعد التبرير التي يعتمد عليها المجرمون في اقتراف المآثم، حيث يزعمون أنهم كانوا مجبورين.

وتتصل الصور التي ينقلها القرآن إلينا من يوم المسؤولية والجزاء بهذا المحور.

والنسق القرآني يجعل المحور الأول والأخير متدرجين، ثم يذكر بالمحور الثاني الذي يأتي كشاهد مبين لهما، ذلك أن القرآن يضرب للحقائق الأمثال، ومن أروع أمثلته حياة الأنبياء عليهم السلام، الذين أمرنا بأن نسلم عليهم بكرة وعشياً،ليتخذهم المؤمنون قدوةً مناراً، كالنبي إبراهيم عليه السلام الذي كان من شيعة شيخ المرسلين نوح عليه السلام.

وحينما يبين لنا القرآن المجيد حقيقة أو حكماً، لا يلبث أن يضرب لذلك أمثلة عديدة، ليس للإيضاح فحسب، إنما لبيان الأبعاد والحدود أيضاً، ذلك لأن النفس البشرية قادرة على تحوير الألفاظ وتفريغها من معانيها الحقيقية، وتحويلها إلى ألفاظ قشرية غير مؤثرة، بل وقد تعطي معانٍ غريبة عن المعنى الحقيقي.

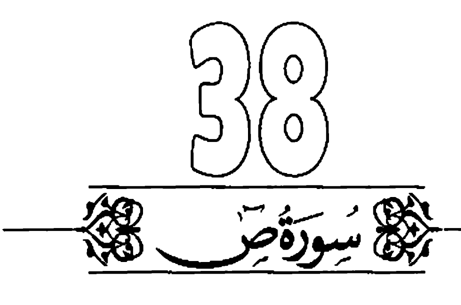
فلكي لا يأتي بعض المفسرين القشريين، أو بعض من تسوّل لهم أنفسهم تبرير الأفعال والانحرافات للناس، ويفسروا القرآن على أهوائهم وآرائهم، لم يترك ربنا كلمة في القرآن الحكيم إلا وأوضحها بالأمثلة التاريخية التي لا يمكن نكرانها أو تبديلها وتأويلها إلى غير مضامينها.

ويبدو أن القرآن الكريم أراد أن يبين المعنى الحقيقي والواقعي للتشيع، الذي هو رفض الجبت الداخلي بالتوحيد الخالص، ورفض الطاغوت الخارجي بمقاومة الانحراف الاجتماعي والسياسي والثقافي و... في الواقع القائم، والذي هو صورة ظاهرية للجبت الداخلي، ثم التسليم لله والتضحية والاستقامة في سبيله.

ثـم يذكرنـا الله عـز وجل في النهايـة بالمعنى الحقيقـي للإخلاص، وهـو أن يكون الإنسان بعيداً عن العوامل والضغوط المضادة للحق.

فالمجتمـع في بعض الأحيـان يعصر المؤمنـين، ويضغط عليهم باتجـاه، وطاعة الله والأهـداف التـي يتطلعون إليها تضغطعليهـم باتجاه معاكس. فيكـون واجبهم التحدي بالإيمان والتوكل، وأن يعرفوا بأن عنوان نبوة الأنبياء والمرسلين وأبرز أعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتماعي الفاسد، وأن نجاحهم في هذا التحدي هو سبب سموهـم.

وفي الآيـات الأخـيرة يلخـص ربنا عِبَرَ هذه السـورة، ومـن أظهرهـا أن عباد الله المخلصين هم الذين أخلصهم ربهم وأخلصوا أنفسـهم له، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.



* الشرك أساس الضلالات

الـشرك بالله إطار لكل الضلالات والجرائم، ولجميـع الذنوب والأخطاء، وتكاد سـور القرآن جميعاً تعالج هذا الداء الذي هو جذر كل داء، إلا أن عوامل الشرك عديدة، والمعالجات القرآنية مختلفة بحسبها.

فمـن أهـم العوامـل التي تدعـو الناس إلى الكفـر بالرسـالة، ومحاربتهـا، وبالتالي الانحـراف عن الخط المسـتقيم، هو تقديس الواقـع القائم، أو ما يسـمى بالتقليد، حيث يعتقد المجتمع بأن (ما لم يكن لا ينبغي له أن يكون)!.

فالواقع شيء قائم، بينما الرسالة فكرة جديدة.

ثـم إن أصحاب المصالـح -على اختلاف مشـاربهم- يدافعون عـن الواقع القائم ويهاجمون الرسالة، خشيةً على مصالحهم.

وربما يكون الدفاع عن الواقع إصرار أعمى وعناداً جاهلاً..

وإننا نستلهم من خلال التدبر في آيات هذه السورة الكريمة (سورة ص) على أنها مـن جملة القرآن الذي يشـتمل على الذكـر والتذكير، ويعالج الحالـة الشركية التي تخلقها

السلطة، والثروة، والشهرة في نفس الإنسان، فإذا به تأخذه العزة بالإثم، وينطلق في سبيل الشقاق عن الحق، وعبادة آلهة القوة والغنا، رغم عظمة القرآن وقدرته الهائلة على التغيير والتأثير على الإنسان.

في افتتاحية هذه السورة نقرأ: إن الذين كفروا في عزة وشقاق، وسرعان ما ينذرهم الرب بمصير الذين أهلكهم من قبل، ويذكرنا بمحور ضلالتهم، حيث أنهم تعجبوا من حذف الآلهة، والأمر بعبادة إله واحد، كما أنهم استهانوا بالرسول انطلاقاً من مقاييسهم المادية.

ويعالج القرآن هذه الحالة ببيان حقارة ما يملكون (من قوة ومن غنىً)، إذا قيس بملك السماوات والأرض،وبخزائن رحمة الرب العزيز (الآيات: ١-١١).

أما خاتمة السورة؛ فتذكرنا بقصة إبليس الذي رفض السجود لأبينا آدم عليه السلام اعتزازاً بعنصره الناري، وكيف أن هذه العزة الآثمة كانت وراء هلاكه وهلاك تابعيه إلى يوم القيامة، حيث يحشرون في نار جهنم حشراً (الآيات: ٧١-٨٨).

و بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة يسرد السياق نمطين من القصص:

الأول: قصص المكذبين الهالكين يشير إليها مجرد إشارة (الآيات: ١٢-١٦)، بينما يفصل القول في النمط الثاني الذي وهب الله لهم الرب ملكاً واسعاً، وثروة عريضة، ولكنهم لم يغتروا ولم يشاقوا الله بها كداود وسليمان عليهما السلام، ثم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ويبين أنهم فازوا بنعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة، بالإضافة إلى الذكر الحسن عبر التاريخ (الآيات: ١٧-٥٤). وفي مقابل هؤلاء يذكرنا السياق بمصير المكذبين الذين أقحموا في نار جهنم ليتخاصموا مع بعضهم، وبالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين (الآيات: ٥٥-٧٠).

ومن خلال قصص الأنبياء وتقديرهم، وبيان الحكومات العادلة التي أقاموها في الأرض، وبالذات قوله الله عز وجل لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ومن خلال بيان هلاك إبليس بسبب رفضه السجود لآدم عليه السلام، وبيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكبرين،نستطيع -من خلال كل ذلك- أن نعرف أن

مراد السورة بيان زيف السلطات القائمة على أساس القوة والثروة، وسائر القيم المادية الأخرى، وضرورة إقامة حكومة العدل الإلهية القائمة على إساس أمر الله وخلافته، وأن أساس الولايات الباطلة العزة والشقاق، بينما أساس الولاية الربانية الحق.

إن فتنة القوة في الحياة؛ فتنة كبيرة وخطيرة، ومن تخلص من غرورها، فإنه يتغلب على سائر الفتن بصورة أسهل.. ذلك أن الإنسان يقتحم الصعاب ويركب الأهوال والمخاطر من أجل السلطة، فإذا تنازل عنها أو بلغها ولم يسخرها إلا في سبيل الخير، فإنه آنذاك سينتصر على أهوائه وعلى الضغوط المحيطة به.

وفي الوقت الذي حدثتنا هذه السورة عمن صرعتهم هذه الفتنة فراحوا يعتزون بقوتهم ويتحدون ربهم ويعتزون بآلهتهم التي تمثل رموز ومظلات سلطتهم، ويخالفون ولاية الله باسمها، وهم الملأ من الكفار، يضرب لنا هذا الدرس القرآني مثلاً حياً من واقع النبي داود عليه السلام الذي تجاوز هذه الفتنة رغم امتلاكه القوة الظاهرية.

ونستوحي من إعطاء الله السلطة وولاية الأمر لداود عليه السلام بعد استقامته على الحق، أنه تعالى لا يعطي ولايته إلى كل سلطان، إنما للذين يمتلكون ناصية الملك ولا تمتلكهم.

وتعالج آيات أخرى من السورة موضوع الصبر الذي اشتهر به النبي أيوب عليه السلام ولكن في إطار الحديث عن العلاقة السليمة بالسلطة والثروة والعافية، هذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر، فلا يستبد به الغرور إذا رزق منها شيئاً، ولا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

ثم تضرب لنا الآيات التي تليها مثلاً من واقع أصحاب النار الذين عصوا الله وحاربوا المؤمنين وطغوا في الأرض.

وفي الآيات الأخيرة من السورة -وكعادة القرآن الكريم- يؤكد السياق على الموضوع الأساسي فيها، وذلك ضمن بيان ما جرى بين رب العالمين والملائكة، ثم بينه وبين إبليس. ومغزاه الكشف عن طبيعة الإنسان والأسباب الحقيقية التي تهبط به وترديه، فإذا به وقد كرّمه الله تعالى على كثير من الخلق ينتهي إلى أسوءِ مصير.

39

سُورَةُ الزُّمَر

* الإنسان؛ العمل والانتماء

من الناس من ينبهر بتفوق الأنبياء والأولياء على غيرهم بالعزم والتقوى والعلم والاجتهاد، فيزعم أنهم أبناء الله،فتهون في عينه الذنوب، اعتماداً على شفاعتهم.

فبعد أن يوجه القرآن أنظارنا إلى نفسه، وأنه تنزيل من الرب العزيز الحكيم، ينعطف إلى الموضوع الرئيس لهذه السورة، ألا وهو نفي شراكة الأولياء لرب العزة، وضرورة إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

وتتصدى سورة (الزمر) لهذه العقيدة الفاسدة لتكتمل صورة التوحيد النقي لدينا، بعد أن تصدت سورة (الصافات) للعقيدة الفاسدة التي زعمت الملائكة أبناء الله، وسورة (ص) تصدّت لآلهة السلطةوالثروة المزيفين.

كما يبيّن السياق الحديث عن الشرك بالله، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيباً إليه دون الأنداد، ويحتج عليه بحجةوجدانية بالغة، هي أن الأنداد لا يضرون شيئاً ولا ينفعون.

ولأن محور سائر العقائد الفاسدة محاولة الهروب من المسؤوليات، فإن هذه السورة تعالج ذلك بحجج تترى، تتخللهاصعقات شديدة تهز أعماق الضمير.

مـن هنـا؛ نجد القرآن العظيـم يحدثنا في قضية التوحيد عـن ضرورة التخلص من الشرك، وفي كل مـرة يحدثنا عن بعـض ألوان الشرك، ثم إن النـاس في خضوعهم للمادة مختلفـون، فمنهم مـن يخضع بكل صراحة، ومنهم من يستخدم سـلاح التبرير. وهكذا كان نسف قواعد التبرير مـن أبرز الأهداف القرآنية. وبـما أن التبريرات تختلف من قوم لآخرين، بل حتى بين الأفراد أنفسهم الذين ينتمون إلى مذهب شركي واحد، لذا؛ يعالج القرآن الحكيم كل تبرير بصفة مستقلة ومختلفة.

ويسـتمر السـياق القرآني لهذه السـورة في بيان نموذجين من الناس، ويوازن بينهما لنعـرف أنهـما ليسـا سـواءً في الجزاء؛ ولكـي يزيدنا وعيًـا بهـما وازن بين النـور والظلام، والصلاح والفسـاد، ووضح الفوارق بيّنهما. كما بينت السـورة خصائص القرآن، وكيف تتلقاه النفوس الطيبة، وكيف يضرب الله فيه من كل مثل للناس لعلهم يتذكرون.

وحينما يشرح الله صفات القانتين -وهم أئمة الهدى- وميَّزهم عن أصحاب النار من أئمة الكفر، عاد إلى بيان أشياعهم؛ فهناك من يجتنب الطاغوت، ويستمع القول فيتبع أحسنه، وهناك من حقّت عليه كلمة العذاب.

ثم تذكرنا الآيات بالعقل الذي هو لب الإنسان، الذي يهدي الله به قوماً، فيجعلهم من أصحاب الجنة. ويوقظ العقل بآيات الله في الخليقة، حيث يذكرنا بالدورة النباتية التي تبدأ بنزول الغيث واختزان الماء في الينابيع وإخراج الزروع المختلفة، وتنتهي بالحطام.

وتعالج السـورة موضوعاً هاماً آخر، وهو شرح الصدر إلى الإسلام، والتسليم لله ولسننه وشرائعه في الحياة، ليكون الإنسان على نور وبينة من ربه.

وتهبط آيات القرآن كالصاعقة على القلب الغافل، فتفجر فيه طاقات الفهم، وتثير فيـه دفائن العقـل، فتهديه إلى حقيقة الموت الذي يقف لكل حيٍّ متربصـاً، ولكن الموت أهـون المراحل التي تنتظره، فوراءه ما هو أعظم، كالاختصام والحسـاب والكتاب وربما العذاب الأبدي الكبير.

وفي مقطع من مقاطع هذه السورة، يذكّرنا ربنا برحمته الواسعة، وإلى أي مدىً يمكننا الاستفادة منها. أو ليس الله أنعم علينا برزقه الواسع، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة؟

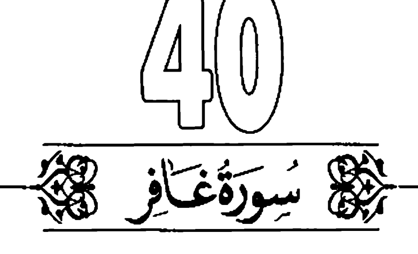
إن آيات الله في الكون، ليست دليلاً -فقط- للإنسان على وجود الله، بل وطريقاً إلى معرفته المعرفة الأسمى أيضاً. وعلى الفرد أن لا يكتفي بدرجة من الإيمان، بل يتابع مسيرته التكاملية حتى يصل إلى درجة العرفان. وللعرفان أيضاً درجات، فكلما تفكر الواحد في آيات الله في الآفاق وفي نفسه، والتحولات والتغيرات التي تحدث لديه، ازداد يقيناً ومعرفة حتى يبلغ الحد به أن يقول كما قال الإمام علي عليه السلام: «لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً»[1].

وبعد ذلك تفتح الآيات لنا باباً من أبواب يوم القيامة الذي لا سبيل للخلاص من عقباته وعذابه إلا بالتوحيد والتقوى. أما الشرك؛ فإنه يحبط أعمال الإنسان ولو كانت من النبي صلى الله عليه وآله على عظمة درجته ومنزلته (الآية: ٦٥).

وختاماً؛ نود القول بأن تسمية هذه السورة بالزمر قد تكون بداعي أن الله أراد الإيحاء للناس بطبيعة التفاعل بين أبناء المجتمع، وأن مقاس الحق هو أعمالهم وانتماءاتهم.. فالناس إما يساقون إلى النار أو إلى الجنة في يوم القيامة. وهذا المقياس أساسي في حياة الإنسان. فهو إذا أراد أن يعرف نفسه، أو أراد الآخرون أن يعرفوه، فما عليه وعليهم إلا معرفة الذين ينتمي إليهم اجتماعيًّا وعمليًّا، فإن كانوا صالحين، كان منهم، وإن كانوا منحرفين، فهو كذلك أيضاً.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٥٣.



* عواقب التكذيب بآيات اللّه

اشتهرت هذه السورة باسمين:

١- غافر؛ لما فيها من ذكر كرامة الله للمؤمنين، واستغفار حملة العرش لهم.
٢- المؤمن؛ لما فيها من تفصيل قصة مؤمن آل فرعون، ولما فيها من ذكر إكرام الله له ولسائر المؤمنين.

إن الغاية السامية التي تسعى آيات هذه السورة نحوها بحق، هي التذكرة بأسماء الله الحسنى لتزداد النفوس العامرة بالإيمان عرفاناً بربها الكريم، ولتتم الحجة على الكافرين.

و لقد تجلى ربنا العظيم في آيات كتابه الكريم جميعاً، ولكن كما الشمس -وتعالى الله عن الأمثال- تتجلى في كل أفق تجليات بديعة و جديدة، فإن لكل سورة تجلياتها الخاصة بها. وهكذا في هذه السورة حيث عَرَّفَت فاتحة السورة ربنا العظيم بأنه غافر الذنب (ومن هنا جاء أحد اسمي السورة)، وأنه قابل التوب شديد العقاب ذو الطول (الآيات: ١-٣) ثم (في الآية: ١٥) ذكر اسم رفيع الدرجات ذي العرش وأنه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ثم جاء (في الآية: ٦٥) أنه سبحانه هو الحي لا إله إلا هو.

و جاء في (الآية: ١٣) و(الآية: ١٨) أنه سبحانه يرينا آياته (ويعرفنا نفسه عبرها).

ونتساءل: فلماذا -إذا- لا نعرف ربنا عبر تلك الآيات المبصرات؟! ويعرف الجواب حقاً من يرهف سمعه لكلام ربه، حيث إنَّ منهج القرآن هو تصفية العقبات النفسية قبل إلقاء البصائر ببلاغة نافذة، وحجة تامة،وخطاب فصل مبين.

وقد تركزت آيات السورة في هذا التوجه، حيث نجد التحذير من الجدال في آيات الله أربع مرات، تُعَدُّ كل مرة عنواناً لسلسلة من البصائر والحديث الشافي الذي يطهر القلب من العقبات التي تمنع من الوصول إلى الإيمان، وذلك عبرالترتيب التالي:

أولاً: في البدء نجد تحذيراً من الجدال عبر التذكير بعاقبة الجدال السوءى، ثم نتلوا بياناً لطائفة من آيات الله التي تهدف إقامة الحجة على الكافر، وزيادة إيمان ومعرفة الذي ألقى السمع، وسلم للحق.

دعنا نستعرض جانباً من هذا المنهج، وفي ذات الوقت نجمل الحديث حول موضوعات السورة، ضمن هذا الإطار،وهو إعداد القلب لتقبل آيات الذكر.

(الآيات: ٤-٦) تنعت المجادل في آيات الله بالكفر والغرور، وتحذر من عاقبة سيئة له مثل التي كانت لقوم نوح والأحزاب.

و(الآيات: ٧-٩) تبشر المؤمنين الذين يسلمون لآيات الله بأنهم مكرمون عند الله وعند حملة العرش من ملائكته، الذين يدعون لهم بالوقاية من النار، ودخول الجنة، وحفظهم من السيئات.

وهكذا لا يكتفي المنهج القرآني بالإنذار، بل يقرنه غالباً بالتبشير.

ويعود السياق إلى التحذير من الكفر (والجدال) بأن صاحبه مخزي ممقوت، وسيندم حيث لا ينفعه الندم (الآيات: ١٠-١٢).

وهكذا تتهيأ النفوس لاستقبال آيات الله من دون الجدال الباطل فيه، فيبيِّن السياق طائفة منها مع الأمر بإخلاص الدين له وتوحيده وأنه رفيع الدرجات (أسماء الله) وذلك عبر (الآيات: ١٣-١٥).

ويعود السياق إلى التحذير من مغبة الجدال في يوم القيامة (الآيات: ١٦-٢٠) مع

التذكرة بأسماء الله التي تتجلى في ذلك اليوم الرهيب.

ويذكرنا بمصير الكفار في الدنيا، وكيف أخذهم الله -على شدة قوتهم ومكاسبهم الكثيرة- كل ذلك لأنهم جادلوا في آيات الله، وكفروا بالبينات التي جاء بها رسله (الآيات: ٢١-٢٢).

ويضرب القرآن مثلاً على عاقبة الجدال في آيات الله والذي يساوي الكفر مما انتهى إليه أمر فرعون وقومه، كمايضرب مثلاً للذين آمنوا بآيات الله من العاقبة الحسنى التي فاز بها مؤمن آل فرعون.

ويفصل الكتاب ذات الحقائق من خلال حوار ساخن بين موسى عليه السلام (الرسول) وهارون عليه السلام (وزيره) والمؤمن (الذي صدَّق بهما) من جهة، وبين فرعون (الطاغية) وهامان (وزيره) وقارون (الذي اتبعهما) من جهة أخرى، وتحول الحوار إلى صراع، وانتهى الصراع بمصرع آل فرعون، وتدمير حضارتهم، وعذابهم بالغدو والآصال في البرزخ، وإقحامهم والتابعين في جهنم، وساءت مصيراً.(الآيات: ٢٣-٣٤).

وتتجلى في السياق صورة مؤمن آل فرعون مثلاً رائعاً لشخصية المؤمن الصلبة ونفاذ بصيرته، وقدرته الربانية على تحدي الطغيان المادي، مما جعلت اسمه عنواناً لهذه السورة الكريمة.

ثانياً: وخلال الحوار والصراع والتحدي يذكرنا الكتاب مرة ثانية بقضية الجدال في آيات الله وكيف ينتهي بصاحبه أن يطبع الله على كل قلبه، ويمسي كفرعون الذي بلغ به الغرور الأهوج حداً قال لوزيره هامان: ابنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، ومضى في طريق الغواية حتى النهاية البائسة، بينما دعا الصدِّيق إلى اتباع نهجه الذي هو نهج الرشاد (الآيات: ٣٥-٣٨)، وركزَّ على مسؤولية البشر عن أعماله ومواقفه، ثم فوض أمره إلى الله بعد أن تحداهم بقوة، وكانت العاقبة أن الله وقاه من سيئات ما مكروا، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب، ولم يفلت المستضعفون من العاقبة ذاتها التي كانت للمستكبرين، لأنهم جميعاً جادلوا في آيات الله وعصوارسله (الآيات: ٣٩-٥٠). أما رسل الله والذين آمنوا فإن الله ينصرهم في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، إلا أن عليهم الصبر والاستغفار وأن يسبحوا بحمد الله بالعشي الابكار (الآيات: ٥١-٥٥).

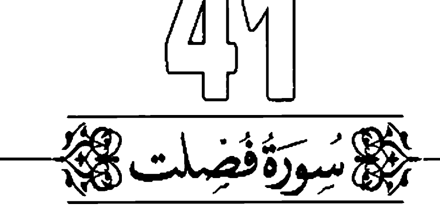
ثالثاً: وفي المرة الثالثة يحذِّرنا السياق من الجدال في آياته، مبيِّناً -هذه المرة- الجذر النفسي لهذه اللعنة التي تصيب القلب، وهي الكبر الذي لن يبلغه صاحبه. وبعد أن يأمرنا بالاستعاذة بالله العظيم يهدينا إلى عظمة خلق الله للسماوات والأرض، ويوحي إلينا أن الكبر عمى والإيمان بصيرة، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم يأمرنا بالدعاء لأنه شفاء من الكبر (الآيات: ٥٦-٦٠).

وحسب المنهج القرآني الفريد، فإن الله يلقي على الأفئدة السليمة آياته (الآيات: ٦١-٦٢) ثم يحذِّر من الجحود بها، لأن من يجحد بها يؤفك عن الحق (الآية: ٦٣). ويعود يذكرنا بآياته المبصرة، وبأنه الحي الواحد، ويأمر رسوله بتحدي آلهة الزيف، ويذكرنا بأنه يحيي ويميت (الآيات: ٦١-٦٨).

رابعاً: ينهى عن الجدال في آيات الله (الآية: ٦٩) وينذر الذين كذبوا بالكتاب بأنهم سوف يعلمون أي جريمة اقترفوا، وذلك حين توضع الأغلال في أعناقهم وفي السلاسل يُسحبون.(الآيات: ٧٠-٧١).

وكذلك يعالج داء الجدال بالتحذير من عاقبته الأخروية (الآيات: ٧٢-٧٦)، ويُجمل السياق في خاتمة السورة بصائرها، من الأمر بالصبر (الآية: ٧٧) اتباعاً لسنة الأنبياء عليهم السلام، والتحذير بعاقبة الاستهزاء (الآية: ٧٨) والتذكرة بآية الله في خلق الأنعام، والأمر بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين، وكيف دُمِّروا فلم يغن عنهم ما كانوا يكسبون، وذلك أنهم حينما أنذرهم الرسل فرحوا بما عندهم من العلم، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (الآيات: ٧٩-٨٣). بلى؛ إنهم آمنوا في اللحظة الأخيرة حين رأوا بأس الله، ولكن سنَّة الله جرت بألا ينفع الإيمان في ذلك الوقت، وأنه قد خسر هنالك الكافرون (الآيات: ٨٤-٨٥).

وكلمة أخيرة: إن الحقائق الكبرى الثلاث التي تحيط بالخليقة (التوحيد والبعث والرسالة) شواهدها وآياتها مبثوثة في الآفاق والأنفس، إلا إن حجباً سميكة تغطي البصائر عن رؤيتها والتفاعل معها، وتؤدي إلى الجدال في آياتها ودلائلها، والقرآن الكريم شفاء للقلب من تلك الحجب، وفي هذه السورة المباركة نجد نهجاً بديعاً وشفاءً سريعاً، وعلينا فقط أن نلقي السمع إلى آياتها بلا جدال.



* العلاقة بين آيات الطبيعة وعبر التاريخ

تفتتح السورة ببيان عن القرآن الذي فصلت آياته ببلاغة نافذة تنفع العلماء الذين تبشرهم بالحسنى، كما تنذر المعرضين الذين لا يسمعون آياته (الآيات: ١ - ٤).

وتلخص هذه الفاتحة المحاور الآتية للسورة:

المحور الأول: الجحود والإعراض والاستكبار الذي ابتلي به أكثر القوم حتى زعموا أن قلوبهم في أكنة فلن تهتدي أبدا، ويذكر السياق عوامل هذه الحالة الشاذة، ويعطي وصفة العلاج لها.

ويقارن الذكر بين هذه الحالة الموغلة في الضلالة، وما عليه المؤمنون الذين استقاموا فتنزلت عليهم الملائكة، واشتغلوا بالحمد والتسبيح لله بلا كلل ولا سأم. وتكاد تكون هذه المقارنة أبرز سمات هذه السورة المباركة، فإذا تلونا في (الآية: ٥) قول الجاحدين ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ متحدِّين بكل صلافة الرسالة الإلهية، فإننا نتلو في (الآية:٦) التالية، قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ ليتحدى المؤمنون صلافة الجاحدين بما يفوق إصرارهم، ويهزم عنادهم!

وحين نقرأ في (الآية: ٢٥): ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ حيث يبيّن القرآن مدى شقاء هذه الطائفة الجاحدة حتى لزمتهم كلمة العذاب، فإننا نقرا في (الآية: ٣٠): ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾. فهناك قرناء السوء، وهنا أولياء الرحمة. وأخيرا حين يبيّن السياق في (الآية:٣٨) استكبار أولئك الجاحدين، يبيّن أن من عند الله لا يسأمون عن التسبيح.

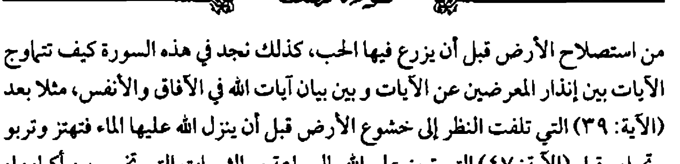
ولمعالجة حالة الإعراض عن الذكر والجحود في آيات الله ينذرهم الرَّب في دنياهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (الآيات: ١٣-١٨)، كما ينذرهم في عقباهم بنار السعير في يوم تشهد عليهم جوارحهم (الآيات: ١٩-٢٢).

ويشير السياق إلى بعض عوامل الإعراض كالظن السيئ بالله، وقرناء السوء، واللغو في القرآن (التضليل)، ويحذر مرة بعد مرة من العذاب الشديد الذي ينتظر الجاحدين حتى إنهم يبحثون هنالك عمن أضلهم من الجن والإنس ليجعلوهم تحت أقدامهم (الآيات: ٢٣-٢٩). كما يبشر الذين يذكرون ويستقيمون على الذكر بالسداد والنصر في الدنيا، والجنة والرضوان في الآخرة.

المحور الثاني: التذكرة بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، حيث يبين القرآن هنا قصة خلق الكائنات في أيام أو مراحل (الآيات: ٩-١٢) وأن من آياته الشمس والقمر حيث يدعو إلى نبذ السجود لها، و إنما التوجه إلى خالقها بالسجود والتسبيح، وأن من آياته إحياء الأرض بعد موتها، وهو الذي يحيي الموتى (الآيات: ٢٧-٣٩) ويرد إليه علم الساعة، وما تخرج من الثمرات من أكمامها (الآية: ٤٧). ويستعرض جانبا من أطوار النفس البشرية حيث ترى الإنسان لا يسأم من دعاء الخير، ولكنه إذا مسه الشر تراه يؤوسا قنوطا، وحين يرزق نعمة يفقد من الفرح توازنه، وإذا أصابه السوء فهو ذو دعاء عريض (الآيات: ٤٩-٥١).

وكما هو منهج القرآن البديع في سائر السور حيث يوصل الآيات الشاهدة على الحق بالإنذار من الإعراض عنها، ذلك أن بيان الآيات لا يجدي الجاحد نفعا، فلا بد إذا





من استصلاح الأرض قبل أن يزرع فيها الحب، كذلك نجد في هذه السورة كيف تتماوج الآيات بين إنذار المعرضين عن الآيات و بين بيان آيات الله في الآفاق والأنفس، مثلا بعد (الآية: ٣٩) التي تلفت النظر إلى خشوع الأرض قبل أن ينزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتحيا، وقبل (الآية: ٤٧) التي تبين علم الله بالساعة و بالثمرات التي تخرج من أكمامها، نجد (الآيات: ٤٠-٤٦) تنذر الذين يلحدون في آيات الله أنهم لا يخفون على الله، وأن الذين كفروا بالذكر لا يفلحون، لأنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم يذكر بعض أعذار الجاحدين من قبل ومن بعد الرسول.

وتتميز السورة بقوة الطرح، وشدة نبرات السياق، وبخاصة فيما يتصل بالإعراض والجحود في آيات الله، كما تتميز بالمفارقة الحادة بين طرفي الصراع، بين من يصر على الجحود ومن يستقيم على الطريق.

42

سورة الشورى [١]

* الشورى علاج الاختلافات

في الوقت الذي تختص كل سورة في القرآن بمحور يفردها عن بقية السور، تراها كلها تلتقي حول محور مشترك واحد، لذلك فإن من الصعب على المتدبر أن يميز بينها، لأنها جميعاً تنطلق من قاعدة واحدة؛ لتنتهي إلى هدف واحد، تنطلق من معرفة الله، وتنتهي إلى الإيمان به وعبادته، فآياتها متشابهة كما يصف القرآن نفسه بذلك، إلا أن المتدبر يجد لكل سورة محوراً يتميز بما يلي:

أولاً: إن كل القضايا المتعلقة واقعياً بذلك المحور تكون مبحوثة في السورة، بالرغم من أنها -وبالذات في السور الطويلة- تبدو مختلفة أو حتى متباينة، إلا أنها مادامت تتصل بذلك المحور تبحث في السورة، لأن المعالجة القرآنية للمحاور هي معالجة شاملة تسع جميع جوانب القضية.

ثانياً: إن القرآن لا يعالج القضايا معالجة نظرية، بل يودع ضمن آياته الكريمة القوة التنفيذية اللازمة لعلاجها؛ فهو لا يكتفي ببيان القانون العلمي أو الحكم الشرعي للقضية مجرداً، بل يشفعه بتوجيه الإنسان وتذكرته، مستخدماً من أجل ذلك شتى الوسائل، ومن أبرزها التذكرة بالله وبالآخرة، وإثارة العقل، والترهيب، والترغيب،

وحتى التصوير الفني،الذي يدعو قارئ القرآن إلى تطبيق أوامره وتعاليمه.

ونجد محور هذه السورة معالجة الخلافات البشرية.. لماذا يختلف الناس؟ وما هي حدود الاختلافات الطبيعية بين البشر؟ وما هي جذور الخلاف؟ ثم ما هو علاج الخلاف؟.

وإنما سميت هذه السورة بالشورى، لأن الشورى تُعَدَّ بعد الوحي أفضل علاج للاختلاف.

والقرآن لا يبدأ السورة بالحديث عن الشورى، بل يبدؤها بالحديث عن الوحي، لأن الوحي هو محور المجتمع الإسلامي، وأساس وحدته، ذلك لأن أي مجتمع يقوم على أساسين:

الأول: وجود شريعة، أو كتاب، أو منهج متكامل، وفي أمتنا الإسلامية يجسد القرآن هذا الأساس.

الثاني: وجود القيادة الصالحة التي تحدد معاني الكتاب، وتستنبط الأحكام منه، وترسم المنهج السليم للحياة به.

وهذا ما يفسر ابتداء السورة بذكر القرآن وانتهائها إلى ذكر الرسول، وبين هذا المبتدأ وذلك المنتهى تبصّرنا آياته بلطائف القيم المباركة في الوحدة. وفيما يلي نستوحي تفصيلاً لهذا الموجز:

فاتحة السورة تذكرنا بالوحي الذي يلقيه الله العزيز الحكيم مليك السماوات والأرض العلي العظيم، وكفى بالوحي عظمة أن السماوات والأرض يكدن يتفطرن من فوقهم من عظمة ربهن أو من كلماته. أما الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم، ويشفقون على من في الأرض -بالذات المؤمنين منهم- فيستغفرون لهم، لأنهم يرون جانباً من عظمة ربهم، والله غفور رحيم (الآيات:١-٧).

وهذه الفاتحة تنسجم مع خاتمة السورة التي تبين صفات الوحي، حيث لا يتلقاه البشر إلا إلهاماً أو من وراء حجاب أو عبر رسول من عند الله، وأنه قد هبط إلى الرسول

الـروح، ومن قبـل لم يكن النبي يدري ما الكتاب ولا الإيـمان، أما اليوم فعنده نور يهدي به الله من يشـاء إلى صراط مسـتقيم، وهـو صراط الله الذي إليه ترجـع الأمور (الآيات: ٥١-٥٣).

وبـين هـذه الفاتحـة وتلك الخاتمـة اللتـين تتحدثان عن محـور المجتمع الإسـلامي وصبغته الأساسـية، وهو الوحي، تجري آيات الذكر في تبيين أسس الوحدة في الأمة، بل وترسي هذه الأسس ببصائرها ونذرها وبشائرها. كيف؟.

ألف: تقسم (الآية: ٨) الناس فريقين؛ من هداه وأدخله في رحمته، والظالمين الذين مالهم من ولي ولا نصير. وبعد أن يحدد القرآن الصفة الرئيسـة للظالمين وهي الشرك بالله -الذي يُعَدُّ جذر كل فساد- يثبت مبدأ التحاكم إلى الله في الاختلاف، وبالذات إلى وحي الله ومن نزل عليه الوحي أو استوعبه، والإنابة إليه، والتوكل عليه (الآيات: ٩-١٠).

بـاء: ويذكرنـا السـياق -بعدئذ- بأن الله الـذي فطر السـماوات والأرض، خلق النـاس والأحيـاء أزواجاً ليكون نسـل النـاس بذلـك. فالاختلاف حقيقـة واقعة، وهو في حـدود التكامل مفيد. كما أنه سـبحانه بسـط الرزق بين الناس بقدر ما يشـاء حسـب حكمته، فلا يجوز أن نسعى للتساوي المطلق بينهم (الآيات: ١١-١٢).

جيـم: والديـن محـور الوحدة، ولكـن بشرط ألا نتفـرق فيه، وهذه وصيـة النبيين أولي العـزم نوح ومحمد وإبراهيم وموسـى وعيسـى عليهم السلام. أما سـبب الاختلاف فليس هـو الدين، بل أهواؤهم التي تنـزع نحو البغي، وما أعظمها من جريمة تنزل نقمة الرب لولا أنه أخرها إلى أجل مسمى، ويبقى الرسول ومن بعده خلفاؤه محوراً للوحدة، وعليه أن يسـتقيم عـلى الحق بعيداً عن أهوائهم المختلفة، مؤمناً بـكل الكتب، وعادلاً في الحكم بينهم، وألا يكرههم، بل يلزمهم بما ألزموا أنفسهم به (الآيات:١٣-١٥).

دال: أمـا الذيـن يجادلـون في آيـات الله ويرفضـون أحكامـه من بعد ما اسـتجاب المؤمنون له، وأقاموا المجتمع المسلم، فإن حجتهم داحضة، وعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد، وتطالهم العقوبات إذ رفضوا أحكام الله، أوليس قد رفضوا الكتاب الذي أنزله الله، والميزان الذي جعله سبيلاً للعدالة؟ وهو الإمام أو أحكام القضاء أو قيم العقل

أو هي جميعاً؟

وبعد أن يحذِّرهم الله الساعة التي يشفق منها المؤمنون، ويقول: بأن الشاكين فيها في ضلال مبين، يذكر بأن الله هو الرزاق، وأن مخالفة الحق لا تجلب رزقاً، وأن من يترك الحرام من الدنيا، ولا يثير الصراع من أجل لقمة الحرام، يعوِّضه الله في الآخرة كما يرزقه في الدنيا، بينما الآخر لا نصيب له في الآخرة وربما يفقد الدنيا أيضاً. وهكذا عالج السياق جذراً أساسياً للخلاف الاجتماعي (الآيات ١٦-٢٠).

هاء: ولأن من الناس من يشرع بأهوائه، وهو يسبب الاختلاف الكبير، أنذر الله أولئك الذين اتخذوا من دون الله شركاء، يزعمون أنهم يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، ويسنون القوانين الوضعية، بأنه لولا كلمة الفصل لقضي بينهم، وأن لهم بالتالي عذاباً أليماً يوم القيامة، حيث ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا دون أن تجديهم الشفقة نفعاً، لأنه واقع بهم، بينما ترى المؤمنين في روضات الجنات.

واو: ويرسم القرآن الخط المستقيم في الأمة بالأمر الناجز بمودة أولي القربى التي هي الحسنة الكبرى، لأن بمودتهم يتكرس الخط القيادي السليم. ولأن القضية القيادية أهم قضية وأكثر قضية إثارة للخلاف اتهموا الرسول بالافتراء على الوحي، وأدحض الله فريتهم بأن الله لو شاء لختم على قلب الرسول، وأنه يمحو الباطل، ويحق الحق بكلماته.. وبيَّن أنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده لأن الانحراف عن الخط القيادي كثيراً ما يقع، فلولا قبول التوبة هلك خلق كثير. وبيَّن السياق أخيراً بأن الذين آمنوا يستجيبون لهذا الأمر، بينما الكفار الذين لا يستجيبون لهم عذاب شديد (الآيات: ٢١-٢٦).

زاء: ولأن حب الدنيا والتكاثر من متعها يُعَدُّ أحد الجذور الرئيسة للاختلاف، بعد الاختلاف الطبيعي المشروع، والتفرق في الدين، والتشريع بغير إذن الله، فقد عالجته عدة آيات بينت حكمة تحديد الرزق، فلو بسط الله الرزق بسطاً لبغى الناس في الأرض، فقدره تقديراً حكيماً يتناسب ومقدرة الناس على الاستيعاب، والرزق بيد الله، ولا يجوز الاختلاف عليه، فهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، ومن أسباب التقتير في الرزق الذنوب. وما أصاب الناس من مصيبة فبما كسبت أيديهم، ولعل من الذنوب الاختلاف

الـذي يمنع الرزق، وإذا قدر الله العـذاب لأمة لا يقدر أحد على دفعه عنها. ومظهر آخر لرزق الله، الرياح التي تنقل سـفن التجارة. فهذه الجواري في البحر كأنهن الجبال إن يشـأ الله يسـكن الريح فيظللن رواكد أو يهلكهن بذنوبهم.. كل ذلك ليعلم الذين يجادلون في آيـات الله، وينكـرون هيمنة الله أو عذابه أنه لا مفر لهم من عذابه. وبعد كل ذلك، ما هي الدنيا؟ إن هي إلا متاع؛ إذا قيست بما عند الله للمؤمنين في الآخرة الذي هو أفضل وأدوم (الآيات:٢٧-٣٦).

حـــاء: وفي هـذا المنعطف يبلـغ السـياق المحور الأســاس في السـورة المتمثل فيما يبـدو في الشـورى التـي تكثف التجـارب البشرية، ويبيِّنـه القرآن ضمن صفـات مختلفة للمؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويغفرون حين الغضب، وقد استجابوا لربهم (بالتسـليم للقيادة الشرعية) وأقاموا الصلاة، وأمرهـم شـورى بينهم، يتبادلون بها خبراتهم، ومما رزقناهم ينفقون(الآيات: ٣٧-٣٨).

طـاء: تلك كانت طائفة من صفات المؤمنين تتعلق بعلاقاتهم بينهـم، وهناك طائفة أخـرى منهـا تتصل بمواقفهم من أعدائهم، فهم الذيـن إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، ولا يخضعون للبغاة؛ بل يحاربونهم، ولكنهم لا يعتدون على الناس، بل جزاء سـيئة سـيئة مثلها عندهـم (الآيات: ٣٩-٤٠).

ويبـين القـرآن هنا فضيلـة التعالي عندما لا يكـون مضراً، ويدحـض اتهام مرضى القلوب والسـلطات لمن ينتصر للحق، بأنهم مسـؤولون عن ويلات الحرب، ويقول: لا سبيل على من ينتصر بعدما يُظلم، إنما السبيل على الظالم. ثم يأمر بالصبر والغفر، ويقول بأنه من عزم الأمور أي الذي يستدعي عزيمة شديدة، ويسوق الحديث في عاقبة الظلم:

الأولى: الضلالة، ويقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾.

الثانيـة: العـذاب الشـديد، حيث يقـول الظالمون لما رأوا العذاب: هل نسـتطيع أن نعـود إلى الدنيـا لنعمـل صالحاً، هنالك تراهـم خاشـعين مـن الذل حين يعرضـون على النار، وقد خسروا أنفسـهم وأهليهـم، وليس لهم من الذين أضلوهـم أولياء ينصرونهم (الآيات: ٤١-٤٦).

يـاء: وفي خاتمة السورة يأمرنا القرآن مرة أخرى بالمبادرة بالاستجابة لله والتسليم للقيادة من قبل يوم القيامة، حيث لا مرد له من الله ولا ملجأ يومئذ ولا من ينكر (الآية: ٤٧).

و يبيّن أن مسؤولية البحث عن الإمام الحق تقع على عاتق الإنسان نفسه، وأنهم إن أعرضوا فما أرسل الله نبيه عليهم حفيظاً إن عليه إلا البلاغ.

ثم يبيّن مدى ضعف البشر وحاجته إلى هدى ربه والقيادة الربانية، ويقول: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ وخـرج عـن طوره، وأصابه الغـرور وإن تصبهم سـيئة بذنوبهم يكفرون بنعمة الله، وإن لله ملك السـماوات والأرض، وهو الذي يهب أو يمنع حسـب حكمته؛ فيرزق من يشـاء ذكوراً ومن يشـاء إناثاً، أو يهب الذكور والإناث معا، بينما يجعل البعض عقيماً، إنه عليم قدير (الآيات: ٤٨-٥٠).

ثم ينهي القرآن السـورة بالحديث عن الوحي كما افتتح به، أوليس الوحي أسـاس وجود الأمة؟ (الآيات: ٥١-٥٣).





* من أجل تزكية القلوب

لكـي تسـتقبل أفئدتنا ضياء الإيمان، لابـد أن نطهِّرها من طائفة مـن الأدران التي تترسـب عليها، وآيـات الذكر تذكرنا بها، وتشـجعنا على تزكية القلـوب منها، وتوصينا بكيفية ذلك. ويبدو أن سورة الزخرف تجري في هذا السبيل، كيف؟

إن هـدف الكتـاب المبين -الذي جعلـه الله قرآناً عربياً بلغتهـم، ويفصح جلياً عن الحقائق- بلوغ العقل، وهو أسمى وأدق تعبير عما في أم الكتاب (الآيات:١-٤).

ثم تترى الآيات في تبصير الإنسـان بالعقبات النفسـية التي لابـد من تجاوزها، أو الأقفـال التـي يجب فكهـا، والأمراض التي يجـب معالجتهـا، والأدران التي يجب تطهير القلب منها ليستعد للإيمان..وهي:

أولاً: الغرور بالمال، ولكن هل يترك الله المغرورين بالمال بدون تذكرة وبدون رسل يذكّرونهم، لمجرد أنهم قوم مسرفون؟، أفلا يُنذَرون قبل أن يكسر غرورهم عذاب عقيم، كما أهلك أشد منهم بطشاً، وتركهم أحاديث لمن يعتبربهم؟ (الآيات:٥-٨).

ثانيـاً: الفصل بـين ربِّ السـماء وربِّ الأرض، والاعتقاد بأن إله الحق لا شـأن له بدنياهم، وإذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض فلا مناص لهم من الاعتراف بالخالق

العزيز العليم. وهكذا الأرض، فهو الذي جعلها مهداً، وسلك فيها سبلاً، لعلهم يهتدون إلى مآربهم ثم إلى ربهم الذي أتقن صنعه، وحتى تدبير رزقهم فهو بأمر الله، أوليست حياتهم تعتمد على الماء؟ فمن ينزله من السماء بقدر حاجتهم؟ أفلا يرون كيف يحيي به الله الأرض، فلماذا لا يهتدون إلى أنه كذلك يحييهم بعد موتهم؟

ومن آيات تدبيره خلق الأزواج، وتوفير وسائل النقل، أوَلَيس كل ذلك يدل على أن إله السماء هو إله الأرض، ويدعوهم إلى طاعته، وشكر نعمائه، فإذا استقروا على ظهور الأنعام أو متن السفن سبحوا الله على تسخيرها لهم ولم يكونوا بمستواها (الآيات: ٩-١٤). ونقرأ في ختام السورة تذكرة بهذه الحقيقة أيضاً (الآية: ٨٤).

ثالثاً: تقديس الأشياء والأشخاص، فإذا بهم يجعلون للرحمن من عباده جزءاً؛ يعطونه (صفة التقديس)، وبالغوا في كفرهم حين زعموا أن الله اختار لنفسه البنات واصطفى لهم البنين.

ويتساءل: هل شهدوا خلقهم؟ كلا؛ ويقول: إن كلامهم الباطل شهادة عليهم، سوف تُكتب وسوف يُسألون عنها... وتراهم يبرِّرون عبادة الآلهة بالجبر الإلهي، بلا علم عندهم، بل بمجرد الخرص والتخمين، ولا بكتاب إلهي يستمسكون به، بل بإتباع آبائهم.(الآيات: ١٥-٢٢).

ويعالج القرآن اتباع الآباء بأن ذلك من عادة المترفين الذين ما أرسل الله إلى قرية نذيراً إلا تشبثوا بتقاليدهم البالية، متحدِّين بها رسالات ربهم، ولكن ألا ينظرون إلى عاقبة أولئك المترفين الذين انتقم الله منهم؟! (الآيات:٢٣-٢٥).

ويضرب القرآن مثلاً على ذلك بقصة النبي إبراهيم عليه السلام، وذلك للأسباب الآتية:

ألف: لأن أبرز ما في رسالته تحديه لعادات السابقين، ابتداءً من أبيه وانتهاءً بقومه.

باء: لأنه من أولي العزم الذين يُذكرون في هذه السورة باستثناء واحد منهم وهو النبي نوح عليه السلام.

وإذا كانت الجاهلية العربية تعتمد على عقائد آبائها، فإن أعظمهم إبراهيم، رائد

التوحيد ومحطم الأصنام، ألا يتبعونه وقد جعل رسالة التوحيد كلمة باقية في عقبه؟ كلا؛ إنهم يتبعون أهواءهم لا آباءهم، وقد غرَّتهم متع الدنيا عن اتباع الحق حتى نسبوا الرسول ﷺ إلى السحر (الآيات: ٢٦-٣٠).

رابعاً: تقييم الحقائق بالمقاييس المادية، فقد قالوا: لولا أنزل الكتاب على واحد من العظيمين في الطائف ومكة؟ وَنَهَرهم الله، هل هم الذين يقسمون نعم الله؟ كلا؛ الله هو الذي قسم بينهم معيشتهم، وجعلهم يتفاضلون في الأمور المادية، لا لقيمة لهذا عنده أو هوان لذاك، بل لتنظيم الحياة الاجتماعية، ولجعلهم يحتاجون إلى بعضهم، ويتعاونون فيما بينهم، أما النعمة الكبرى فهي رحمة الله، لا المال الذي يكدسونه. (الآيات: ٣١-٣٢).

وما أتفه الدنيا عند الله! فلولا أن يصعب على المؤمنين لجعلها كلها للكفار، لأنها متاع، أما الآخرة التي هي الحيوان فهي للمتقين وحدهم. (الآيات: ٣٣-٣٥).

خامساً: قرناء السوء الذين يزينون للإنسان سوء عمله ليراه حسناً، وإنما يقيِّض الله قرين السوء من الجن والإنس لمن يَعْشُ ويتغافل عن ذكر ربه. أما من يتذكر فإنه يبصر الحقائق، لأن الشيطان يتهرب من ذكر الله. ويقوم الشيطان بصد التارك لذكر الله عن سبيل الهدى، وتزيين الضلالة له، وإنما ينتبه الغافل لدور الشيطان في إضلاله حين يأتي ربه، فيقول له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾. وماذا ينفع التبرؤ منه يومئذٍ، لأنهما في العذاب مشتركان بسبب ظلمهما. وهكذا يعالج القرآن وسوسة الشيطان بذكر الله. (الآيات: ٣٦-٣٩).

وبعد أن ينذر القرآن أولئك الجاهلين بعذاب، إما في عهد الرسول أو بعده، ويأمر النبي والذين اتبعوه بالتمسك بالوحي الذي هو شرف له ولقومه (دون المال والجاه) لأنهم يُسألون عنه، يأمره بأن يسأل السابقين من الرسل، ويستقرئ سيرتهم: هل كانوا يدعون قط إلى غير الله، ويقدسون آلهة المال والسلطة؟ كلا؛ ويضرب مثلاً من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام، وهما نبيان من أولي العزم ذكرا في هذه السورة مع النبي إبراهيم عليه السلام والنبي محمد ﷺ. (الآيات: ٤٠-٤٥).

فحين أرسل الله النبي موسى عليه السلام بالبينات إلى فرعون وملئه إذا هم منه

يضحكون، وكلما أراهم ربنا من آياته طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، وعهدوا إليه بالإيمان، فلما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم، واعتمدوا على قيمة الثروة والسلطة الزائلة.

وأثار فيهم فرعون نخوة العصبية وشهوة المال والقوة، واستخفهم فأطاعوه، فانتقم الله منهم وتركهم آية لمن بعدهم (الآيات: ٤٦-٥٦).

وكذلك كان موقف الجاهليين العرب من النبي عيسى بن مريم عليه السلام، فحينما ضربه الله مثلاً صالحاً جادل فيه قوم الرسول قائلين: آلهتنا خير أم هو؟ وكانوا يعرفون الحق، ولكنهم عاندوا، ربما لأنهم اعتمدوا على قيمة الثروة والسلطة، فقدسوا آلهتهم رمز الثروة والسلطة، واستخفوا بابن مريم الذي كان مثال الطهر والزهد، بلى؛ إنه عبد أنعم الله عليه، وجعله مثلاً لبني إسرائيل، ولم يأمرهم بعبادته أبداً.

وبعد أن ينذر ربنا أولئك المعاندين بأنه قادر على أن يهلكهم، ويجعل مكانهم ملائكة في الأرض يعبدونه، يبين بعض جوانب عظمة النبي عيسى عليه السلام بأنه من أشراط الساعة، وأنه قد جاء بالبينات والحكمة والقول الفصل فيما اختلف فيه بنو إسرائيل، وأمرهم بتوحيد الله ربه وربهم جميعاً، بَيْدَ أنهم اختلفوا فيه (ظلماً وبغياً) فويل للظالمين من عذاب يوم أليم (الآيات: ٥٧-٦٥).

ويذكرنا الربُّ بأن الأخلاء أعداء بعضهم في يوم القيامة إلا المتقين. وهكذا ينبغي أن نختار من المتقين أصدقاءنا، وقد أشارت آيات سابقة إلى مسألة القرين. ويصف نعيم الله في يوم البعث لعباد الله الذين تتلقاهم الملائكة بالسلام والبشرى، وتدعوهم إلى الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كل ذلك جزاء لما عملوا (الآيات: ٦٦-٧٣).

بينما المجرمون خالدون في جهنم، دون أن يخفف عنهم عذابها، وهم آيسون فيها من روح الله بما ظلموا، وحين ينادون كبير ملائكة العذاب (مالك) ليعدمهم الله، يجيبهم بأنهم ثمة ماكثون، ويقول: لقد جئناكم بالحق، وأنتم كنتم تكرهون الحق. وقد عاندوا الحق، فحكم الله عليهم بالعذاب الخالد جزاء عنادهم (الآيات: ٧٤-٧٩).

وبهذه البصيرة يعالج السياق حالة العناد الذي هو واحد من أبرز العقبات النفسية

في طريـق الإيمان. ثم يعالج سـائر الحالات التي تمنع المبادرة إلى الإيـمان، مثل التَّوهـم بأن الله لا يسمع سرهم ونجواهم، ويذكرنا الله بأنه يسمعهم، وقد أحاط بهم ملائكته الكرام يسجلون ما ينطقون به (الآية: ٨٠).

ويعـود إلى معالجة حالة الشرك، حيث يلتجئ الإنسـان عـادة إلى ظل الشرك فراراً من ثقل المسؤولية، ويقول: النبي ليس ولد الله، بل هو أول العابدين لله.(الآية: ٨١).

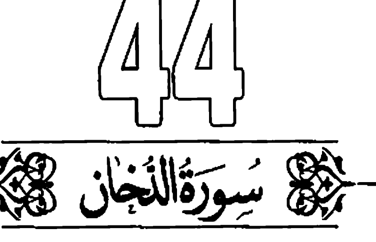
وينسف أساس الشرك القائم على الجهل بعظمة الله ويقول: سبحان ربِّ السماوات والأرض أن يكون له ولد مثلما يصفون، أوَلَيسَ هو ربُّ العرش العظيم والهيمنة التامة، فماذا يفعل بالولد؟ (الآية: ٨٢).

ويأمر الرسـول (والرسـاليين) بأن يتركهم في خوضهم يلتهون بباطلهم، ويلعبون من دون هدف معقول في حياتهم حتى يلاقوا يوم الجزاء الذي يوعدون وهكذا ينذر كل المشركـين بـالله بأنهم يفرِّغـون حياتهم من أي هدف سـليم، كما يفرِّغـون عقولهم من أي بصيرة حق (الآية: ٨٣).

ويبـيِّن أن إله السـماء هـو إله الأرض، وهـو الحكيم العليم، فلا يجـوز الفصل بين الدين والسياسة، بين عالم الخلق وواقع الحكم) (الآية: ٨٤).

وكيـف نتخـذ من الثروة والسـلطة آلهة والله عنـده كل خير؟! أوَ لَيسَ هو المالك للسماوات والأرض وما بينهما، فهو الذي يبارك، أفلا ينبغي أن نعبده ليعطينا من بركاته؟ وعنده علم الساعة، أفلا نخشاه؟ وإليه ترجعون.

أمـا شركاء المال والجـاه و.. فهم لا يملكون أهم ما يحتاجـه البشر، وهو الخلاص من النار، ولا يملكون الشـفاعة عندالله، وإنما الشـفاعة للحق ولأهله. وفي الوقت الذي يعترف الجميع بأن الله هو خالقهم تراهم يؤفكون عنه!، ولكن لا ينبغي أن يهلك المؤمن نفسـه حسرة عليهم. وحين قال الرسـول داعياً ربه: إن هؤلاء قـوم لا يؤمنون، أمره الله بالصفـح عنهم والإعراض، وأن يقول لهم: سـلام؛ ولا يبادرهم بالحرب، لأنهم سـوف يعلمون أي منقلب ينقلبون.(الآيات: ٨٦-٨٩).



* الإنسان؛ الكائن الهادف

عبر (٥٩) آية قصيرة نسبياً تطالعنا سورة الدخان الكريمة بثلاث موضوعات أساسية؛ ليلة القدر، والفتن الكبرى، وصور عن الجزاء الأوفى في الآخرة.

ماهي العلاقة بين هذه الموضوعات؟

كل شيء في الخليقة مقدر سلفاً، ولكل جزيئة منها غاية محددة سلفاً، أوَ يمكن لهذا الإنسان الأكمل خلقاً بينها أن يُترك سدىً؟ كلا؛ الذرة المتناهية في الصغر -حسب علمنا- مخلوق مُقَدَّر بعلم، ومُسَيَّر لهدف؛ وكذلك المجرة المتناهية في السعة -حسب علمنا- مخلوق مُقَدَّر بعلم، ومُسَيَّر لهدف.. أفلا يكون لهذا الإنسان تقدير وهدف؟

لعل عقلانية الخليقة هي محور السورة. تعالوا إذن نوصّل فروع بصائر السورة بهذا المحور:

إن القرآن أنزل في ليلة القدر -المباركة- لأنه ينذر باسم مُقَدِّر هذا الخلق، وألاّ يزيغوا عن ذلك التقدير الحكيم، الذي قضي في ليلة القدر، حيث ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أمراً من عند الله، الذي أرسل الأنبياء لينذروا الناس به.

وكانت تلك رحمة من الله أن ينذر الناس ألاّ يتجاوزوا تلك السنن والأقدار، فيتعرضوا للخطر (الآيات: ١-٦).

وبعد أن يذكرنا بعظمة الخالق يقول: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ وهو سبب كفرهم بهذه الرسالة، وسيبقى ضلالهم حتى يأتيهم العذاب، ﴿فَارْتَقِبْ -يوم العذاب- يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ -حيث يتساءلون ما هذا- هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فينادون: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾. وهيهات أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقد أنذرهم بما فيه الكفاية: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾. ويأتيهم الخطاب: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ولعل هذا العذاب هو العذاب الأدنى، الذي يأخذهم ليكون نذيراً للعذاب الأكبر. وهذا بدوره من شواهد القيامة، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ -الله- الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ -فيومئذ لاينفع الاستغفار- إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الآيات: ٧-١٦).

ويسوق القرآن قصة فرعون لتكون شاهدة على مجمل هذه البصائر التي سبقت تقدير الله الحكيم: إنذار الرسل، نزول العذاب، الجزاء الحسن الذي أتاه بني اسرائيل. وتلك هي فتنة كبرى تعرض لها قوم فرعون فلم يفلحوا حيث جاءهم النبي موسى عليه السلام بالبلاغ المبين، فلما رجموه بالتهم، دعا عليهم، فجاءه النصر، حيث أغرق الله فرعون وقومه ليتركوا وراءهم ثرواتهم دون أن تذرف السماء عليهم دمعة. أوَليسوا كانوا خاطئين، حيث زاغوا عن القدر الحكيم، والصراط المستقيم. تلك هي سنة الجزاء، ودليل على أن الله خلق كل شيء بالحق؟ (الآيات: ١٧-٢٩).

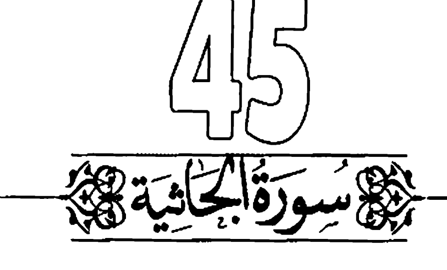
وكذلك فقد نجى الله بني اسرائيل من العذاب المهين، واختارهم على علم؛ باستحقاق لديهم على العالمين.

كيف يُترك الإنسان سدىً، وبلا محاسبة، وكيف تكون حياته الدنيا خاتمة المطاف، ولقد أهلك الله قوم تبع، حيث كانوا مجرمين، وفي هذا دليل على حكومة الله العادلة على مجريات التاريخ، كما أنه يكشف عن جانب من عقلانية الخليقة، وأن الله لم يخلق السماوات الأرض: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وعدم علمهم دليل جهلهم، لاعدم صحة هذه الحقيقة (الآيات: ٣٠-٣٩).

ويفصل الذكر الحكيم جانباً من جزاء الله في يوم القيامة، ويقول: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. في ذلك اليوم لا ينفع الأنداد الذين يشركون بهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾، وحتى لو أنهم نصروهم فإنهم لا ينصرون (الآيات: ٤٠-٤٢).

وبعد بيان طعام شجرة الزقوم، وكيف يقيَّد المجرم إلى عذاب النار، يعرض الرب لنا جانباً من نعيم الله للمتقين، ويختم القرآن السورة بأن تيسير الكتاب كان بهدف تذكيرهم؛ فمنهم من يتذكر ومنهم من ينتظر: ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ (الآيات: ٤٣-٥٩).

وهكذا ينذر القرآن عباده بالجزاء الأوفى الذي هو رمز حقانية الخليقة، وعدالة الله وتقديره الحكيم.



* منهج التكامل الإيماني

طف بفكرك آفاق السماوات، وأقطار الأرض... ماذا ترى؟، ألا ترى آيات الله تتجلى في كل شيء؟، إذن لماذا يكفر هؤلاءالناس؟ تجيب سورة الجاثية -التي نستلهم من إطارها أنها تعالج حالة الإفك عند البشر- تجيب عن ذلك ببساطة: إن الآيات ليست لكل الناس، إنما هي للمؤمنين، ولقوم يوقنون، ولقوم يعقلون (الآيات: ١-٥).

وإذا كفروا بهذه الآيات؛ فبماذا عساهم يؤمنون؟ إنهم لا يؤمنون بشيء فويل لهم، ولكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً (الآيات:٦-٨).

وقد تنفذ آية في أفئدتهم ولكنهم لا يتفاعلون معها بسبب ما في نفوسهم من الاستكبار، وهناك يتخذونها هزواً؛ إيغالاً في الجحود.

كيف نعالج هؤلاء؟ لا بشيء يمكن شفاؤهم، بل بشّرهم بعذاب أليم ومهين (الآية:٩)، في جهنم التي تأتيهم من ورائهم، فلا يستطيعون لها رداً (الآية:١٠).

ثم يذكرنا السياق بتلك الآيات التي تهمنا مباشرة، فهذا البحر كيف سخّره الله مطية للسفن، ومخزناً للطعام والزينة، وآية تبعث نحو شكره.. كما سخّر لنا ما في السماوات والأرض، كل ذلك نعمة وفضل منه علينا، لعلنا نبلغ هدفاً سامياً هو التفكر (الآيات:١١-١٣).

ولكن كيف نفكر تفكيراً سليماً؟

الجـواب: لابد أن نتجنـب التأثر بالبيئـة الضالة، ولا نأبه بهـؤلاء الذين يكفرون، لأنهم لا يرجون أيام الله، فلهم أعمالهم التي سـيجزون بها، ولن تصلكم سـيئاتهم، كما لن تصلهم صالحاتكم (الآيات:١٤-١٥).

والبعض ينتظر شـيئاً مجهولاً حتى يهتـدي ولكن عبثاً. إذا لم تكن أنت الذي تبتغي الهـدى فلـن تنتفع بكل وسـائل الهداية، وإليك مثـلاً من بني إسرائيل؛ لقـد آتى ربنا بني إسرائيـل الكتاب، والحكم، والنبوة -من وسـائل الهداية-، ورزقهـم من الطيبات -من النعـم الماديـة- وفَضَّلهم على العالمـين، ولكنهم إذ اتبعوا شـهواتهم غرقوا في الخلافات، وضلوا عن الطريق بغياً بينهم (الآيات:١٦-١٧).

وهـذا الكتـاب الكريم مـن عند الله، الـذي أنزل ذلـك الكتاب، فلا فـرق بينهما، والذي لا يؤمن بعد نزول هذا الكتاب،وينتظر مثل التوراة لن يبلغ الفلاح أبداً.

وفي هـذا الكتـاب بصائر وهدى ورحمـة، ولكن هل ينتفع بـه كل الناس؟، لا؛ بل الذين يريدون ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الآيات: ١٨-٢٠).

ومن التمنيات الباطلة؛ الوهم الذي يعيشه الكثير من الناس، حيث يزعمون أنهم والمؤمنون سواء.. كلا؛ ليس الذين اجترحوا السيئات، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سـواء، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أولا تعلمون أن الله خلق السـماوات والأرض بالحق، فكيف يجعلهما سـواء، أليس ذلك باطلا؟ إنه يجزي كل نفس بما كسـبت وهم لا يظلمون (الآيات: ٢١-٢٢).

ويبقى سـؤال: لماذا ينتهي البعض إلى هذا المصير الأسـوأ؟ لأنهـم يتخذون آلهتهم أهواءهم، فتراهم لا يتبعون الهوى فقط، بل يطيعونها إلى حد التقديس.

وحـين يُضِّـل الله الذيـن يؤلهـون أهواءهـم يسـلبهم مصادر العلـم مـن العقـل والأحاسيس، وآنئذٍ لا أحد قادر على هدايتهم.(الآية: ٢٣).

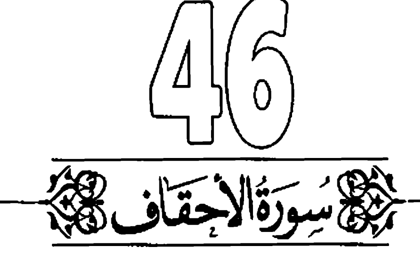
ويتخبطـون في ظنونهم خبط عشـواء، فإذا بهم يقولـون: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، ويتحـدَّون النذر إذا قالوا لهم: احذروا الآخرة، ويحتجُّون -إذا تليـت عليهـم آيات الله- أن ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. وهكذا يحجبون أنفسـهم عن الحقيقة ببعض الشروط التعجيزية، وسـواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فإن الجزاء واقع.. الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لاريب فيه. وهل يضرون ربهم لو كفروا ولله ملك السماوات والأرض؟ والمبطلون يخسرون يوم تقوم الساعة (الآيات: ٢٤-٢٦).

هنالك يتزيل الكفار عن المؤمنين، بل يتميَّز الكفار فيما بينهم -كما المؤمنون- إذ ترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون (الآيات: ٢٧-٢٨).

هنالك يتجلى الفرق بين الناس حسب أعمالهم. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلـون الجنـة، بينما يُحاكم الكفار ويُسـألون: لماذا اسـتكبرتم عن التسـليم لآيات الله، وكنتم قوماً مجرمين، وزعمتم أنكم لسـتم على يقين من السـاعة -بينما السـاعة لا تحتمل الريـب.. إنهـا حق - في ذلك اليوم تبدو سـيئات أعمالهم، كما أن الحقائق التي اسـتهزؤوا بها تحيق بهم، أما نسـيانهم للحقائق - وهو واحد من الأفعال القلبية- فإنه يقابل بنسـيان مثله، ويقال لهم: اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا (الآيات: ٢٩-٣٤).

وفي خاتمـة السـورة يعود السِّياق ويبـيِّن أن جـزاء اتخاذ آيـات الله هـزواً.. النار، وسـببه الاغترار بالحياة الدنيا، ولله الحمد أولاً وأخيراً على رحمته وعدله، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم (الآيات: ٣٥-٣٧).



* ما هي حقيقة الوجود؟

لكـي نبـصر حقيقة الأشـياء، لابد أن نعـرف الحقائق الكبرى التـي هي غيب كل حقيقة، وهي:

أولاً: حقيقة الخلق، وأن كل شي ء قد أنشئ وقُدِّر ودُبِّر أمره من لدن عزيز حكيم.

ثانياً: حقيقة الواقعية، وأن الأشياء حق لا وهم ولا خيال.

ثالثاً: حقيقة الزمن وأن لكل شي ء أجلاً.

ولكـن لمـاذا لا يفقه أكثر الناس هـذه الحقائق الواضحة، وحتـى حين ينذرهم الله بإرسال الرسل تراهم يعرضون عنها؟ (الآيات: ١-٣).

لعـل أهـم قضية تعالج في القرآن هي هذه القضيـة، لأنه من دون معالجتها لا يبلغ الإنسان علماً ولا حكمة.

والسؤال: ما هي الحجب التي تغشى أبصار الخلق عن رؤية هذه الحقائق؟

إنهـا عديدة، ولعل السـياق في سـورة الأحقـاف يعالجها مع التركيـز على بعضها، شأنها شأن سائر السور.

أولاً: الشرك بدعوة غير الله، ويتساءل السياق: ترى هل ما يدعون من غير الله، خلقوا شيئاً من الأرض أم لهم مساهمة في إدارة السماوات؟

كلا؛ ثم إنهم لا يستجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة، ويعادونهم يوم الحشر (الآيات: ٤-٦).

ثانياً: كيل التهم، والأحكام المسبقة والباطلة على الرسالة والرسل، مما يحجبهم عن معرفة حقيقتها، فقالوا إنها سحر وإنه مفترٍ.

وكيف يكون مفترٍ والله يحيط قدره بمن يفتري، ويحيط بكل شيء علماً، وهو شهيد على صدق الرسالة؟ وهذا الرسول ليس بدعاً، فلقد بعث الله أنبياء سابقين.

ثم إن الرسول متمحض في رسالته، فما عليه إلا البلاغ. ثم إن بعض علماء بني إسرائيل قد شهد بصدقه، بينما استكبر الجاهلون (الآيات: ٧-١٠).

وقد يكون الحسد والضغينة والعصبية تجاه صاحب الدعوة سبباً للكفر بها، ولكن لماذا يحرم الإنسان نفسه من الحق لموقفه الشخصي ممن يدعوه إليه، وأساساً لماذا هذا الموقف الظالم الذي يصد الإنسان عن الهدى، ذلك أن الله لا يهدي القوم الظالمين؟

وكتاب النبي موسى عليه السلام الذي يتعصب البعض له، ويصدُّون عن النسخة الأكمل منه، ما نزل لتأييد الظلم، بل رحمة. وهكذا القرآن، فهو نذير للظالمين، وبشرى للمحسنين.

وأصحاب الرسالة بحاجة إلى الاستقامة لمواجهة تلك العقبات، وآنئذٍ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (الآيات: ١١-١٤).

والموقف السليم من الجيل الماضي يساهم في توفير فرص الإيمان، ويبيّن السياق وصية ربنا بالوالدين، كما يبيّن التطلع المشروع عند الإنسان في إنشاء ذرية صالحة.

ويَعِدُ التائبين في سنّ الأربعين المسلمين لربهم غفران الذنوب، ودخول الجنات.

أما المتمرد على والديه وهما يدعوانه للإيمان، لأن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين، فإنه مثل لمن أعاقته نزوة الشباب عن اتباع الحق الذي يدعو إليه آباؤه وهو بالنتيجة

مثل للظالم الذي منعه تمرده على أبيه عن اتباع الحق لمجرد أنه دعوة أبيه (الآيات: ١٥-١٨).

وبعد أن يبيِّن القرآن أن درجات الناس على قدر أعمالهم، يعرض لنا صورة أهل النار تستقبلهم جهنم بلظاها، وهم يحاكمون هنالك، لأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا. ويبدو أن الإسراف في اللذات عقبة أخرى في طريق الإيمان. ولعل الإسراف في الاستمتاع بالطيبات سببه الاستكبار في الأرض، وعاقبته الفسق عن حدود الشريعة (الآيات: ١٩-٢٠).

وأية عقبة كأداء كالاسترسال مع العادات البالية والتقاليد الباطلة، كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود عليه السلام وهو ينذرهم بالأحقاف ويستعجلونه العذاب، ولكن حين استقبلهم عارض في الأفق، زعموا من فرط غفلتهم أنه عارض ممطرهم، بينما كان ريحاً تدمِّر كل شيء بأمر ربها (الآيات: ٢١-٢٥).

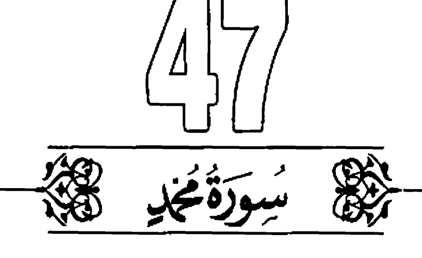
لماذا كفرت عاد؟ هل لفقر وحاجة؟ أم لنقص في وسائل المعرفة من السمع والأبصار؟ كلا؛ إنما لجحود آيات الله والاستهزاء بها، فكانت عاقبتهم الدمار.

أفلا نعتبر بمصيرهم قبل أن نصبح عبرة لمن يتعظ من بعدنا؟ أفلا نزور الأطلال التي بقيت من القرى الهالكة، ونتتفع بالآيات التي صرفها الله لإيقاظنا من الغفلة؟

إن هذه الآية التي يعتمد عليها الإنسان في كفره بربه، ويزعم أنها مانعته من عذاب الله، هلا منعت عن تلك القرى العذاب؟! (الآيات: ٢٦-٢٨).

وترى بعضهم يستعيذون بالجن، ويزعمون أنهم يكفونهم العذاب، بينما الجن كما الإنس أنذروا بالرسالة، ولقد صرف الله نفراً منهم فاستمعوا للقرآن فأصبحوا منذرين، ودعوا قومهم للاستجابة للرسالة، وبيَّنوا لهم أن من لا يُجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض (الآيات: ٢٩-٣٢).

وتبيِّن الآيات الأخيرة من السورة قدرة الله على إحياء الموتى، وأن الكفار يؤمنون بذلك حين يرون العذاب، وأن على الرسول الصبر في دعوته دون أن يستعجل لهم، لأنه مهما طال بهم العمر فإن مكثهم في الدنيا يشبه ساعةً إذا قيس بالخلود في النار.(الآيات: ٣٣-٣٥).



* مميزات المؤمنين، ومثالب الكفار والمنافقين

الاسم الآخر لهذه السورة هو القتال، وبين الطاعة للنبي محمد ﷺ الذي ذُكِر اسمه المبارك في فاتحة السورة وللقيادة الشرعية عموماً، وبين قتال الكفار الذي يحتاج إلى الطاعة التامة للرسول تدور محاور هذه السورة التي تتميَّز بالتركيز على بيان الأمثال للناس، حيث تتوالى آياتها، تضرب مثالب الكفار والمنافقين، وتقابلها بصفات المؤمنين، ولعل الآية (١٧) مفارقة بين الفريقين تنطوي عليها السورة، مما يثير التساؤل: لماذا هذا التركيز في سورة القتال على الفرق بين الفريقين؟ الجواب: لسببين.

ألف: ربما لأن قلوب المؤمنين تعتمر بالرحمة الإيمانية، ومن الصعب تعبئة هذه القلوب بروحية الحرب إلا ببيان صفات الكفار السلبية، ليكون عداؤهم للكفر ومثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

بـاء: لأن القتال أفضل ميزان يُعرف به الرجال، ويتميَّز به المؤمنون عمَّن في قلوبهم مرض.

وإليك تفصيل الإطار العام للسورة:

١- في مستهل السورة يصرِّح السياق ببيان أن الله يُضِلُّ أعمال الكفار، بينما يصلح

بال المؤمنين، ويغفر ذنوبهم، (الآيات: ١-٢) لماذا؟

٢- لأن أولئك اتبعوا الباطل، بينما سلَّم هؤلاء للحق. وهنا يؤكد ربنا ما يبدو أنه المحور الأساس للسورة، حيث يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ (الآية: ٣).

وبعد أن يأمر بقتال الكفار بلا هوادة، واستمرار ذلك حتى تضع الحرب أوزارها بظهور الحق كله على الباطل كله، ويختصر تبيان حكمة القتال في كلمة (الابتلاء)، بعدئذ يبيِّن فضائل الشهداء في سبيل الله حيث يحفظ الله دماءهم، وسيهديهم، ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة. (الآيات: ٣-٦).

٣- وينصر الله الذين آمنوا إن هم نصروا دينه ورسوله، بينما يفشل الكفار، وتضيع جهودهم. أوَلَيس قد كرهوا ما أنزل الله؟! (فلهم التعس والفشل) وأحبط الله أعمالهم، حتى تلك التي تبدو صالحة، وحوادث التاريخ تشهد بهذه السُّنَّة. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الكفار؛ إذ كانت عاقبتهم أن دمَّر الله عليهم، حتى ما بقي منهم شيء؟ وهذه سُنَّة الله تجري فيمن يأتي بمثل ما جرى فيمن مضى، ولذلك كان للكافرين أمثالها. (الآيات: ٧-١٠).

٤- والله مولى الذين آمنوا يؤيدهم بنصره ويرعى شؤونهم، وأن الكافرين لا مولى لهم بالرغم من ولايتهم للأصنام والأنداد إلا أنها ليست بشيء. (الآية: ١١).

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحات يسيرون عبر منهج سليم نحو أهداف سامية، ولذلك يدخلهم الله الجنة، بينما الكفار يتمتعون بالدنيا بلا أهداف، ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم، لأنهم لم يسعوا في الدنيا لاتقائها. (الآية: ١٢).

وينسف القرآن أساس الاتكال على القوة الظاهرية التي يملكها الكفار، ببيان أن هناك قرى كانت أشد من قرية مكة أهلكها الله فلم يكن لها ناصر. (الآية: ١٣).

٦- المؤمنون على هدىً من ربهم، لا يمارسون عملاً إلا بحجة واضحة من الله، بينما الكفار يتبعون أهواءهم التي زينت لهم، وليسوا سواءً أبداً. هؤلاء يمضون على شريعة من الأمر واضحة، بينما أمر أولئك فرط، لأنهم يميلون مع رياح الهوى أنّى اتجهت. (الآية: ١٤).

٧- قرار المؤمنين وعاقبة أمرهم الجنة، بأنهارها المتنوعة التي تعطيهم الرُّواء، والقوة، والنشاط، واللذة، وبثمراتها المتنوعة، وبما فيها من نعمة روحية متمثلة في مغفرة الله، بينما ليس للكفار إلا النار بما فيها من ماء يغلي يقطع أمعاءهم.(الآية: ١٥).

٨- كل ذلك لأن الكفار أصموا آذانهم عن الحق، بينما اهتدى المؤمنون فزادهم الله هدى، وعلمهم كيف يتقون النار. أولئك لا يؤمنون حتى تأتيهم الساعة التي ظهرت علاماتها، بينما هؤلاء يستغفرون لبعضهم، لأنهم يعلمون ألا إله إلا الله، ويستغفرون لذنوبهم، كما للمؤمنين والمؤمنات.(الآيات: ١٦-١٩).

٩- بعد بيان هذه الصفات التي تبصِّرنا الفروق بين المؤمنين والكفار، ترى السياق ينعطف لبيان المنافقين، حيث بيَّن أمثالهم أيضاً، ويجعل القتال في سبيل الله محك التجربة لهم، فحين ينتظر المؤمنون حقاً ويفارغ الصبر الأوامر الإلهية بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال ينظرون نظر المغشي عليه من الموت (خوفاً وحزناً). وهكذا يخرج الجهاد أضغانهم، ويظهر مرض قلوبهم.

وقد كان خيراً لهم لو أنهم صدقوا الله في ساعة الجد.(الآيات: ٢٠-٢١).

١٠- وإذا ملكوا السلطة -وهي مختبر آخر بعد الجهاد لحقيقة أنفسهم- تراهم يفسدون في الأرض، بمنع إعمارها، ونشر الرذيلة، والفسق، والظلم بين أرجائها، ويقطعون أرحامهم، كما فعلت بنو أمية وبنو العباس بآل الرسول ﷺ. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية شواهده.(الآيات: ٢٢-٢٣).

١١- والقرآن ميزان لمعرفة حقائق الناس، ولكن لمن تدبر فيه. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فلا تنفذ بصائر القرآن إلى أفئدتهم.(الآية: ٢٤).

١٢- ويهدينا السياق إلى سبب الضلالة بعد الهدى عند هذا الفريق من مرضى القلوب، الذين سقطوا في وهدة النفاق، ويقول: إن هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد أن عرفوا السبيل فإنما الشيطان سَوَّل لهم بأن زين لهم الضلال وأملى لهم.(الآية: ٢٥).

١٣- وإنَّ من مثالب المنافقين ومؤامراتهم القذرة أنك تراهم يقولون للذين كرهوا

ما نزل الله من الهدى؛ نحن معكم، وسوف نطيعكم في بعض الأمر، ونتعاون على ضرب الإسلام، والله يعلم إسرارهم، كما يعلم إعلانهم.(الآية: ٢٦).

وأنهم يزعمون أن اتصالهم بالعدو يوفر لهم الحماية، ولكنهم ماذا يصنعون غداً حين تضرب ملائكة الموت وجوههم وأدبارهم، ولا ينفعهم يومئذ أعوانهم من المشركين، بل لا ينتفعون حتى من أعمالهم الصالحة، ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه المتمثل في طاعة الرسول، والنصح للقيادة الشرعية، والتسليم لأوامر القتال الصادرة منها فأحبط الله أعمالهم.(الآيات: ٢٧-٢٨).

١٤- ويعتمد المنافقون على مبدأ السرية، ولكن أيحسبون أن الله لن يخرج أضغانهم، ويظهر مرض القلب الذي تنطوي عليه أنفسهم بالأمر بالقتال؟!

بلى؛ إن ربنا قادر على كشفهم الآن، بتغيير صورهم، بل إنك قادر على معرفتهم من خلال تضاعيف كلماتهم، أو من ملامح صورهم.(الآيات: ٢٩-٣٠).

١٥- ويعود القرآن إلى الحديث عن القتال ببيان حكمته المتمثلة في الابتلاء، ويؤكد أن الكفار لن يضروا الله شيئاً، وسيحبط أعمالهم. ويأمر المؤمنين بطاعة الله والرسول والتسليم لأمره بالقتال، وأن لا يبطلوا أعمالهم.

أما الكفار الذين يموتون وهم كفار؛ فلن يغفر الله لهم.(الآيات: ٣١-٣٤).

١٦- ويشحذ الله عزيمة الاستقامة عند المقاتلين، ويدعوهم إلى الصمود، وألا يَهِنُوا ويدعوا إلى السِّلم الذليل وهم الأعلون بإيمانهم، وأن الله لن يَتِرَهُمُ أعمالهم.(الآية: ٣٥).

ويهوّن شأن الدنيا في أعينهم، ويبيِّن أنها الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما طُلِبَ بها الآخرة ففيه الجزاء بشرطين؛ الإيمان والتقوى، إذا آمنوا واتقوا يؤتهم الله أجورهم، ولا يطلب منهم أموالهم.(الآية: ٣٦).

١٧- وفي خاتمة السورة يذكرنا السياق بضرورة الإنفاق في سبيل الله -وبخاصة أن القتال بحاجة إليه- وإذا طلب الله إنفاق أموالكم -وهذا امتحان صعب- فإنكم تبخلون، وبذلك يخرج الله أضغانكم، ومدى تشبثكم بالدنيا(الآية: ٣٧).

كيـف وأنتـم حين تُدْعَون لإنفاق بعض أموالكم فإن منكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء.

وفي نهايـة السـورة؛ نجد إنـذاراً للمؤمنين بأنهم إن لم يتحملوا مسـؤولية الرسـالة ويتولوا، يستبدل الله بهم قوماً غيرهم.(الآية: ٣٨).



* السلام والحرب

لقد كان صلحاً صاخباً ذلك الذي رجع المسلمون به من مكة بعد أن تمنوا دخولها منتصرين، أو لا أقل آمنين. والصلح مع مشركي قريش واحد من أهم أحداث السيرة النبوية إثارةً للجدل.. إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضباً على الكفار، وشوقاً إلى القتال معهم، وشوقاً إلى الشهادة أن يصالحوا عدواً كافراً ظالماً؟

ولعل نزول سورة كاملة في هذا الموضوع وتسميتها باسم الفتح دليل على حساسية معالجة موضوع الصلح، ومن زوايا عديدة:

أولاً: إن الصلح لايعني تسليماً، ولا ضعفاً، ولا تنازلاً عن الأهداف الاستراتيجية للأمة.

ثانياً: لايعني الصلح تغليب رأي المنافقين الداعين إلى الصلح أو التهاون بالتعبئة العسكرية.

ثالثاً: الصلح أو الحرب رهين أوامر القيادة، والأمة المتمسكة بحبل قيادتها الإلهية لن تُهزم، لا في الحرب ولا في الصلح.

ولعل هذه الزوايا هي مجمل محاور هذه السورة الكريمة التي وصفت الصلح بأنه فتح مبين، وأن الله قد غفر لنبيه ما تقدم وما تأخر، مما عَدَّها الأعداء ذنوباً، وأنه هداه إلى

الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى أهدافه السامية والتي منها النصر العزيز.

وبعد هذه البراعة في افتتاح السورة (الآيات: ١-٣) نجد القرآن يمدح المؤمنين، الذين أطاعوا الرسول في الصلح بمثل طاعتهم له في الحرب، ويجعل ذلك وسيلة للنصر، حيث أنه سبحانه أنزل سكينته في قلوب المؤمنين.. وعلموا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا في سلك جند الله، الذي له جنود السماوات والأرض، وأنهم ينتظرون جنات تجري من تحتها الأنهار.(الآيات: ٤-٥).

أما المنافقون الذين خالفوا الرسول في السلم بمثل مخالفتهم له في الحرب؛ فإن الله يعذبهم، لأنهم ظنوا بالله ظن السوء -وأنه لا ينصرهم- فدارت عليهم دائرة السوء، فأنّى اتجهوا وجدوا سوءاً، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم.(الآية: ٦).

إذن؛ فمحور المجتمع الإسلامي هو الرسول الذي إن نصحوا له وأطاعوه مخلصين سعدوا به، لأن الله قد أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجعله محوراً لحياتهم، ليؤمنوا بالله ورسوله، ويعزروه ويوقروه.. ويعظموا الله بتعظيم رسوله، ذلك أن يد الرسول هي يد الله، ويد الله فوق أيديهم (الآيات: ٧-١٠).

وينعطف السياق على المنافقين الذين أرادوا انتهاز فرصة الصلح ليطعنوا في مصداقية الرسالة، ويقول: سيقول الأعراب الذين تخلفوا عن الرسول في خروجه إلى مكة شغلتنا أموالنا وأهلونا، ويريدون العودة إلى صفوف الرسالة بعد أن أبعدوا عنها بتخلفهم، ولكن الله يفضح مكرهم وأنهم كانوا يرجون ألا يعود الرسول إليهم، وظنوا ظن السوء فكانوا قوماً بوراً هالكين.(الآيات: ١١-١٢).

والآن حيث صعد نجم المسلمين وطوّعوا أكبر قوة في الجزيرة (وهي قريش) حتى اعترفت بهم كقوة سياسية مناوئة، يريد الانتهازيون الالتحاق بركب الرسالة طمعاً في المغانم، وهذه من مشاكل الصلح دائماً.

ورفض الإسلام عودتهم إلا إذا استعدوا للجهاد إذا دعوا إليه مرة أخرى، فيومئذٍ إن أطاعوا يؤتيهم الله أجراً حسناً، وإن تولوا -كما في السابق- يعذبهم الله عذاباً أليماً (الآيات: ١٣-١٦).

وبعد أن استثنى السياق من هذا الحكم المرضى والمعوقين، عاد وأثنى على المؤمنين

الذيـن بجهودهم حصل المسـلمون على هذا الصلـح، حيث إنهم بايعوا الرسـول على القتال تحت شجرة كانت هنالك، فرضي الله عنهم، وأنزل السكينة عليهم، وأثابهم -في الدنيا- فتحاً قريباً متمثلاً في مكاسب صلح الحديبية، ثم فتح مكة. ويعدِّد الله مكاسب المؤمنين بما يلي:

ألف: صلح الحديبية، كما أنه صد أذى الناس عنهم، وجعل ذلك آية وعبرة تاريخية يستفيد منها المؤمنون (الآيات: ١٧-٢٠).

بـــاء: وكان نصر المؤمنين عن اقتدار، وليس عن ضعف أو ذل ومهانة، فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكي لولوا الأدبار. وهذه سنُّة الله التي لا تتبدل، ولو أن الله أراد لشبَّ القتـال وانهزم الكفـار، ولكن لحكمةٍ كف الأيدي عـن الحرب ببطن مكة. وكانت قريش تسـتحق القتال، فقد صدوهم عن المسـجد الحرام، أما حكمة كف الأيدي؛ فلأنه كانت طوائف من المؤمنين متداخلين مع قريش يعملون بالتقاة (الآيات: ٢١-٢٥).

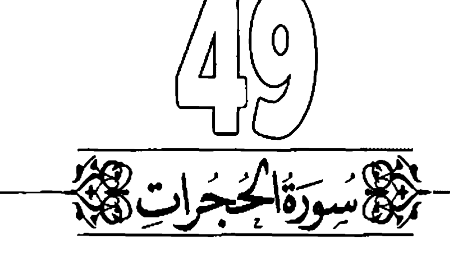
تـــاء: قتـال المؤمنين لا ينبعث من العصبية، بل من مصلحة الرسـالة، لذلك فهو يدور على محور المصلحة الإيمانية، بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهلية، ولذلك فهم لا يبلغون أهدافهم به.

فقلوب الكفار مليئة بالحمية الجاهلية، بينما تعتمر أفئدة المؤمنين بالسكينة الإيمانية، لأنهم قد التزموا بكلمة التقوى (الآية: ٢٦).

ثـــاء: هذا وقد تبيَّن صدق الرؤيا التي رآها الرسـول، بأنه يدخل المسـجد الحرام هو والمؤمنون بالحق، بلا خوف، فجعل قبله فتحاً قريباً. أما الهدف الأبعد؛ فهو أن يظهر الدين الإسلامي على الدين كله ولو كره المشركون (الآيات: ٢٧-٢٨).

وفي خاتمة السورة: يُبين القرآن صفات أصحاب الرسول الذين اتبعوا الرسول في سـاعة العسرة؛ في السـلم كما في الحرب، ويُبيِّن أن كل فضائلهـم آتية من علاقتهم بعبادة ربهم، والتبتل إليه، لذلك تراهـم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، يبحثون عن رضوان ربهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ...﴾ (الآية: ٢٩).

وبهذا تحيط السورة بكل زوايا الصلح مع قريش، وتعالج المشاكل الجانبية التي قد تنشأ من أي صلح محتمل مع عدو كافر.



* أخلاقيات المجتمع المؤمن

تفتتح السورة بوصايا قيِّمة في أدب التعامل مع الرسول والقيادة الإلهية، وتختتم ببيان حقيقة الإيمان، وتتواصل بينهما الآيات تنظم علاقة المسلمين ببعضهم على أساس الأخوة، وعلاقة البشرية ببعضهم على قاعدة المساواة.

تعالوا الآن نتدبر في هذا السياق المعجز:

١- لأن علاقة الأخوة تتعرَّض لهزَّات قد تبلغ درجة الاقتتال بين المؤمنين، فلابد من قوة داخلية تمسك الأمة من أن تتشرذم فتتلاشى، وما تلك القوة إلا القيادة الرسالية التي لابد أن يسمو احترام الأمة لها إلى مستوى رفيع، بألاّ يتقدموا بين يديِّ الله ورسوله في الرأي أو القول أو المشي أو أية ممارسة عملية، ولا يرفعوا صوتهم فوق صوته، ولا يجهروا له في الكلام كما يتحادثون بينهم. وقد بشر الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأنهم قد طهر الله قلوبهم للتقوى، وأن لهم مغفرة وأجراً عظيماً. أما الذين لا يحترمون الرسول ﷺ، ولا يراعون حرمة الحُجُرات التي بنيت من أجل توفير الراحة، فينادون الرسول ﷺ من ورائها، فإن أكثرهم لا يعقلون، فلا يعرفون حرمة القيادة الإلهية، ولا حرمة الآداب المرعية، وكان أولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم الرسول

فيحدثوه عن شؤونهم (الآيات: ١-٥).

٢- وبعد أن يرسي السياق احترام القيادة وآداب التعامل معها، وطبيعة العلاقة معها؛ بعدئذٍ يأمر المؤمنين بالتثبت في أمورهم، وعدم الاسترسال مع أنباء الفاسقين، لأنهم قد يصيبون بذلك قوماً بجهالة ثم يندمون على ذلك. وبهذا يقطع الطريق على مثيري الفتن بين المسلمين وسائر التجمعات البشرية، ويضع قانوناً لمثل هذه الأمور، ويأمر بمراجعة القيادة والتسليم لها وعدم ممارسة الضغط عليها، أوَلَيس الرسول ﷺ قد جاءهم من عند الله بنور الإيمان؟ أوَلَيس هو -إذن- أهدى منهم سبيلاً؟ أوَلَيس من واجب الشكر ألاّ يخالفوه في قضية مهمة كاتخاذ موقف من طائفة معينة؟ وماذا لو أطاعهم الرسول في جهلهم، أوَلاَ يسبب ذلك العنت عليهم؟ وربما أشارت (الآية: ٧) إلى أن مخالفة الرسول ﷺ نوع من الكفر والفسوق أو العصيان حسب درجات المخالفة ومواردها، وإن من فضل الله عليهم أن زيَّن في قلوبهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فلا يعودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمة أسبغها عليهم ربهم (الآيات: ٦-٨).

٣- وفي سياق حديثه عن علاقة المسلمين ببعضهم؛ يُفكُّ القرآن أولاً أصعب عقدة فيها متمثلة في حالة نشوب قتال أهلي بينهم فيقول: لو اقتتل طائفتان من المسلمين فلابد من الإصلاح بينهم، وبأية وسيلة ممكنة، ثم إقامة العدل بينهم، ولكن إذا بغت إحداهما على الأخرى، ولم تسلم للإصلاح فلابد من تحمل المؤمنين لمسؤولياتهم الخطيرة المتمثلة في محاربة الفئة الباغية، حتى تفيء إلى أمر الله وتقبل الصلح والتحاكم إلى الشريعة المقدسة، فإن فاءت تقوم الأمة بنشر العدالة والقسط في أوساطها (الآية: ٩).

ويرسي القرآن قاعدة الأخوة بين المؤمنين لتكون محوراً أساسياً للعلاقة بينهم، ولطائفة من التعاليم والأنظمة والآداب أبرزها ضرورة الإصلاح بين الإخوة لعل الله يرحمهم بذلك (الآية: ١٠).

٤- ولكي نقتلع جذور الصراع، ثم لكي نعيش في ودٍّ ووئام، لابد أن نطهِّر قلوبنا من عقد التعالي فوق بعضنا. فنحن جميعاً بشر متساوون لا يجوز أن يسخَر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم عند الله وفي عالم الواقع، فيكون استهزاؤهم بهم محض سفه،

ومجرد خسارة لهم للمكاسب التي يمكنهم الحصول عليها، كما لا يجوز أن تَسْخَر نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنّ خيراً منهن.

وحتى إذا ألقى الشيطان في أنفسنا هذه النظرة الشاذة، فلا يجوز أن نفصح عنها، وأن نعيب بعضنا أو أن نتبادل الألقاب البذيئة. أوَ لسنا مسلِمين قد طهَّر الله حياتنا من كل قذارة، فلماذا نسمي بعضنا بأسماء الفسق وقد أكرمنا الرب بأسماء إسلامية رفيعة المستوى؟ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان (الآية: ١١).

ونهدم علاقاتنا ببعضنا إذا استرسلنا مع الأوهام والشكوك والظنون التي تثيرها الأحقاد أو الحالات النفسية أو الإشاعات المغرضة. وهكذا يأمر الإسلام باجتناب كثير من الظن، ويؤكد أن بعض الظن إثم، ولعله الذي نتحقق منه بالتجسس، أو نجعله موقفاً لحياتنا ولو ظننا سوءاً فلا يحبذ التحقق منه. وهكذا ينهانا الدين ويقول ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وإذا عرفنا من أخينا عيباً مستوراً فلا يجوز أن نشيعه عليه من وراء ظهره بالغيبة، لأنه بمثابة أكل لحم أخينا ميتاً. أوَلَيس ذلك نيلاً من كرامته؟ وكرامته أعظم أم بدنه (الآية: ١٢)؟

٥- ثم يرسي السياق قاعدة التوحيد التي ترفض أي نوع من التمييز المادي بين الإنسان والإنسان، ويؤكد ربنا أن أصل البشرية واحد؛ آدم وحواء، فلا تفاخر في الأنساب، وأن الحكمة من جعلهم شعوباً وقبائل هو التعارف وليس التدابر والتسامي، فإذا عرف بعضهم بعضاً ضبطت المسؤوليات والحقوق وتهيأت فرصة العدالة. بلى؛ إن هناك تمايزاً واحداً هو التقوى، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم. ومن معاني التقوى سلامة الفكر واستقامة السلوك، وبذلك يكون التنافس على ما يقدم البشرية نحو أهدافها النبيلة (الآية: ١٣).

٦- وفي الآيات الأخيرة يفسّر السياق التقوى ببيان أصلها المتمثل في الإيمان، ربما لكي لا يدعيها الطامعون والانتهازيون فيقول: قالت الأعراب آمنا..

وكان طائفة التجأوا إلى المدينة طمعاً في خيراتها بعد أن أجدبت أراضيهم، فنفى عنهم القرآن إيمانهم، ولكن لم ينف أنهم مسلمون، كما لم ينف أجرهم عند الله، إن هم أطاعوه وأطاعوا الرسول. أوليس الله غفوراً رحيماً؟ (الآية: ١٤).

وهناك مقياسـان نستوحيهما من القرآن للإيمان؛ عدم الشك بخاصة عندما تخالف تعاليم الدين أهواءهم ومصالحهم، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فمن فعل ذلك فقد كان صادقاً في إيمانه.(الآية: ١٥).

ويزعـم البعـض أن ادعاءه الإيمان يكفيـه، وكأنه يعلّم الله بدينـه، والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم.(الآية: ١٦).

وترى بعضهم يمنون على الرسول ﷺ إسلامهم -كأعراب البادية الآنف ذكرهم - والله يمن عليهم بالإيمان، لأنه نعمة كبرى إن كانوا صادقين في ادعائه (الآية: ١٧).

ويختم القرآن السـورة بأن الله يعلم غيب السـماوات والأرض وأنه بصير بما يعمل الخلق، ولعله تحذير من ادعاء الإيمان لمصالح مادية (الآية: ١٨).

50

سورة ق

* حجب الغفلة عن المسؤولية والجزاء

حجب كثيرة تمنعنا من ملامسة الحقائق الكبرى، التي منها المسؤولية والجزاء، وحين يُسْقِط الإنسان عن نفسه هذه الحجب يشاهد الحقائق بوضوح، ويدفعه إلى التسائل: كيف، ولماذا أنكرتها من قبل؟.

وفي سورة (ق) يعالج القرآن الحجب النفسية التي تمنع البشر عن الإيمان بالآخرة، ثم يسرد شواهدها ومشاهدها وما يجري لأهلها من صعقات هائلة، بَيدَ أن السياق -كما يبدو- يركز على حجاب التعجب الذي هو تيار عند الكفار، عندما يذكرون بالبعث ويقولون: هذا شيء عجيب؟! كيف يمكن أن نعود أحياءً بعد أن نمسي تراباً؟ إنها عودة مستبعدة! (الآيات: ١-٣) وتتلاحق بصائر الذكر في تقريب هذه الحقيقة:

أولاً: يعلم الله ما تأكل الأرض من أجسامهم ذرة ذرة، وخلية خلية، وعنده كتاب حفيظ، لا يدع شيئاً إلا ويحفظه.(الآية: ٤).

ثانياً: إن وراء تكذيبهم بالحق حالة نفسية، وهي خشية تحمل المسؤولية، والخلود إلى أرض الشهوات، وهذا يجعلهم في أمر مختلط.(الآية: ٥).

ثالثاً: هذه السماء بما فيها من متانة البناء، أليست دليلاً على قدرة الرب، أو لا تكفي

وسيلةً لتوسيع أفقنا العلمي حتى نعترف بقدرة الرب على رجعنا من جديد؟(الآية: ٦).

رابعاً: الأرض؛ ألا ترى كيف مدّها الله وأركزها بالراسيات وأنبت فيها من كل زوج بهيج؟(الآية: ٧).

بلى؛ إنها أدلة كافية، ولكن لمن؟ لكل عبد منيب، مهيأ نفسياً لمثل هذه البصائر والآيات، ومثل ذلك الغيث الذي ينبت به الله جنات من الأشجار ومروج حب من حب الحصيد، أرأيت النخل باسقات لها طلع نضيد؟ إن كل ذلك أنشأه الله ليكون رزقاً للعباد.

وبكلمة صادعة يفجّر السياق ينبوع المعرفة في القلوب الصافية ويقول: وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج.. إنها تحرق حجب التعجب والاستبعاد، أرأيت النواة كيف تختزل حياة شجرة باسقة حتى إذا أنزل الله عليها الماء وأمدها بوسائل النمو أصبحت شجرة باسقة، كيف لا يمكن أن يفعل مثل ذلك بالإنسان بعد موته؟ (الآيات: ٨-١١).

ثم يصبُّ حمم الغضب على الكاذبين لكي يزيل عامل اللامبالاة عند الكفار بالبعث، الذي قادهم إلى التعجب،ويذكّرهم بمصير قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع، كيف نزل بهم وعيد الله حين كذبوا الرسل؟

ويستشهد بالخلق أول مرة، الذي يهدينا متانة نظمه وتنوعه إلى إقتدار خالقه وأنه كان عليه يسيراً، أفلا يدل على أنه قادر على الخلق الجديد؟ (الآيات: ١٢-١٥).

وفي آيات متواصلات يزرع القرآن خشية الرب في نفس الإنسان، لكي يتحسس بمسؤوليته تجاه ما يتحدث به،فيذكره بأنه خلقه ويعلم حتى ما توسوس به نفسه، (بالرغم من ادعاءاته الكاذبة) لأنه أقرب إليه مما به حياته ظاهراً وهو حبل الوريد (الآية: ١٦).

فحين يتلقى المتلقيان - ولعلهما الملكان أو المتحدثان أنىّ كانا- ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، وهوإلى كل ذلك لا يملك دفاعاً عن نفسه حين تهجم عليه سكرة الموت بالحق فلا يدفعه بالرغم من أنه كان يحاول أبداً الحيد عنها (الآيات: ١٧-١٩).

أما حين ينفخ في الصور فهو يوم الجزاء الذي وعد الله، يومئذ يؤتى بكل نفس يسوقها السائق ويرافقه الشاهد.. -هذا ما كان يتعجب منه ظاهراً، وإنما كان غافلاً عنه- بينما اليوم يراه ماثلاً أمام عينيه (فبصره حديد) (الآيات: ٢٠-٢٢).

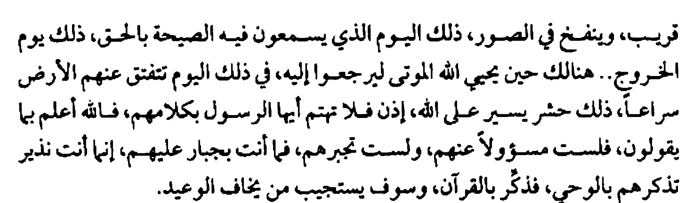
أما قرينه (وهو الملك حسب بعض المفسرين) فيقول هذا كتابه لدي عتيد، قد حفظته منذ أيام حياته الأولى. هنالك يأمرهما الله بإلقائه في جهنم مع كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب. وهكذا تحمَّل جزاء ريبه النابع من تهربه عن المسؤولية، وجَعْلِه مع الله إلهاً آخر (الآيات: ٢٣-٢٦).

أما قرينه -وهو هنا الشيطان الذي أغواه- فإنه يتبرأ منه ويقول: ربنا ليس أنا الذي جعلته يطغى -محاولة منه للهروب من مسؤولية إغوائه- إلا أن الرب يأمر بإلقائه أيضاً في جهنم، إذ إن مسؤولية أحدهما لا تنفي مسؤولية صاحبه، وما الله بظلام للعبيد، وإن جهنم تسع المزيد من المجرمين، فلا تظنن أن إلقاءك مسؤولية غفلتك على الآخرين يبرئ ساحتك، أو أن جهنم لا تسع إلا هو أو أنت.(الآيات: ٢٧-٣٠).

وفي جانب آخر؛ نجد مشهد المتقين الذين تزدلف إليهم الجنة ويُبَشَّرون بها، أوَلَيسوا قد وُعدوا بها لما تميَّزوا به من التوبة والتقوى خشية الرحمن بالغيب وإنابة القلب، فاليوم يقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام خالدين فيها أبداً، ولهم كل ما يشاؤون من النعم فيها، ويعطيهم الله من فضله المزيد (الآيات: ٣١-٣٥).

ويبقى الغرور حاجزاً آخر أمام الإيمان، ولكن ألا يقرؤون التاريخ ليروا كم أهلك الله من قبلهم من قرن كانوا أشد منهم بطشاً حاولوا الهرب من مصيرهم فلم يفلحوا؟ ولكن القلوب المريضة والأسماع الصمّ لا تستوعب هذه الحقائق. ولا يزال يقول الكافر: كيف يحيي الله الناس بعد موتهم؟ أفلا ينظرون كيف خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام بلا أي تعب؟ (الآيات: ٣٦-٣٨).

وفي خاتمة السورة (الآيات: ٣٩-٤٥) يأمر الله رسوله -ومن ثم المؤمنين- بالصبر على ما يقولون، لكي لا يُحرجوا به، أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد، وبتسبيح الله صباح مساء، وفي الليل، وعند الأسحار، وانتظار ذلك اليوم الذي ينادي المنادي من مكان



قريب، وينفخ في الصور، ذلك اليوم الذي يسمعون فيه الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج.. هنالك حين يحيي الله الموتى ليرجعوا إليه، في ذلك اليوم تتفتق عنهم الأرض سراعاً، ذلك حشر يسير على الله، إذن فلا تهتم أيها الرسول بكلامهم، فالله أعلم بما يقولون، فلست مسؤولاً عنهم، ولست تجبرهم، فما أنت بجبار عليهم، إنما أنت نذير تذكرهم بالوحي، فذكّر بالقرآن، وسوف يستجيب من يخاف الوعيد.

51

سورة الذاريات

* لماذا خلق اللّه مخلوقاته؟

مثلما تذرو الأعاصير الحطام ذرواً، ومثلما تحمل السحب وِقْر الغيث إلى الأرض العطشى، ومثلما تجري السفن الثقيلة في البحر سيراً، وكما يقسم ملائكة الله أرزاق العباد أمراً، كذلك وعد الله صدق حقاً حقاً. متى؟ في يوم الجزاء الذي لا ريب فيه.(الآيات: ١-٦)

هكذا تنتظم آيات سورة الذاريات حول محور المسؤولية التي يهدينا إليها التدبير القائم في الخليقة، وأن كل شيء خُلِق بقدر، وإلى أجل، ولحكمة بالغة.. أفيترك هذا الإنسان الذي سُخِّرت له الأشياء سدىً؟ أو يمكن أن يكون خلقه عبثاً بلا حكمة ولا هدف؟

كلا؛ قَسَماً بالسماء المنتظمة كحلقات الدرع المتينة؛ إن الرسالة حق، وإنما اختلفوا فيها أو انحرفوا عنها لأنهم خراصون، إن يتبعون إلا ظناً، ولم يأخذوا الأمور بجد، بل تغمرهم أمواج الأماني، ساهين عما ينتظرهم، ويسألون باستهزاء: متى يأتي الجزاء؟ هل يدرون أيان يوم الجزاء؟ عندما يُعرضون على النار عرضاً، وقبل أن يلقوا فيها يُقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الآيات: ٧-١٤).

أوليس هذا الجزاء الحق كان لإيقاظ الإنسان من سباته، وإنقاذه من غمرات

السهو؟ بلى؛ وفي الجانب الآخر انظر إلى المتقين الذين آمنوا بالجزاء، فتجنبوا النار وما يجرهم إليها في الدنيا، أين تراهم اليوم؟ إنهم في جنات وعيون، وكما أحسنوا في الدنيا بالعطاء تراهم اليوم يأخذون عطاءهم من ربهم.

أي عمل عظيم قاموا به فبلغوا هذه الدرجات العلى؟.

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون تبتلاً إلى الله تعالى، وبالأسحار هم يستغفرون تطهراً من الذنوب وتطلعاً إلى المغفرة والرضوان، وقد وضعوا على أنفسهم في أموالهم حقاً مفروضاً للسائل والمحروم، غير الواجبات التي فُرِضت عليهم، إحساناً وفضلاً (الآيات: ١٥-١٩).

أفلا يكفي ذلك باعثاً للصالحات، وداعياً إلى المكرمات؟ أفلا يكفينا سهواً وغفلة وهزلاً؟

وإذا نظرت إلى الأرض كيف مُهِّدت للحياة، وإلى النفس كيف انطوت على عالم كبير اختصرت آيات الخليقة في كل خلية منها، وإلى السماء كيف يتنزل منها رزق الله وما وعده الداعين من فضله، لعرفت أنه الحق كما أنك لا ترتاب في نطقك (الآيات: ٢٠-٢٣).

ويضرب القرآن مثلاً من ضيف النبي إبراهيم عليه السلام المكرمين، كيف بشروه بغلام عليم لأنه أطاع الله تعالى، وحملوا العذاب إلى قوم النبي لوط عليه السلام لأنهم كذبوه، أوليس ذلك دليلاً على أن وعد الله صادق، وأن الدين لواقع، وأن الرسالة حق لا يحتمل السهو واللهو والسخرية؟

كما أن استجابة الدعاء لامرأة إبراهيم العجوز العقيم لشاهد صدق على تدبير الله للخلق، وأن وعده لصادق عندما أمرنا بالدعاء ضمن الإجابة (الآيات: ٢٤-٣٧).

و يقص السياق عاقبة فرعون الذي كذب برسالة النبي موسى عليه السلام الذي جاءه بسلطان مبين، فأخذه الله -وجنوده- فألقاه في اليم غير مأسوف عليه (الآيات: ٣٨-٤٠)، كذلك يشير إلى قصة عاد الذين أرسل عليهم ريحاً مدمرة، وقصة ثمود الذين أخذتهم الصيحة، وقصة قوم نوح عليه السلام الذين لفهم الطوفان، كل أولئك الذين فسقوا

عن أمر الله فدمر عليهم، فهل هذا سهو أم هزل؟ (الآيات: ٤١-٤٦).

كلا؛ ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق والحكمة.

تعالوا ننظر إلى السماء التي بناها الله بقوة وإنه لموسعها، وإلى الأرض فرشها برحمته، وخلق من كل شيء زوجين، لعلنا نذكر وحدته وحسن تأليفه وتدبيره.

على أيّة بصيرة تشهد كل هذه الحقائق؟ أو ليس على أنه سبحانه المدبر والسلطان المهيمن؟ ألا نفر إليه لنأمن في كهفه من عواصف الفتن، وقواصف العذاب، سالمين من فتنة الشركاء والأنداد الذين ينهبون في الدنيا حقوقنا ويقودوننا في الآخرة إلى سواء الجحيم؟ (الآيات: ٤٧-٥١)

من أجل هذا جاء الرسول وجاءت سائر الرسالات، ولكن الناس تمردوا وقالوا عن كل واحد منهم أنه شاعر أو مجنون، فهل تواصوا بذلك أم هم قوم طاغون؟ (الآيات: ٥٢-٥٣).

ذرهم في غيهم غير ملوم عليهم، وتوجه للقاء المؤمنين فذكّرهم، إن الذكرى تنفعهم.(الآيات: ٥٤-٥٥).

و كذلك جاء الرسل لتحرير الإنسان من نير العبودية الشركية إلى رحاب عبودية الرب الواحد، وإنها لحكمة خلق الجن والإنس، فما خلقهم الله ليربح عليهم أو يعطوه شيئاً، تعالى الله ذو القوة المتين أن يصل إليه نفع من عباده أنى كان صغيرا (الآيات: ٥٦-٥٨).

إذن؛ فما هي عاقبة هؤلاء الظالمين والكافرين؟ دعهم يستعجلون العذاب، فإن نصيبهم منه مضمون وإنهم لمعذبون مثل سلفهم الغابر، وإن لهم الويل في يوم المعاد عندما يحيق بهم ما استهزؤوا به.

وهكذا تختم السورة بما يبدو أنه محور السورة الأساس؛ أي حكمة خلق الله للإنس والجن المتمثلة في عبادته (الآيات: ٥٩-٦٠).

52

سُورَةُ الطُّور

* متى يؤمن الإنسان بربه

قَسَماً بالطور، والكتاب المسطور. قَسَماً بالبيت المعمور، وبالسقف المرفوع. قَسَما بالبحر المسجور، إن عذاب الله حق، وإنه واقع بالتأكيد (الآيات: ١-٨).

بهذه الكلمات الصاعقة تفتتح السورة التي جاءت لشفاء الإنسان من مرض الجدل، وما أكثره جدلاً.. متى يصدِّق بهذه الحقائق؟ أفي يوم تمور السماء موراً، وتسير الجبال سيراً، وهل ينفعه التصديق يومئذ حيث يصب الويل للمكذبين؟ (الآيات: ٩-١١).

إنهم لم يكونوا يأبهون بالنُّذُر، بل كانوا سادرين في لعبهم، فهل لهم أن يستمروا كذلك يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً،وهل لهم أن يكذبوا بنارها التي تتقد أمامهم، أم يقولون يومئذ: إنها خيال وسحر زائف؟!.

ليس المهم ما يقولون، ولا أنهم يصبرون يومئذ على النار أم لا يصبرون، لأنهم مواقعو النار، يصلون لهيبها بما كانوايعملون (الآيات: ١٢-١٦).

هكذا تتواصل الآيات تستزيح من نفس الإنسان حالات الجدل واللعب والتهرب من الحقائق بالأعذار التافهة، ولكيلا يستريح الإنسان إلى الرخاء الظاهر والأمن المؤقت الذي يعيشه اليوم، لابد أن يتحسس ذلك اليوم الذي يهتز فيه كل شيء؛ من السماء التي

كانت سقفاً محفوظاً، إلى الجبال التي كانت ركناً شديداً.

ثم يرسم السياق لوحة بارعة الجمال تتجلى فيها صورة أهل الجنة، وهم يتنعمون في جنات واسعة، بعيدين عن عذاب الجحيم، يأكلون ويشربون بما عملوا من الصالحات في حياتهم الدنيا، وقد استراحوا على سرر مصفوفة، وزوَّجهم الله بحور عين، وحولهم الصالحون من ذريتهم، ووفَّر الله لهم النعم من الفاكهة واللحم والكأس الكريم، ويتذاكرون نعم الله عليهم، أولم يكونوا مشفقين في أهلهم، وجلين من عذاب جهنم، فقد وقاهم ربهم -بمنه - عذاب السموم (الآيات: ١٧-٢٧).

وبعد أن نشاهد هذه اللوحة التي تثير اشتياق النفوس الكريمة، يتناول السياق ما يبدو أنه الموضوع الرئيسي للسورة، وهو معالجة حالة الجدل في الحقائق الواضحة، وذلك بتسفيه الأعذار التي يتشبث بها الإنسان للتهرب من قبول الحق، وهي مظاهر مرض الجدل الخطير. لقد قالوا: إن الرسول كاهن أو مجنون، وقالوا: بل هو شاعر فإذا مات انتهت دعوته، وقالوا: إنه افتراه.

كل تلك الدعايات تتلاشى حينما يضعها الإنسان في إطار الحقائق الكبرى، ويتصور نعم الله التي يسبغها عليه (من الطور وكتاب مسطور والسقف المرفوع و.. و..) وعندما يتحسس يوم القيامة عندما تمور السماء موراً، وتسير الجبال سيراً، كذلك تتلاشى أفكار مشابهة مثل التفكير في عدم الحاجة إلى البارئ (الآيات: ٢٧-٣٤).

ويتساءل السياق: إذن هل هم خلقوا أنفسهم؟ أم أنهم خُلِقوا من غير شيء؟ ومن الذي خلق السماوات والأرض؟ كلا؛ بل لا يوقنون، وهذه هي مشكلتهم الأولى، ومن يريد الفرار من الحقيقة الواضحة لا يجد أمامه سوى هذه الخرافات (الآيات: ٣٥-٣٦).

ويمضي الذكر الحكيم في بيان ضلالاتهم وتفنيدها، فمن يا ترى يسيطر على خزائن السماوات والأرض؟ ثم يقولون: إن لله البنات، فهل لهم البنون، ولله ما يعتبرونه الأدنى أي البنات، ما لهم كيف يحكمون؟ (الآيات: ٣٧-٣٩).

أم تراهم يخشون من دفع غرامة إن هم آمنوا، أو يُطالبوا بأجر، أم أنهم يعلمون الغيب بوضوح فيعتمدون عليه في تخرصاتهم؟.

الإنسان، إضافة إلى علاجه العقائدالمنحرفة معالجة مباشرة.

كما تشير آيات السورة (الآيات: ١٩-٣٠) إلى أن المسافة بين الهدى والهوى هي بالذات المسافة بين الحق والتمنيات، وبين السعي والأحلام. وبالتالي فإن القرآن الكريم يهدف إلى نسف معتقدات المشركين نسفاً، باعتبارها غير ذات رصيد من الحق أبداً، وهي ليست سوى أسماء لا مسميات لها.

وبصراحة الحقيقة وبقوة اليقين، يتقدم بنا السياق القرآني شيئاً فشيئاً إلى الفكرة المركزية في هذه السورة، وهي فكرةالمسؤولية التي نجدها في تضاعيف أغلب آياتها وكأنها خافية لكل فكرة فيها وشاهد، إلا أنها تتجلى كصراحة الشمس عند قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (الآية: ٣٩).

ولكن الله جل اسمه قبل أن يقذف بهذا الحق على باطل ثقافة التبرير واتباع الهوى، يذكّرنا بلون من ألوان الشفاعة المقبولة عنده، وهي شفاعة الأعمال الحسنة للإنسان عن اللمم من السيئات.

ولعل تقديم هذه الفكرة (الشفاعة) المشحونة بالرجاء واللطف الإلهي على فكرة المسؤولية وما فيها من الشدة والصرامة، يهدف إعطاء الأمل في رحمة الله لكيلا ييأس ابن آدم فيوغل في الجريمة والذنب، أو يقعد عن عمل الصالحات.

54

سُورَةُ القَمَرِ

* منهجية القرآن في التذكير بالآخرة

تحيط آيات هذه السورة المباركة بثلاثة محاور رئيسية، هي:

١- إعراض الكفار عن الآيات الإلهية، سواء تمثلت في الرسالات النازلة، أو المعاجز التي تظهر على أيدي الأنبياء، أو ما تتجلى في الكائنات أو السنن التي تتجلى في تاريخ الأمم الغابرة، ونجد مرتكزا لهذا المحور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (الآية: ٢).

٢- التكذيب بالحق، ويبرز هذا المحور عند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (الآية: ٣)، وهكذا شبيهاتها (الآيات: ٩، ١٨، ٢٣، ٣٣، ٤٢).

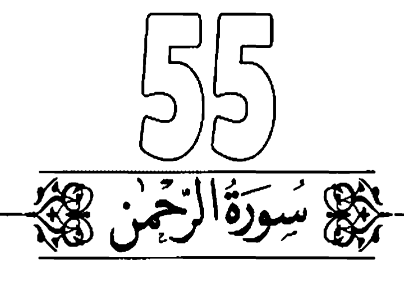
٣- التذكرة، ويظهر ذلك من تكرار قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ في أربعة مواضع، بالإضافة إلى (الآيتين: ١٥، ٥١).

وبالتدبر العميق في السورة نجد ارتباطاً وثيقاً بين المحاور الثلاث فيها، فالإعراض بالإضافة إلى كونه مظهرا للتكذيب هو أيضاً سبب له، وهذا يبين لنا أن تكذيب الرسالات ليس منطلقا من قناعة المكذبين بها، وإنما من انحراف حقيقي في أنفسهم، لأنك تجدهم

يعرضون عنها وبالتالي يكذبونها قبل دراستها والتفكر فيها.

ولكن ما هو علاج الإعراض والتكذيب عند البشر؟ إنه التذكرة. والقرآن إنما جاء ليحقق هذا الهدف الهام والكبير، لذلك نجده من حيث المحتوى والأداء الأدبي والنفسي والفكري حكمة بالغة، تنفذ إلى أعمق أغوار نفس الإنسان، وأبعد آفاق عقله، ولكن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، فهو ميسر من قبل الله، وهذا التيسير هو الذي جعل كلام الخالق الذي لا يتناهى عظمةً وجلالاً وعلوًّا بيّناً وواضحاً عند خلقه.. قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْلاَ تَيْسِيرِهِ لَمَا قَدِرَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِحَرْفٍ مِنَ القُرآنِ، وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ وَهُوَ كَلاَمٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَال»[1]، ولكن المعنى الذي يرتبط بعلاج الإعراض والتكذيب عند البشر هو أن القرآن يصور لنا الحقائق الكبرى، كحقائق الغيب التي ينحسر عنها -لولا تيسير القرآن- وعي الإنسان، ومنها الآخرة، تصويرا بليغا بحيث تصبح يسيرة الفهم والاستيعاب، الأمر الذي يُحدث تعادلا في عقل الإنسان بين ما غاب مما يحدث في المستقبل وما هو حاضر يحسه ويعايشه. إنه يدعوه إلى التعايش مع الحاضر الذي تشتهيه نفسه على أساس المستقبل، أو ينهاه عن استهلاك شيء حاضر لأنه يوقعه في مهالك المستقبل.

(١) تفسير روح البيان: ج ٨، ص ٤٣٣.



* بالرحمة؛ خلق اللّه الإنسان

لماذا خلق ربنا الغني العزيز هذه الكائنات؟ أليس لأنه سبحانه الرحمن؟ آيات رحمته الواسعة تجلت في كل شيء؛ في هذاالكتاب الذي يهدينا إلى نوره ولولاه لما عرفناه، وفي هذا الإنسان الذي أحسن خلقه وأكرمه وعلمه البيان ليفضله على كثير ممن خلق، وفي الشمس المضيئة، والقمر المنير، وفي النجم المسخر برحمته، وفي الشجر الساجد لعظمته، وفي السماءالتي رفع سمكها وجعلها سقفاً محفوظاً، وفي النظام المحسوب الذي قَدَّره، وفي الميزان الذي وضعه للناس حتى يحكموا العدل بينهم ولا يطغون.(الآيات: ١-٩).

بلى؛ سبحات وجهه الكريم تتجلى في آياته، أفلا تتجلى في قلوب عباده ليعرفوه وليسكنوا إلى رحمته فلا يبتغوا عنه بدلاً؟ ما أعظم خيبة من عاش على شاطىء رحمة الله ظامئاً، لأنه لم يهتد إليها؟

هكذا تتواصل آيات سورة الرحمن مذكرة بهذا الاسم المبارك الذي لو انعكس نوره في أفئدتنا غمرها بالسكينةوالأمل، بالتطلع والتوكل، بالعطاء والكرامة.

لماذا اليأس وربنا الرحمن؟.

لماذا الانغلاق وخالقنا الرحمن؟.

و بهذه التساؤلات الحادة المتتالية يستثير القرآن عقولهم ووجدان ضمائرهم حتى يروا بطلان تلك الأفكار بأنفسهم (الآيات: ٤٠-٤١).

ثم يقول: ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ ﴾، ويبدو أن هذا هو جواب التساؤلات، ولكن ليعلموا أنهم هم المكيدون، وأنه لا إله إلا الله الواحد لا شريك له، وأنه لا علاج لمثل هؤلاء عندما يرون العذاب، فيقولون: سحاب مركوم. فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون، ذلك اليوم الذي لا تنفعهم فيه مكائدهم، وليس هناك من ينصرهم وينجيهم من صعقةالعذاب (الآيات: ٤٢-٤٦).

وبعد أن يذّكر القرآن أولئك الكفار بأن عذاب الدنيا نذير لعذاب الآخرة، يأمر الرسول والمؤمنين بالصبر لحكم الله، فإنه وإياهم في رعاية رب العزة، ويأمره وإياهم بالتسبيح ليلاً وعند الأسحار (الآيات: ٤٧-٤٩).

53

سورة النجم

* ليس للإنسان إلا ما سعى

تهدينـا (الآيات: ١ -٨) إلى علاقة الرسـول الأكرم ﷺ بربه من خلال الوحي، هـذه الميزة التي تميّزه عن دعاة النظريات البشرية، وعما تتفتق به عقول النوابغ من أفكار. إنـه لا ينطق إلا بـإذن الله، مما يجعله حجة وقدوة للبشريـة في كل مكان وزمان، وهو على يقين تام بنبوته..

وبالرغم من أن كثيراً من آيات هذه السورة تحدثنا عن الوحي مما يدع القارئ يظن لأول الأمر أنها تعالج هذاالموضوع، إلا أن المتدبر يرى أن السياق يهدف معالجة المسؤولية البشريـة، وتـزداد هذه الفكرة وضوحاً عند التأكيد على المسـؤولية المباشرة للإنسـان عن أفعاله، وأن ليس له إلا سعيه، وأنه سوف يراه إن عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة.

والعلاقـة بين هاتـين الفكرتين؛ (فكرة المسـؤولية وفكرة الوحـي) علاقة عضوية واضحة، ذلك أن إحسـاس الإنسـان بمسـؤوليته نتيجة مباشرة لإيمانه العميق بالوحي، وهـل تنـزل الوحي برسـالات الله للأمم على الأنبيـاء عبر التاريخ إلا لإتمـام الحجة على الناس، و تقرير مسؤوليتهم أمام الله؟.

كما نجد في السـورة خطّاً موازياً لهذا السـياق يهدف تصحيح منهجية التفكير عند

أفلم يجعل الأرض للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، فلماذا التكذيب بآلاء ربنا والكفر بنعمه؟ (ومن التكذيب؛ تحريم الطيبات على أنفسنا بعد أن خلقها الله لنا. ومن الكفر؛ القنوط من روحه، والانطواء على أنفسنايائسين).(الآيات: ١٠-١٣).

ولقد خلق الله الإنسان، هذا العالم الكبير، ابتداءً من صلصال كالفخار (أوليس بقادر على أن يبعثه مقاماً محموداًليكون أكرم من خلقه) فلماذا اليأس والتكذيب؟

وخلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء الرب يكذب الجن والإنس؟ (الآيات: ١٤-١٦).

ويبصرنا السياق بتجليات رحمة الله في اختلاف الفصول بحساب دقيق، وبحركة المياه عبر نظام قاهر يفصل بين الفرات والأجاج، وإذا باللؤلؤ والمرجان يستخرجان منهما، وأجرى فيهما السفن الكبيرة بتقدير حكيم، فأنى يكذبون بآياته؟ (الآيات: ١٧-٢٥).

وبعد أن يشير إلى أن الثقة ليست بنظام الخليقة لأنها فانية، بل بخالقها، لأن وجهه الكريم باق لا يفنى، يعود ويذكّرنا بأن خزائن رحمته لا تنفذ، ومنها يسأل من في السماوات والأرض فلنسأله أيضاً، لماذا نكذب ونخسر عطاءه؟ (الآيات: ٢٦-٣٠).

إن التكذيب بآيات الله ونعمائه ليس فقط خيبة أمل في الدنيا، بل خسارة عظمى في الآخرة. وهكذا تنذرنا الآيات من عاقبة التكذيب يوم الحساب العظيم، فأنى يمكن أن نهرب من حكومته؟ هب أننا نفذنا من أقطار السماوات والأرض،فهل ننفذ إلا بسلطان منه؟ أفلا نحسب حساب شواظ النار والنحاس، فهل نقدر على مقاومتها؟ فلماذا إذن التكذيب بآلاء ربنا الغني العزيز؟ فيوم تنشق السماء وتتحول حمراء كأنها وردة، أنى يمكن التكذيب بآلاء الرحمن؟ (الآيات: ٣١-٣٨).

يومئذٍ لا داعي للسؤال عن المجرمين، أو ليسوا معروفين بسيماهم؟ فيؤخذون بالنواصي والأقدام، ويلقى بهم في نار جهنم التي كذبوا بها (حينما كذبوا بالحساب وكذبوا بآلاء الله).(الآيات: ٣٩-٤٥).

تعالوا نؤمن بربنا المقتدر الجبار ونخشاه حتى يرزقنا الجنة، فلمن خاف مقام ربه

جنتان، ذواتا ظلال وارفة، وعيون جارية، وفواكه متنوعة، وأسرّة موضونة عليها الحرير والاستبرق. هنالك تجد قاصرات الطرف من الحور الطاهرات كأنهن الياقوت والمرجان. بلى؛ ذلك جزاء إحسانهم (الآيات: ٤٦-٦١)، وأقل منهم بدرجة جنتان ملتفتا الأغصان، تتفجر فيهما عينان، فيهما من أنواع الثمار، كما فيهما الخيرات الحسان من النساء، حور محفوظات في الخيام، لم تصل إليهن يد إنس ولا جان، هنالك يستريح الصالحون على رفرف خضر وعبقري حسان.. كل هذه النعم التي يبشر بها القرآن، لماذا التكذيب بها بعدم السعي إليها؟ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام. (الآيات: ٦٢-٧٨).

56

سُورَةُ الوَاقِعَة

* آفاق الآخرة في حياة الإنسان

إن فـلاح الإنسـان في الحياة ينطلق من وعيـه بحقائقها ومعيشـتها، وأخذها بعين الاعتبـار عمليًـا بأخلاقه وسـعيه، ومع أنه مطالب بوعـي مُخْتَلِف الحقائـق، إلا أن الأمر يكون أشد ضرورة وأهمية بالنسبة للحقائق الكبرى ذات الأثر الحاسم في حياته ومصيره.

و (الواقعـة) هـذه السـورة المكيّـة التي نسـتقبل آياتهـا تذكرنا بواحـدة من أعظم الحقائق وأخطرها بالنسبة للإنسان وهي الساعة التي إذا وقعت تطبع آثارها على كل ذرة في الدنيا، فالأرض والجبال تستحيل هباءً منبثاً، وتنطوي صفحة هذه الحياة التي خلقت لابـن آدم، لتفتـح صفحات الحياة الآخـرة في فصول أولها هلاك هـذا الوجود بما فيه من البشر، وآخرها الجزاء الذي يمتازون فيه، وبينهما البعث والحساب.

فبقدر حضور الواقعة في وعي الإنسان ومعايشتها عمليًّا تكون منزلته هناك، فإما مـع السـابقين مـن الأبرار في أعـلى عليين، وأما مع أصحاب الشـؤم والفجور في أسـفل سـافلين، وإما بينهما حيث أصحاب الميمنة، ولكن من أين له الوعي بالواقعة وهي جزء من الغيب الذي حُجب عنه؟!.

بـلى؛ إنها غيـب كما الملائكة والجن والمستقبل، ولكـنْ تعـالى الله أن يلزمنا الإيمان

بحقيقة حاضرة أو غائبة إلا والآيات الهادية إليها قائمة وكافية أن تكون حجة بالغة لمن ألقى السمع وأعمل النظر والفكر وهو شهيد. فما هي آيات الواقعة؟.

أولاً: وقبل كل شيء ليس هنالك دليل ولا آية تكذب هذه الحقيقة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾، وهذه من طبيعة الحق أنه لا دليل منطقي على خلافه، والذي يكذِّب به هو الذي يحتاج إلى تبرير موقفه.

ثانياً: إن الإنسان يبرر غالباً ريبه في هذه الواقعة بالشك في إمكانيتها، لأنه ينظر إلى هذه الحقيقة العظمى من خلال قدراته المحدودة فيكفر بها. أما إذا تفكر فيها من خلال قدرة الله التي لا تحد، وسننه الحكيمة التي لا تتبدل، فإنه سيراها (حق اليقين). والإيمان بإرادة الله يأتي من التفكر في آيات قدرته المتجلية في النفس وفي الآفاق، فإن ذلك يهديه إلى عظمة ربه وتنزيهه عن العجز، والآيات (٥٧/ ٧٣) تثير العقل البشري بالحقائق وتجعل الشهود جسرا إلى الغيب.

ثالثاً: والقرآن الكريم هو الآية العظمى التي تهدي إلى كل حقيقة، بشرط أن يكون الإنسان عندما يتدبره ويؤول آياته طاهرا من كل دنس مادي (خبثا وحدثا)، ونفسي (مرضاً ونفاقاً)، وعقلي (ضلالةً وكفراً) وذلك لتجاوز الحجب التي تمنعه من لمس معانيه وتأويلاته العميقة الحقة، فإنه يرى بالفطرة السليمة، والعقل المتقد الحقيقة مكشوفا عنه غطاؤها، وبما أن مشكلة البشر ليست عقلية وحسب، بل هي نفسية أيضا فقد يسَّر الله هذه الحقيقة العظمى بالشواهد العقلية والوجدانية والواقعية، بأسلوب أدبي بليغ، ومنهج نفسي مؤثر تضمن الترغيب والترهيب، بما يقود كله إلى التسليم لها، تسليما واعيا وعميقا، يحمل صاحبه على المعادلة بين الحاضر والمستقبل، والسعي بجد وفاعلية للفوز في الآخرة، فإذا به وقد وقعت الواقعة مستعد للقاء ربه والفوز بالجنة مع المؤمنين السابقين، أو لا أقل مع أصحاب اليمين.

ولأن الموت هو الواقعة الصغرى لكل إنسان فرد، والحق الذي يحدد به مصيره، يتعرض له السياق في نهاية السورة بوصفه آية على الجزاء، ومعبراً إلى المصير والعلم اليقين بذلك الغيب الذي يُكذِّب به الضالون المكذبون.

إن أهم أهداف الرسالات الإلهية رفع الحجب التي بيننا وبين الحقائق العلمية بالتعليم، والحقائق النفسية بالتزكية لنلمسها مباشرة.

وإنما يترف الإنسان، ويصرّ على الشرك، ويكفر بالآخرة بسبب ضلاله عن ربه، ولذلك؛ يُذكرهُ القرآن الحكيم بآيات معرفته الدالة عليه، وقد تكون تلك الآيات أقرب شيءٍ إليه، ولكنه غافل عنها، كالخلق، والموت، والنشأة، والزرع، والماء، والنار... كلها من أقرب الحقائق إلينا وأكبرها شهادة وهدىً؛ لو وعيناها. والإنسان قادر على أن يجعل الحياة كلها مدرسة، وما فيها من الظواهر والعبر دروساً يكمل بها إيمانه ومعرفته، فيهتدي بالشهود إلى الغيب، وبالحاضر إلى المستقبل، وبالمخلوق إلى الخالق، إلا أن المشكلة لا تكمن في قلة العبر، وإنما في قلة الاعتبار والمعتبِر.

57

سورة الحديد

* الإنفاق من أعظم ثمرات الإيمان

ترتكز أغلبية آيات السورة حول محورين رئيسيين:

الأول: الإنفاق في سبيل الله، من دون تحديد نوع منه، فقد يتحقق بالإنفاق من النفس أو من المال أو من أي شيء آخر. ويحرضنا الذكر الحكيم على ذلك من خلال منهج واقعي ونافذ هو:

١- أن الله هو المالك الحق لكل شيء، وله الولاية التامة خلقا وقدرة وعلما وتدبيرا، وأنه الذي يحيي ويميت وإليه ترجع الأمور، أما نحن فلسنا سوى مستخلفين من قبله فيما ملّكنا، فلا ينبغي أن نرفض أمره بالإنفاق، إذ إنه هو المالك الحق.

٢- والإنفاق هو الشاهد الصادق على التزام الإنسان بالميثاق، ذلك الميثاق الذي أخذه الله عليه في عالم الذر.

٣- ولماذا يبخل الإنسان بالمال وهو لا يبقى له؟! فإما يرحل عنه أو ينتقل إلى غيره. بلى، قد يُستخلف فيه برهة من الزمن، ولكنه يموت عنه كل أهله ليعود إليه تعالى.

٤ - ثم إن الإنفاق لا يزيد الله شيئا وهو الغني الحميد، إنما النفع والضرر يعودان على الإنسان نفسه، فهو إن أنفق نما ماله، وبنى مجتمعه، وصار إلى ثواب الله ورضوانه، أما إذا بخل فلن يحصد إلا التلف، والتخلف في الدنيا، وألوان العذاب في الآخرة.

وتعالج السورة أيضا قضايا تتصل بالإنفاق.

الثاني: العدالة الاجتماعية بوصفها هدفاً تنزلت له جميع رسالات الله، وسعى من أجله كل الأنبياء والأولياء، كما ينبغي أن يتحرك لتحقيقه كل المؤمنين الرساليين، ولا تقوم العدالة إلا بالقائد الصالح (رسولاً أو وليًّا)، والنظام الصالح في البعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي، وبالميزان الذي يشخص المخطئ من المصيب، وبالسلاح المنفذ للنظام.

وهناك علاقة وثيقة بين محور العدالة والإنفاق في السورة يتمثل في أن الإنفاق في سبيل الله يساهم بصورة فعالة في إقامة العدالة ونصرة الحق. أوَليس قام الإسلام بسيف علي ومال خديجة؟.

ومن هذا المنطلق نهتدي إلى أفضلية الإنفاق والقتال قبل الفتح على الذي بعده.

إن الحركات الرسالية تنشد العدالة وإقامة الحق، والأمة مسؤولة أن تتحمل مسؤوليتها الحاسمة في دعمها والوقوف إلى صفها بالإنفاق ونصر الله ورسله وأوليائه على الظالمين.

58

سُورَةُ المجَادلة

* الإيمان الصادق.. يخرق الحجب النفسية

للنفس حرم تنطوي فيه وتتحصن داخله عن بصائر الوحي وضياء العبر والعظات، وما لم يخرق الإنسان بعزائم اليقين حجب النفس إلى حرمها، فإنه لن يفلح إذن أبداً..

ولكن كيف يتم ذلك، وبماذا؟.

إنما بمعرفة الرب، وأنه سميع بصير. إن وعي شهادة الله على كل شيء كفيلٌ بتنمية الوعي الديني في النفس، هنالك في تلك الأغوار التي تنضج قراراتها وتتحدد وجهتها ربما بعيداً عن وعي صاحبها، هنالك يصلح الإيمان ما تفسده وساوس الشيطان.

ولعل في سورة المجادلة نوراً نافذاً إلى ذلك البعيد الباطن، إلى ذلك الغور العميق، إلى ذلك الحرم المستور في النفس البشرية. وهذا الإطار يجمع -حسبما يبدو- بين محاور السورة التي تتراءى بادىء النظر أنها متباينة، كيف ذلك؟.

الف: في فاتحة السورة وفي بداية الجزء الثامن والعشرين من الذكر الكريم يتلو علينا الرب كلمة السمع، فالله (سمع) قول التي جادلت الرسول في قصة الظهار واشتكت إلى الله، وسمع تحاورها ومع الرسول، وأنه سميع بصير (الآية: ١).

باء: وبعد أن يسوق الذكر أحكام الظهار ويحدد كفارته يقول: ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله. مما فسر بأنه يعني تنمية روح الإيمان، لأن المفروض أنهم مؤمنون.

إذن؛ فالحكمة من الكفارة تنمية الإيمان في النفس، على أن الظهار يتم في العلاقة الزوجية التي هي من الأمور الشخصية والمستورة عادة، وأنه موقف خاص لا يمكن ضبطه إلا بالإيمان وبروح التقوى، كما أن كفارته كبيرة، والدافع الجنسي الذي يقف الظهار دونه متصاعد، وضمن هذه الظروف لا ينظم العلاقة سوى الواعز النفسي الذي تصنعه معرفةالإنسان بربه وبأنه سميع بصير (الآيات: ٢-٤).

جيم: وبعد أن ينذر السياق الذين يتجاوزون حدود الله (ومنها أحكام الشريعة في الظهار) يذكرنا بيوم البعث حيث ينبىء الله الكافرين بما عملوا، ويبين أنه قد أحصى ما لم يحفظوه، وأنه شاهد على كل شيء. وكل هذه البصائر تنمي روح التقوى في النفس، ليس في أبعادها الخارجية، بل في حرمها المستور (الآيات: ٥-٦).

دال: وعبر أربع آيات بينات يعالج الذكر موضوع النجوى الذي يتصل بتنمية الوعي الإيماني في النفس، مؤكداً أن الله سبحانه حاضر عند كل نجوى، فما من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ثم ينذر الذين يتناجون بالإثم والعدوان، ويتحدون عذاب الله، ويكفرون بالنذر قائلين: لماذا لا يعذبنا الله بعد التناجي؟ حسبهم جهنم، ويرسم القرآن حدود النجوى المسموح بها عندما يتم التناجي بالبر والتقوى، وينفي أي أثر لتناجي الكفار، ويأمر المؤمنين بالتوكل على الله تعالى (الآيات: ٧-١٠).

ومن الواضح أن التقوى هي وحدها التي تضبط النجوى من الانحراف في الإثم والعدوان ومعصية الرسول، وبما أن هدف تناجي الكفار التعالي، يوصي ربنا المؤمنين بالتواضع لبعضهم بالتفسح في المجالس، وتركها إذا أمروا بها، ويبين أن الله هو الذي يرفع المؤمنين وأهل العلم درجات (بدرجات إيمانهم وعلمهم)، وأنه ليس انتخاب المجالس القريبة من القيادة أو طول المكث عندها سبب التعالي كما يحسب الكفار والمنافقون. (الآية: ١١).

ويأمر المؤمنين بإيتاء الصدقة قبل تناجي الرسول (لكي لا يتسابقوا إلى ذلك طلباً

للفخر)، ثم يتوب عليهم رعاية لهم، لأنهم اشفقوا من تقديم الصدقات (الآيات: ١٢-١٣).

هـــاء: ويعالج السـياق بعدئذ موضوع البراءة من الكفـار الذي يتصل أيضاً بالوعي الإيـماني، وينـذر المنافقين الذين يتولونهم واقعاً، ثم يتخذون إيمانهم جنة، حيث يحلفون على الكذب أنهم مؤمنون حقاً (كل ذلك طلباً للثروةوالقوة، ولا يعلمون أنهما لا تنفعانهم شيئاً).

ويبـين القـرآن أن الأمـوال والأولاد لا تنفـع في يـوم القيامـة، حيـث يبعثهـم الله ليحاسبهم، فإذا بهم يحلفون له عبثاً كمايحلفون للمؤمنين في الدنيا. (الآيات: ١٤-١٨).

واو: وما يفرق بين المؤمن والمنافق ليس تلك المظاهر (مناجاة الرسـول، والتقرب المـكاني منـه، والتأكيـد عـلى صـدق الإيمان بالحلـف الـكاذب)، إنـما هي تلـك الحقائق (التحسـس بشـهادة الله، والكفارة عند الظهار،ومراعاة حدود الله وأحكامه، والتواضع لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله)، وبها يتميز حزب الشيطان عن حزب الله، فإن حزب الشـيطان هم الخاسرون، وهـم الذين يتجاوزون حدود الله (ويتولـون أعداء الله)،ولقد كتـب الله بغلبة رسـله، وأكد أن المؤمنـين حقاً لا يتولون من حـاد الله حتى ولو كانوا من ذوي قرباهـم، لأن الله قدثبـت قلوبهم على الإيمان، وأيدهـم بروح منه، وأعد لهم جنات خالديـن فيها، وقـد رضي عنهم ورضوا عنه، واعتبرهـم من حزبـه، ألا إن حزب الله هم المفلحون. (الآيات: ١٩-٢٢).

59

سورة الحشر

* الإيثار قمة الأخوة الإيمانية

تفتتح السورة بتسبيح الله وبيان عزته التي تجلت في دحر الكافرين، وتختتم بأسماء الله الحسنى، وفيما بينهما تبين الأخوة الإيمانية التي تشد المسلمين إلى بعضهم، بينما الكفار تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

ففي السورة -إذن- محوران يتصلان ببعضهما اتصال الرافد بالينبوع، والدوحة بجذورها الضاربة في العمق..

ذلك أن تسبيح الله وتقديسه عن الشركاء، والذوبان في بوتقة توحيده، والاستظلال تحت راية حمده التي ترفرف بأسمائه الحسنى .. كل ذلك أساس التجمع الإيماني المتسامي عن حواجز المادة، وجذر لدوحة الصفات المثلى، كالتكافل والإيثار، وينبوع روافد الحكمة والجهاد والعزة الإلهية.

وهكذا تنساب آيات السورة في الآذان الواعية، فتطهر القلوب من أضغانها، وتزرع الحب في أرجائها.

تعالوا نستقبل زخات النور المنبعث من آياتها المباركات..

لأن الله قدوس، يسبح له ما في السماوات والأرض، فهو العزيز الحكيم. (الآية: ١).

ولأنه عزيز، فإنه قهر الذين كفروا بالرسالة وحاربوها من أهل الكتاب، وأخرجهم حتى يوم الحشر من ديارهم بالرغم من تجذرهم فيها، فلم يظنوا بأنهم خارجون منها، كما لم تظنوا ذلك.. لماذا؟ لأنهم شاقوا الله حينما كفروا برسالته،وحينما شاقوا الرسول، ومن آيات عزة الله أنه شديد العقاب بالنسبة إلى من يشاق الله. (الآيات: ٢-٤).

ويشرع السياق في بيان أصول التكافل الاجتماعي بين المسلمين عبر نقاط متواصلة:

الأولى: إن ما أفاءه الله على رسوله من دون حرب، فهو لله وللرسول وللمستضعفين من المسلمين. (الآيات: ٥-٦).

الثانية: إن الهدف من توزيع الثروة منع تراكمها بين الأغنياء فقط. (الآية: ٧).

الثالثة: الفقراء من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله ونصروا الله ورسوله أولئك هم الصادقون،فهم يستحقون الفيء. (الآية: ٨).

الرابعة: الذين سبقوهم إلى دار الإيمان وهم الأنصار لا يجدون في أنفسهم حاجة مما أوتوا، لأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولأن الله قد وقاهم شح أنفسهم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. (الآية: ٩).

وهكذا تتدرج آيات السورة ابتداءً من التكافل الاجتماعي لتبلغ أسمى مراحل الأخوة الإيمانية المتمثلة في الإيثار،ويبدو أن هذه البصيرة هي محور السورة كلها.

الخامسة: لكي تبقى مسيرة الأخوة عبر الأجيال، فإن المؤمنين يستغفرون الله لمن سبقهم بالإيمان. (الآية: ١٠).

السادسة: إن المؤمنين يدعون ربهم دوماً أن ينزع من صدورهم أي غلٍّ تجاه إخوتهم المؤمنين. (الآية: ١٠).

السابعة: وكما يضرب القرآن لنا مثلاً أعلى للأخوة بين أبناء البشر في قصة الأنصار (من أهل المدينة)والمهاجرين (من غيرهم) وما كان بينهم من إيثار وحب، يسوق أمثولة

مـن واقـع المنافقـين (من أهـل المدينة) وكفـار أهل الكتـاب (من غيرهم) كيف سـادت علاقاتهـم الخيانـة، فقد وعدوهـم بأن ينصروهم إن هوجموا والله يشـهد إنهـم لكاذبون؛ كـما يسـوق أمثولة أخرى من واقـع اليهود كيف أنهم يفقدون التمسـك بعزة الله، فتراهم يرهبون منكم، كما أن قلوبهم شتى فيما بينهم لأنهم قوم لا يعقلون. (الآيات: ١١-١٥).

وهكـذا علاقـة الشـيطان بمن يتبعـه، يأمـره بالكفر (ويمنّيـه بالنصر) ولكنـه يخذله، ويقول: إني أخاف الله رب العالمين، فيكون عاقبتهما النار خالدين فيها. (الآيات: ١٦-١٧).

الثامنـة: ولكي تنمو في الأمـة روح التقوى التي هي أصل كل خير، فإن الله يأمرنا بـأن ننظر ماذا نقدم لـدار مقرنا التي ننتقل إليها غداً، ويأمرنا بذكره أبداً، لأن من ينسـى الله ينسيه الله نفسه، وأن نسعى لنكون من أهل الجنة (التي سبقت الإشارة إليهم، وكيف يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، وأن نحذر مصير أهل النار، فهما لا يستويان مثلاً، أصحاب الجنة هم الفائزون. (الآيات: ١٨-٢٠).

وفي ختام السـورة يتحف ربنا رسـوله والمؤمنين ببيان أسمائه الحسنى عبر آيات لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاًمتصدعاً من خشية الله.

وإذا تفكرنا في هذه الأسـماء ووعيناها، فـإن الانصهار في بوتقة التوحيد والخروج من شح الذات يكون ممكناً بإذن الله تعالى. (الآيات: ٢١-٢٤).

60

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

* القرآن يربّي التجمع المؤمن

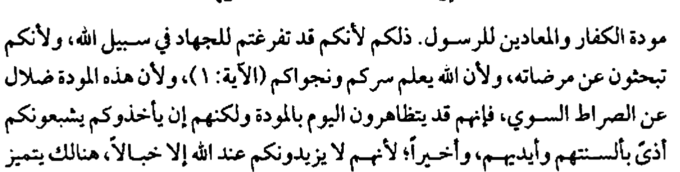
الصورة المثلى التي تبشر بها رسالات الله لحضارة الإنسان في المستقبل، هي صورة ذلك المجتمع المبدئي الذي يتعالى عن مؤثرات المادة السلبية، ليسمو إلى أفق القيم الربانية، آنئذ تنصهر كل القوى في بوتقة الوحي، بعيداً عن عصبية الإقليم والقوم، وحزازات الطائفة والطبقة والحزب.

ولكي تسعى البشرية نحو تحقيق هذه الصورة المثلى، فإن الوحي يصنع نموذجاً بشرياً رائعاً ممن يسميهم بحزب الله أوالأمة الشاهدة والصفوة الخالصة، لكي تكون سيرتهم قدوة لغيرهم، ولكي يكونوا كما الدرع الواقية تحيط بالأمة وتمنعها عن التمزق والتشرذم.

أرايت كيف جعل الله الجبال أوتاداً للأرض تحميها من القواصف والعواصف والهزات والزلازل، كذلك حزب الله المنتشرون في أوساط الأمة يمنعونهم من التقاتل تحت ضغوط المصالح والأهواء، وعن الاختلاف والتمزق.

ويبدو أن سورة الممتحنة تربي في الأمة تجمع حزب الله ثم الأمثل فالأمثل ممن يتبع نهجم، ويقتدي سيرتهم. وهكذاالخطاب يتوجه في فاتحتها إلى المؤمنين، لكي يبتعدوا عن





مودة الكفار والمعادين للرسول. ذلكم لأنكم قد تفرغتم للجهاد في سبيل الله، ولأنكم تبحثون عن مرضاته، ولأن الله يعلم سركم ونجواكم (الآية: ١)، ولأن هذه المودة ضلال عن الصراط السوي، فإنهم قد يتظاهرون اليوم بالمودة ولكنهم إن يأخذوكم يشبعونكم أذىً بألسنتهم وأيديهم، وأخيراً؛ لأنهم لا يزيدونكم عند الله إلا خبالاً، هنالك يتميز المؤمنون عن الكافرين (الآيات: ٢-٣).

ولمزيد من التحريض على الكفار المعادين؛ يرغب الرب المؤمنين بالتأسي بإبراهيم عليه السلام والمؤمنين في عهده الذين تبرؤوا من قومهم الكافرين، ونابذوهم العداء، وتوكلوا على الله تعالى (الآيات: ٤-٦).

إن هذا الموقف الصلب قد يجعله الله سبحانه سبباً لانتصار المسلمين على الكفار، أو لتحييدهم لا أقل، مما يسمح للمؤمنين يومئذٍ بمودة من يشاؤون منهم، لأن الله لا ينهى عن المبرة إلى غير الأعداء من الكفار والقسط إليهم، لأن الله يحب المقسطين (الآيات: ٧-٨).

وينعطف السياق إلى الحديث عن المهاجرات، ربما لأن المعروف إلتحاق المرأة بالرجل، بينما صلة الدين أقرب من علاقة الزوجية. و هكذا كانت المرأة تترك زوجها للالتحاق بأبناء دينها، ولكن يأمر القرآن بامتحانها، فإذا عرف منهاالإيمان انفصلت عن زوجها ، ومن جهة ثانية؛ إذا آمن الرجل لم يجز له الإبقاء على زوجته الكافرة.(الآيات: ٩-١١).

وبعد بيان جملة أحكام تخص هذه المفارقة، يبين القرآن بنود بيعة النساء، وأبرزها نبذ الشرك (والذي يعني نبذكل حاكمية مخالفة لحاكمية الله)، والأمانة في المال والعرض، والمحافظة على الأولاد، والتورع عن اتهام أحد (فيما يتصل ظاهراً بالأمانة في النسب)، والطاعة للقيادة.(الآية: ١٢).

وفي خاتمة السورة؛ يذكرنا الرب بضرورة الطاعة للقيادة الرشيدة، وينهى عن اتباع القيادات الضالة (الآية: ١٣).

61

سورة الصف

* استراتيجية التحرك الرسالي

ما هي صبغة التحرك الرسالي واستراتيجيته؟.

نستلهم من سورة الصف خمسة بصائر هي تحدد لنا ذلك:

أولاً: إن الحركة الرسالية ربانية الصبغة كما قال ربنا سبحانه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ولذلك فهي لا تخضع لأطر عنصرية أو إقليمية أو حزبية، إنما تتسامى إلى حيث المؤمنون كالجسد الواحد، يشد بعضهم بعضا.

وهذه الصبغة تتجلى في تسبيح الله تعالى في فاتحة السورة؛ فكل ما في السماوات والأرض يسبح لله وحده، فهو وحده القدوس، أما غيره فيستمد قداسته وشرعيته منه وبقدر قربه منه ومن قيم الوحي (الآية: ١).

ثانياً: انعدام المسافة بين النظرية والتطبيق، بين القول والفعل، لأن هذه هي مسافة المقت والفشل، وثغرة يتسرب منهاالنفاق إلى ضمير الحركة، كما يتسلل منها العدو إلى كيانها (الآيات: ٢-٣).

ثالثاً: الوحدة في الظاهر والباطن، كما البنيان المرصوص، لا ترى فيه فطوراً يذهب

بصلابته، ولا خدشاً ظاهراً يجعل العدو يطمع في هدمه. (الآية: ٤).

رابعاً: التسليم للقيادة الإلهية المتمثلة في رسول الله ﷺ وأوصيائه عليهم السلام باعتبارها وسيلة إلى الله تعالى، ومحوراً لوحدة عباده المؤمنين (الآيات: ٥-٧).

خامساً: الجهاد في سبيل الله باعتباره يمثل حالة التحدي الشجاع لأعداء الرسالة.

ولعل الجهاد محور هذه السورة التي سميت لذلك بالصف، ولكن الحديث عنه يدور حول ثلاثة محاور:

ألف: أن يكون الجهاد تحت راية القيادة وبصف مرصوص، وهذا أهم المحاور الثلاث (الآيات: ٣-٧).

باء: أن الله يظهر دينه على الدين كله، مما يعطي المجاهدين الأمل، ويزودهم بروح النصر، كما يرسم لهم استراتيجيات المستقبل ألاّ يكون الجهاد ذا أهداف محدودة (الآيات: ٨-٩).

جيم: التحريض على الجهاد بما يوحي إلى ضرورة التفرغ له، حتى تتم الصفقة الرابحة بين العبد وربه (الآيات: ١٠-١٤).

62

سُورَةُ الجُمُعَة

* المؤمنون بين التربية والتعليم

تذكرنا سورة الجمعة بفضل الله الأكبر المتمثل في رسالات الله والتي سببت اصلاحاً شاملاً لحياة البشرية، وبالذات الذين تنزلت في محيطهم آيات الله. فبالرسالة طهر النبي ﷺ أتباعه من أرجاس الجاهلية وأغلالها، وعلمهم الكتاب والحكمة، ورسم خطاً إصلاحياً ممتداً عبر الزمان والمكان، ولولا الرسول ﷺ لكان البشر يعود إلى جاهليته الأولى، لأن حملة الرسالة وورثة علمها (قبل بعثة الرسول) قد خانوا مسؤولياتهم. (الآيات ١-٤).

ويتعرض السياق إلى الذين لم يتحملوا مسؤولية التوراة بعد أن حملوها مشبهاً لهم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم دون أن ينتفع بها في شيء، وفي ذلك تحذير من طرف خفي للمسلمين ألاّ يصبحوا مصداقاً آخر لهذا المثل. (الآية: ٥).

وإذ يذكر بشيء من واقع الانحراف لدى اليهود -الذين من أبرز صفاتهم التشبث بالمادة والحياة الدنيا ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]- يعطينا مقياساً دقيقاً لمعرفة الداعية للحق عن المدعي له، وهو إن من يحمل الرسالة ويؤمن حقاً بمحتواها لا يبالي بالموت دفاعاً عنها. (الآيات: ٦-٨).

ثم يؤكد أهمية صلاة الجمعة، ليركز في المؤمنين التوجه نحو القيم بدل اللهو والمادة، ولكي يثبت للأمة الناشئة تميزاً عن الأمم الأخرى وشخصية مستقلة بفرضها مناسبة دينية اجتماعية في مقابل سبت اليهود وأحدالنصارى. (الآيات: ٩-١١).

وعندما نتعمق في تدبرنا نجد علاقة وثيقة بين ابتداء السورة بالتسبيح وانتهائها بالدعوة إلى الصلاة والصبر عليها أمام إغراء التجارة واللهو، ذلك أن الصلاة هي أظهر مصاديق التسبيح في حياة المؤمن.

63

سورة المنافقون

* النفاق؛ بين الانحطاط والهزيمة

في هـذه السـورة يفضح الوحي خـط النفاق في الأمة، وذلك ببيان معالم مسيرته، حيث التكلف في إظهار الإيمان والطاعة للقيادة الرسالية، والعيش بوجهين وشخصيتين؛ إحداهما التظاهر بالإيمان المؤكـد بالأيمان والاهتـمام بالمظاهر الدينيـة والمظاهر المختلفة (الآيـات: ١-٤)، والأخـرى الكفر العملي المبطن. فالمنافقون يسـتنكفون من الاعتراف بالقيـادة والذهاب إليها لتسـتغفر لهم، وهكذا يصدون أنفسـهم عنها لإضعاف مركزها بشـتى الطرق والأسـاليب، ومن بينها شـن الحرب الاقتصادية ضدها لفض الناس عنها وتعطيـل مشـاريعها. و لكـن الآيـات تتركز عنـد نقطة محوريـة، هي موقفهم مـن الحياة الرسالية مبدئياً ونفسياً واجتماعياً واقتصادياً. (الآيات: ٥-٨).

ويقف السـياق في نهاية السـورة ضد هذه الخطة الغادرة ليدفع المؤمنين نحو حركة معاكسـة ومضاعفـة ضد مكـر المنافقين،بدعوتهم لعـدم التلهي بالأمـوال والأولاد عن ذكر الله والجهاد في سـبيله (كما يريد المنافقون) لما في ذلك من عظيم الخسـارة (الآية: ٩)، وبتحريضهم -من جهة أخرى- على سبق الأجل بالإنفاق من مال الله في سبيله، بصورة تضعهم في سـياق التحدي مع الموت والعدو، سـباقاً معطياته (الأجل القادم، والفرصة الوحيـدة القليلة، والمصير الحاسـم؛ فإما الانتماء للخاسرين حيـث العذاب، وإما الانتماء

لفريق الصالحين حيث الجنة). وهكذاسبق لا يدخر العاقل فيه جهداً، ولا يضيع فرصة أبداً. (الآيات: ١٠-١١).

ونقرأ في آيات هذه السورة بياناً لجانب من ركائز النفاق، كمخالفة القيادة الرسالية، والاستكبار على من حولها من المستضعفين الفقراء، والاغترار بما عندهم من الأموال. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: لماذا هذا الحديث العريض عن النفاق والمنافقين في كثير من مواضع القرآن، إلى حد يخصص الله سورة باسمهم؟.

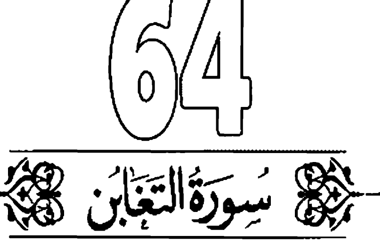
والجواب كما يبدو لي لثلاثة أمور رئيسية:

الأول: لتحذير المؤمنين من خطر الوقوع في النفاق بالذات، وأن المؤمن أقرب للتورط في مرض النفاق منه إلى الكفر،إذن فهو بحاجة لمعرفة حدود هذه المنطقة الخطرة، وصفات أهلها، وسبل تجنب الدخول فيها للخلاص من شرورها.

الثاني: لتوجيه اهتمام القيادة الرسالية والمجتمع الإسلامي إلى خطر هذا الفريق على مسيرة الأمة ومستقبلها.

الثالث: ثم إن تنوع الحديث عن النفاق في القرآن الكريم ضرورة يفرضها البحث في هذه القضية، فالنفاق -كما أعتقد- هو انهزام الإنسان أمام الحقيقة، فلا هو يقبلها بإخلاص، ولا هو يردها بصراحة، وهذه الحالة تختلف باختلاف الحقائق، فهناك نفاق يقع فيه الذين لا يؤمنون بالله عز وجل، وآخر في مواجهة القيادة الرسالية، بل هناك نوع منه في مواجهة بعض التشريعات الإلهية.

وبتعبير آخر؛ إن النفاق هو الاتجاه المعاكس للإيمان، وباعتبار الإيمان يمتد على مساحة الحقائق كلها، فإن النفاق يمتد بالتضاد على المسافة ذاتها، وتناول القرآن لموضوع النفاق في سور كثيرة يستهدف معالجته من جوانبه المختلفة علاجاً شاملاً.



* كيف نربح صفقة العمر؟

كيف يمكن أن نربح صفقة العمر ونأتي يوم التغابن بالفوز الكبير، ذلك اليوم الذي تُبلى الحقائق ويظهر مدى خسارة الإنسان ومدى ربحه؟.

قبل أن يبصرنا السياق بالجواب، يذكّرنا بجلال الله القدوس عن أي نقص وعجز، وأن كل شيء يسبح بحمده، لأن له الملك والحمد جميعاً.. (الآية: ١).

وإنما يكفر من كفر بعد إتمام الحجة عليه، فهو المسؤول عن ضلاله، وهو المجزي عن عمله، لأن الله قد خلق السماوات والأرض بالحق، والجزاء صورة من صور الحق.. وأكمل خلق الإنسان، فأعطاه ما يحتاجه لاختيار الحق وأكمل عليه الحجة، وإليه المصير للجزاء.. وهو عليم بما يسرون وما يعلنون، فأنى لهم الفرار من الجزاء؟ (الآيات: ٢-٤).

والجزاء حق واقع تاريخياً، أفلا نعتبر به؟ فكم ذاق الكفار الغابرون وبال أمرهم، لماذا؟ لأنهم قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ فمن الذي خسر؟ هم أم الرسل الطاهرون؟ (الآيات: ٥-٦).

كانت تلك عاقبة أمرهم في الأولى، وفي الآخرة ينبؤهم الله بما عملوا، ويتم عليهم الحجة البالغة ثم يعذبهم، ويا ويلهم!!.

في ذلك اليوم يربح المؤمنون الجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وإنه حقاً فوز عظيم، أما الكافرون المكذّبون فإنهم يخلدون في النار وبئس المصير. (الآيات: ٧-١٠).

وهكـذا يبلغ السـياق محور السـورة، ويبين كيف يفوز عبـاد الله الصالحون في يوم التغابن، وذلك عبر بصائر تترى.

الأولى: الرضا بالقدر، والإيمان بأن كل مصيبة تصيب الإنسان فبإذن الله (الآية: ١١).

الثانية: الإيمان هدى القلب، وبه يعرف الإنسـان سـبيل النجـاة عن المصائب وبه يتحداها.

الثالثة: الطاعة لله وللرسول، والتوكل عليه. (الآيات: ١٢-١٣).

الرابعة: الحذر من أقرب الناس إليه (وهم الأزواج والأولاد)، لأن فيهم من هو عدو لـه، ولكـن الحذر لا يتحـول عند المؤمن إلى عـداء أو جفـاء أو مواقف حدية. (الآية: ١٤).

الخامسة: اليقظة التامة من حب الأموال والأولاد والافتتان بهم. (الآية: ١٥).

السادسـة: التقوى بكل اسـتطاعته، (و الاجتهاد في الطاعة)، والاستماع إلى أوامر الشريعة ووعيها، والطاعة للقيادة الرشـيدة، والإنفاق وتجاوز شح الذات. (الآية: ١٦).

إن هذا سبيل الفلاح.

وفي خاتمة السورة يأمرنا الله بأن نقرضه قرضاً حسناً (بالإنفاق أو الاستدانة)، لأنه يضاعف ذلك ويغفر لصاحبه والله شكور حليم، وإنه عالم الغيب والشهادة، وهو العزيز الحكيم. (الآيات: ١٧-١٨).

65

سُورَةُ الطَّلَاق

* التقوى الضمانة الأكيدة لتطبيق القانون

في بادئ الأمر يتراءى أن سـورة الطلاق تتحدث عن قانون الطلاق، ولكن حينما نتدبر في سياقها نجد محور السـورة الحديث عن التقوى، وما الحديث عن قانون الطلاق وسنن الله في الغابرين و... إلا إطار لهذه المحور، والسؤال: ما هو سبب مزج السياق بين الأحكام الشرعية وبين الأوامر المؤكدة بالتقوى؟.

والجواب:

١ - إن التقوى هي أفضل ضمانة لتنفيذ الأحكام الشرعية، والتزام الحدود الإلهية، والاعتبار بالمواعظ، والعمل بقيم الذكر، وبالذات في صورتين:

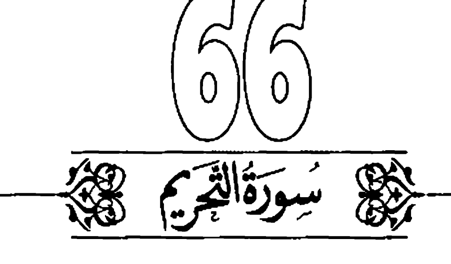
الأولى: القضايا الفردية التي لا تتصل بالنظام السياسي للأمة بقدر اتصالها بالنظام الاجتماعي وبالقرارات الفردية للإنسان.

الثانية: غياب النظام الإسلامي المتكامل (المجتمع الإسلامي، والحكومة الإلهية) إذ مع وجود هذا النظام يصعب على الفرد أن يتجاوز حدود الله، لأنه سيجد من يمنعه ويقف في طريقه، وبالذات في المسائل الاجتماعية، لذا فقد يلتزم الإنسان بالأحكام خشية الناس والقانون، أما إذا نمت روح التقوى

عند أحد فإن خشيته من ربه ستكون أعظم من كل شيء، وذلك ما يدعوه لاتباع الحق في أي مكان وزمان حتى لو لم يكن ثمة نظام إسلامي قائم، بل ولو كان وحده لا يراه أحد من الناس.

٢- إن حقيقة التقوى لا تنمو في القلب إلا إذا اتصلت بمجمل سلوك الإنسان، فهي ليست مفهوما ذهنيًّا أو مادة للمعرفة، إنما هي صبغة حياة ولون سلوك، ومنهج تكامل، وموقف من الأحداث المتحركة حول الإنسان، لذلك يحدثنا الوحي عنها عبر تيارات الحياة وتطوراتها، وأمواج ضغوطها المختلفة، لكيلا نتعامل مع التقوى كقضية مجردة، وبعيدة عن التفاعل في قضايانا اليومية.

وبهذه الطريقة تتصل التقوى بكل التعاليم الدينية، فإذا أمر الله بالتقوى عند الحديث عن قانون الطلاق فإن معناها يكون الالتزام بأحكام الله وحدوده فيه.



* أسس العلاقة الزوجية

لقد ارتفعت ولا تزال راية الجدل بين المذاهب الإسلامية في شأن زوجات الرسول ﷺ فاختلفوا إلى ثلاثة آراء رئيسية:

الأول: أضفى عليهن مسحة من العصمة متابعة لبعض النصوص، كقول الله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وكونهن مشمولات بآية التطهير وأخبار وردت، ولأنهن زوجات أفضل خلق الله ﷺ الذي لا يعقل أن يختار لنفسه من الزوجات إلا خير النساء، وقد دعمت هذا الرأي اعتبارات مذهبية أخرى.

الثاني: وتطرف فريق إلى حد الطعن فيهن لدوافع مصلحية أو مذهبية، كالمنافقين الذين نالوا بالإفك والبهتان من بعض زوجات الرسول ﷺ.

الثالث: وبين هذا وذلك أخذ فريق سبيلا وسطا، فلا تبرير للأخطاء، ولا تضخيم لها: ولكي يصل الباحث إلى الرأي الموضوعي لا بد أن يدرس أمرين أساسيين: أحدهما: تاريخ زوجات الرسول ﷺ دراسة موضوعية، والآخر: موقف القرآن عبر دراسة شاملة لكل ما أوردته آياته في الموضوع، ولكن بما أن في التاريخ اختلافا وتزويرا فإن

القرآن يبقى هو الميزان الثابت والفرقان الأعظم وبالخصوص في القضايا الحساسة كالموقف من زوجات سيد الرسل ﷺ، فما هو موقف القرآن؟.

لقد سجلت الآيات القرآنية موقف الرسالة الإلهية في هذه القضية، ويكفينا أن نعرض هنا ما جاءت به سورة التحريم التي يبدو أنها تحدثنا فيها تحدثنا عن هذا الموضوع بوصفه خطًا عامًا لآياتها.

١- ففي البداية تبين أن الرسول ﷺ كان يتعرض للضغط من قبل بعض أزواجه، حتى يضطر في بعض الأحيان أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، فيضيق عليها طمعا في مرضاتهن (الآيات: ١-٢)، وهاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسول وليس به ﷺ.

٢- إن اثنتين منهن خانتا النبي بإفشاء بعض ما أفضى إليهما من الأسرار (الآية: ٣).

٣- إنهن أو بعضهن كنَّ يملن عن الحق في بعض الأحيان (تصغي قلوبهن) ويمكن أن يتبن عن ذلك إلى الله، كما يمكن أن يتمادين في الميل إلى حد المظاهرة ضد الرسول ﷺ، وبالتالي الوقوف ضد جبهة الحق التي مثلها الله، وأمين وحيه (جبرائيل)، وخيرة المؤمنين، والملائكة الذين ينصرون النبي (الآية: ٤).

٤- إن نساء النبي لسن أفضل النساء على الإطلاق، فهو لو طلقهن فقد يجد خيرا منهن بين الناس ممن جُمعت فيهن بصورة أفضل صفات الخير والفضيلة كالإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة، (الآية: ٥).

٥- ويفصل القرآن بين الزوج وزوجته في التقويم، لأن قيمة كل إنسان ما يحسنه هو لا ما يحسنه الآخرون مهما كانت الرابطة بينه وبينهم قريبة وحميمة، كما أن مقياس القبح هو ما يقوم به الفرد من السيئات لا ما يقوم به الآخرون مهما قربوا منه، إذن فالتقويم الموضوعي الدقيق لأي أحد يكون بتقويمه بوصفه فردًا منقطعًا عن أي أحد، وهذا ما يجعل زوجتي نوح ولوط مثلا للكفار فتدخلان النار لا فرق بينهما وبين سائر الناس عند الله من جهة، ومن جهة أخرى هذه الحقيقة نفسها هي التي تجعل آسية بنت مزاحم زوجة

فرعـون الـذي ادعـى الربوبية مثـلا للمؤمنين عبر التاريـخ، وكذلك مريـم التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات الله وكتبه وقنتت له مع القانتين (الآيات: ١٠، ١١، ١٢).

٦- وهكذا كانت سورة التحريم تدور حول علاقة الزوج بزوجته حيث ينبغي أن تكون وفق المقاييس الإلهية، فلا يجوز لأحد أن يُقَوِّم الزوجة على أسـاس زوجها سـلبا أو إيجابا، فقد كانت زوجتا لوط ونوح خائنتين وكانت آسـية صالحة.. ولا يجوز للمرأة أنى كانت أن تنشر أسرار البيت خارجه. وهكذا تتواصل آيات سورة التحريم لتكمل بصائر آيات سورة الطلاق في مراعاة التقوى في سائر أبعاد الحياة الزوجية.

67

سورة الملك

* الإنسان بين تقوى الله ومعرفته

لعل زرع الخشية من الله بالغيب هو المحور الذي تتصل به كل آيات سورة الملك، التي هي بداية انعطافة كبيرة في السياق القرآني نحو البصائر التي تنزَّل بها الوحي في الجزأين الأخيرين، واللذين يتألفان في الأكثر من السور المكية التي تذكِّر بأصول الإسلام كالإيمان بالله، وبالرسول والرسالة، وبالآخرة.

١ - ففي مطلع السورة يتجلى الله العظيم بأسمائه الحسنى (تبارك، الملك، والقدير، والخالق، والعزيز، والغفور، والرحمن) لأن المعرفة السليمة بالله تضع الإنسان المخلوق بوجدانه وعقله وكل حواسه أمام الله الخالق سبحانه، مما تمنحه الخشية منه عز وجل. ولا ريب أن خشية الإنسان من ربه تكون بقدر معرفته به. أولم يقل تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾؟ [فاطر: ٢٨]. ولكي تكون المعرفة بتلك الدرجة نجد السياق يمزج بينهما وبين تعريف الإنسان بأعظم الأهداف التي خُلق من أجلها ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فليس في منهج الإسلام إذن معرفة لا تقود إلى العمل الصالح، بل إن أحسن الناس عملا أكثرهم معرفة بربه.

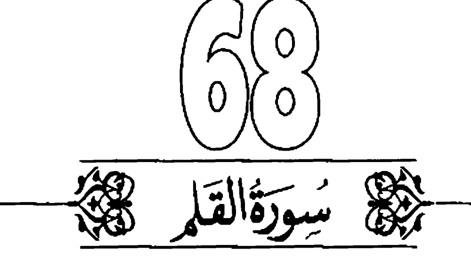
ويزداد الإنسان معرفة بربه كلما جال ببصره وبصيرته في الآفاق من حوله، ففيها

تتجلى أسماء الخالق (قدرته وعظمته وتعاليه..) وبالذات إذا كر ببصره مع عقله المرة بعد الأخرى، في مظهر الخلق وجوهره، وفي صلة بعضه ببعض، حيث يتجلى له ربه وجماله الذي عكس بعض آثاره في الكون بمظهره وجوهره ونظامه المتقن الذي لا يعتوره تفاوت ولا فطور. (الآيات: ١-٥).

٢- ولأن الكفر من الحجب التي تمنع المعرفة بالله ومن ثم خشيته بالغيب جاءت الآيات تذكر الكافرين بعذاب الآخرة، وتحذرهم من التكذيب بالنذر، وسيلةً لهز ضمائرهم وإخراجهم من غرور الكفر وغفلته، إذ تضعهم أمام صور من عذاب الخزي في جهنم التي تكاد تتفجر من الغيظ، وبصورة تجعل ذلك الغيب المستقبلي شهودا لمن يسمع أو يعقل، مما يزرع خشية الله في النفس، فهنالك تحوط الكافرين الحسرة، ويغمرهم الندم على ما فرطوا في جنب الله وما صاروا إليه من سوء العاقبة، ولا يملك أحدهم إلا الاعتراف بذنوبه دون أن يجد مبررا يتملص به من المسؤولية أو يستتر به الفضيحة، وأنى له ذلك وشهادة الله محيطة بكل شيء وهو عليم بذات الصدور؟! وكيف لا يعلم اللطيف الخبير بخلقه؟! (الآيات: ٦-١٤).

٣- ثم يأتي السياق على الأفكار الشركية فينسفها نسفا، لأنها تدعو الإنسان إلى الاعتماد على الأنداد المزعومين، والاعتقاد بأنهم قادرون على تأمينه وحمايته ورزقه من دون الله، باعتبارهم شركاء أو شفعاء أو أنصاف آلهة يؤثرون في مشيئته سبحانه، الأمر الذي يجعله لا يخشى ربه عز وجل. (الآيات: ١٥-٣٠).

وبناء على الحقائق الثلاث المتقدمة يمكن القول: إن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ..﴾ هي الآية التي تفصح بجلاء عن المحور الأساسي في هذه السورة المباركة.



68 سورة القلم

* فوارق القيادة الإلهية والجاهلية

يبلـغ الصراع بين الرسـالات الإلهية والجاهليـة أوجه في القيادة، واسـتقامة النبي وأتباعه تحسـم الموقـف لصالح الوحي. من هنا جاءت فاتحة السـورة في عظمة الرسـالة والرسـول، وانعطفـت سريعاً نحو رفض القيـادات الجاهلية، وبالـذات تلك التي تقوم بقيمة الثروة.. وتبين الآيات الستة عشر الأولى مفارقات القيادتين، فبينما الرسـول مقام نعـم الله، ولـه عنده أجر لا ينقطع، وهو على خلق عظيـم، وتتجلى آيات حكمته على كل أفق؛ ترى القيادات الجاهلية تتشكل من كل دجال حلاف مهين، يستهزئ بالناس ويفرق بينهم، وهو مناع للخير معتد أثيم.. قد أغلق منافذ قلبه دون أي شعاع من نور الحق، فإذا تليت عليه آيات الله قال إنها أساطير الأولين.

ولابـد أن يبقـى التمايـز بـين الفريقين قائـماً أبداً، فلا يجـوز أن يداهن الرسـاليون مثل هذه السـلطات الفاسـدة التي تسـتعد لتقديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنة. (الآيات: ١-١٦).

ويمـضي السـياق في قصة أصحـاب الحقل الذين منعـوا المسـاكين حقهم فأهلك الله زرعهـم، لعلهـا تكون عبرة لأصحـاب الثروة فلا يطغون بها، ولكـي يعلموا أن هذا

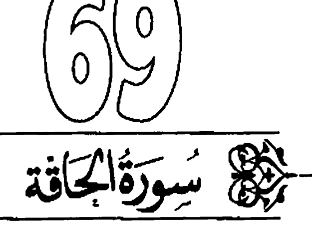
العذاب إشارة إلى العذاب الأكبر في الآخرة. (الآيات: ١٧-٣٣).

وفي المجموعة الثالثة من الآيات يبين السياق عمق الفجوة بين المتقين والمجرمين، وينسف أساس تفكير المبطلين بأنهم شرع سواء مع المتقين، لأن العقل يرفض ذلك، ولا حجة لهم بذلك، لا من كتاب مدروس ولا عهد من الله، ولا كفيل ولا شركاء، ويحذرهم الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه عمل أو ندم، ويبين أن أموالهم قد تكون لعنة عليهم، لأن الله يستدرجهم بها، ويملي لهم بكيده المتين. (الآيات: ٣٤-٤٦).

وإن بعضهم يخشى من أجر يعطيه إزاء الرسالة. كلا؛ بل الرسالة تنفعهم في دنياهم.. وينهي السياق هذا الحديث بأنهم لا يعلمون الغيب، فكيف يتشبثون بأفكارهم؟ وينعطف نحو الرسول وكل رسالي يتبعه أن يصبر (حتى يحكم الله)، ولا يكون كصاحب الحوت الذي استعجل في الدعاء على قومه، فلولا أن نعمة من الله تداركته لكان ينبذ بالعراء (بعد التقام الحوت له) وهو مذموم، ولكن الله اجتباه بنعمته فجعله من الصالحين. (الآيات: ٤٧-٥٠).

وتختم السورة بأن الذين كفروا يكادون يزلقون الرسول بأبصارهم التي يتطاير منها شرر البغض والحسد، وذلك حينما يسمعون الذكر، ويتهمون الرسول بالجنون خشية تأثرهم به ومن شدة عداوتهم له، بينما هو ذكر للعالمين يذكرهم بالله واليوم الآخر، ولو اتبعوه لكان شرفاً لهم ومجداً. (الآيات: ٥١-٥٢).

وبهذا تنتهي سورة القلم التي فصلت بين خطي العلم والجهل على صعيد الفكر وفي صميم الحياة حقاً.



* الإنسان بين الجدّ والهزل

ثلاث آيات غرر في هذه السورة ترسم معالمها، وتحدد -فيما يبدو- إطارها.

فاتحتها: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وعند الخاتمة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، وأوسطها: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾. وحين ينفتح القلب على أشعة السورة يلامس الحقيقة -كل حقيقة وكل الحقيقة- بلا حجاب، وكذلك سور القرآن جميعاً هي الجسر بين الإنسان والحقيقة، يتجاوز المتدبرون فيها كل الحواجز، ولكن كل سورة تسقط عنا حاجزاً.

وسورة الحاقة -كما آيات أخرى مبثوثة في كتاب ربنا العزيز- تسقط حاجز التهاون، ذلك أن الإنسان بطبعه يعيش الغفلة عن الحق، والتهاون فيه، وعدم الجدية في التعامل معه، واتخاذ أمره بسذاجة، بل وبسفاهة. كلا؛ إنه حق، وللحق ثقله، وللحق اقتداره، و للحق حقيقته وطاقته التي تثبته وتجعل مخالفيه في حرج عظيم. ألم تسمع بقصة عاد وثمود وفرعون وقوم نوح والمؤتفكات؟ ماذا حدث بهم حينما اتخذوا موقف اللاهي عن الحق فصارعوه؟ كيف نزلت بهم القوارع فتركتهم صرعى؟!.

أوتدري ما الحكمة في ذلك العذاب العريض؟ لكي يذكّرنا، فلا نبقى سادرين في غياهب الغفلة، ولكي تعيه أذن واعية.(الآيات: ١-١٢).

وتتجلى الحقيقة بكل جلالها وعظمتها في يوم القيامة، وحين نتصور أهوالها نزداد وعياً بها في الدنيا أيضاً. (الآيات: ١٣-١٨).

وأصعب المواقف وأشدها جديةً وهولاً عند استلام الكتاب المصيري، فمن أوتي كتابه بيمينه فطوبى له، ومن أوتي بشماله فيقول من فرط حسرته: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾! (الآيات: ١٩-٢٩).

إنها عاقبة المتهاونين الذين لم يكونوا جديين في وعي الحقيقة، وفي الإيمان بالله والحض على طعام المساكين. (الآيات: ٣٠-٣٧).

ويقسم القرآن بكل حقيقة نبصرها، وبكل حقيقة قائمة ولكن لا نبصرها بأن القرآن حق، وهو قول رسول كريم، وإنه بالتالي ليس خيالات باطلة ولا ظنون كاهن. (الآيات: ٣٨-٤٣).

وتتجلى حقانية الرسالة في شدة الله الجبار مع من يخالفها، بل ومع المرسل بها لو افترض التقول عليه ببعض الأقاويل،فإنه ليأخذ منه باليمين ثم ليقطع منه الوتين. (الآيات: ٤٤-٤٧).

ويبدو أن من يتهاون في شأن الحق أو يكذب به أو لا يعيه أو لا يوقن به حق اليقين.. يبدو أنه لم يعرف ربه الذي يضمن الحق، يجريه بقوته الشديدة وقدرته الواسعة. لذلك فنحن بحاجة إلى تقديس الله سبحانه وتنزيهه حتى نقترب من معرفته ومعرفة الحق به، ولعله لذلك اختتمت السورة المباركة بقوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾. (الآيات: ٤٨-٥٢).

70

سُورَةُ المعَارِج

* الأمراض النفسية، عقبات بوجه التكامل

كما هو سياق غالب السور المكية، تعالج سورة المعارج الأمراض القلبية التي تمنع الإيمان، كما ترسم منهاجاً لبناء الشخصية الربانية، ففي الثلث الأول من السورة (الآيات: ١-١٨) يحدثنا السياق عن مشاهد من الآخرة حيث الأحداث الكونية المريعة، وما تخلفه من الآثار على نفوس المجرمين، فإذا بواحدهم يتمنى النجاة ولو يفتدي بأعز الناس وأقربهم إليه، بل بهم جميعاً.

ومن خلال الحديث يعالج مرض التسويف بتصحيح رؤية الإنسان إلى الزمن عبر وعي الزمن الأبدي الذي لابد أن يعايشه البشر.

وانطلاقاً من ذلك؛ يشير القرآن إلى صفة الهلع لدى الإنسان، والتي تبعثه على الجزع حين الشر والمنع عند الخير،فتجعله متقلب الشخصية، متغيراً حسب المحيط والظروف، مؤكداً بأن هذه المواصفات لا توجد في المصلين بحق، لأنهم تساموا إلى أفق الخلود، فلم يعيشوا لحظتهم الراهنة فقط، ولم يتأثروا بعواملها فحسب.

ثم تعالج الآيات حالة التمني التي يعيشها الإنسان، فيطمع أن يدخل الجنة بلا إيمان أو سعي. كلا؛ إن النجاة من العذاب لا تحصل بالتمني والود، إنما بالعمل الصالح

والسعي، وأن الصلاة هي سفينة نجاة المؤمنين، وهي مفتاح شخصيتهم الإلهية التي تتسم بالإنفاق الصدقة وخشية العذاب ورعاية الأمانة والعهد وحفظ الفروج إلا من حلال، والقيام بالشهادة والمحافظة على الصلوات، هذا في الواقع البرنامج المستوحى من الصلاة لبناء شخصية الإنسان الربانية، والذي يجعله في نهاية المطاف من أصحاب الجنة المكرمين. (الآيات: ١٩-٣٥).

وفي الخاتمة (الآيات: ٣٦-٤٤) ينسف الوحي مركب الأحلام والتمنيات الذي يركبه الهلكى من المجرمين والكافرين، فلا يرسو بهم إلا في بحر لجي من عذاب الله وغضبه، وخسران الدنيا والآخرة؛ لأن التمنيات تدخل أصحابها في نفق الخوض واللعب، فإذا بهم وقد حان اليوم الذي يوعدون، ولم يستعدوا للقاء الله، ولم يمهدوا للمستقبل عملاً وزاداً، وإنها لعاقبة كل منهج يعتمد التمنيات بديلاً عن السعي والعمل.

71

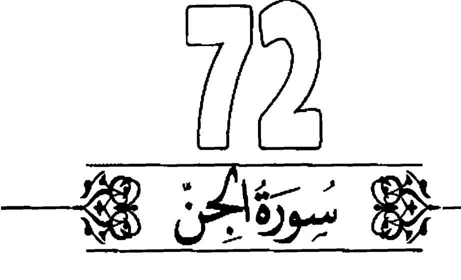
سورة نوح

* منهج النبوة في الدعوة

في الوقت الذي تُبيِّن الآيات الأُوَل من السورة الملامح العامة لرسالة النبي نوح عليه السلام ومن خلالها ملامح الرسالات الإلهية جميعا (الآيات: ١-٤) وتشير إلى قصته مع قومه والتي انتهت بهلاكهم غرقاً بالطوفان (الآيات: ٥-٢٨)، فإن محورها الأساسي كما يبدو ليس ذلك وإنما هو التركيز على أن نوحاً عليه السلام ضرب مثلاً رائعاً للمعاناة في سبيل الله، والاستقامة على نهج الرسالة رغم التحديات الخطيرة المتمادية، حيث بقي عليه السلام ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، يكابد مرارة نفور قومه الذين أصرُّوا على الباطل، واستكبروا عن الحق، ومكروا مكراً كُبَّاراً، لا ينثني عن أهدافه، ولا يتراجع عن نهجه.

وتلك الاستقامة درس عظيم لنا، لأنها كانت من الثوابت التي لا تقبل التغيير.. بلى؛ كان يغيِّر من أساليبه فمرة يدعو جهاراً، وأخرى إعلاناً، وثالثة إسراراً، لا يدخله أدنى شك في الحق الذي بين يديه بسبب تكذيب قومه، والبشرية يومئذ معارضة لدعوته، ولا بسبب تأخر نصر الله عنه، وإنما كان على عكس قومه تماماً، يزداد مُضِيًّا على الحق، وتسليماً لأمر ربه، ويقيناً بنصره.

إن العنـاد المقدس الذي اتصف به نوح عليه السلام جعله رمز الرسـاليين (دعاة وقادة) عبر التاريخ، ومن ثم واحدا من أولي العزم من الرسل، وأي عزم ذاك الذي واجه به عناد البشرية كلها.. فلله درك يا شيخ المرسلين! ولعمري إنك لآية العزم والاستقامة!.



* الشرعية للّه ولرسوله وللمؤمنين فقط

إن التخرصــات بوجود قوى غيبية قاهرة تؤثر في مجريـات الحياة من الأفكار التي لا تـكاد تخلو منهـا ثقافة من الثقافات البدائية، وهي عامـل رئيس في الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، فالذي يعبد شـجرة فإنما لظنه أن فيها حلولا من عالم الغيب، والذي يعبد الحجر لا يعبده بذاته وإنما يعبد الروح التي يزعم أنها تحوم حوله.

والجـن مـن بين تلك الأرواح التي أثـير ولا يزال حولها الكثير مـن الجدل إلى حد الخرافة والخيال المبالغ فيه، فقد زعـم البعض أنها أرواح خلقت ذاتيًّا من غير خالق، وقال آخرون إنها تقوم بدور الخير والشر في الحياة، وعلى هذا الأساس ارتأوا ضرورة إرضائها فأشركوا بها.

وقد فَصَلَ الوحي الإلهي الخرافة عن الواقع، فبيَّن الحق، ونسف الثقافات الباطلة حول الجن، كما كشـف في هذه السورة التي سـميت باسمهم عن جوانب من حضارتهم اعتـمادا على علم الله المحيط بـكل شيء، وليس على الظنون والتخرصـات، وتحدثنا آياته بلسانهم: (الآيات: ١-١٤).

والـذي يدقـق النظـر في آيات هـذه السـورة يهتدي إلى وجوه تشـابه أساسـية بين

حضارتهم وحضارة البشر:

١- فهم مخلوقون مكلفون من قبل الله بالإذعان للحق، واتباع رسالته المتمثلة في القرآن.

٢- وإن واقعهم الاجتماعي والسياسي يشبه إلى حد بعيد واقع المجتمع البشري، ففيهم الزعماء الذين يتسلطون على المجتمع ويَشُطُّون طغيانا وسفها.. كطواغيت الناس وحكامهم الفاسدين.

٣- كما أنهم يقعون في الأخطاء ذاتها التي يتورط فيها ضُلَّال الناس كالشرك بالله عز وجل.

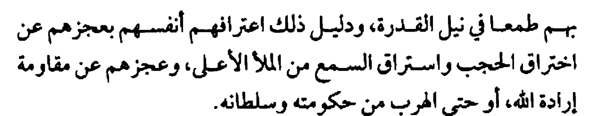
٤- وبالتالي فإن فيهم الصالحين ودون ذلك والمسلمين والقاسطين كما هو حال البشر.

وفي البين يشير القرآن إلى أن الالتقاء بين حضارتي الإنس والجن القائم على الشرك بالله وزيادة الانحراف والرهق فإنه منبوذ ومحرم في شرع الله.. ومنه استعاذة السحرة والمشعوذين بالجن، مما يزيدهم بعدا عن الحق وتوغلا في الباطل.

ويفضح الوحي مجموعة التخرصات والخرافات التي صورت الجن قوى خارقة، ورفعتهم إلى مستوى الربوبية، مما دعا بعض جُهَّال الناس لعبادتهم والشرك بهم، فيؤكد:

أولاً: أنهم لا يحوزون على العلم الحق المطلق، فلا يصح الاعتماد على ما يُلقُونه من ثقافتهم وأفكارهم في روع من يعوذ بهم، لأن علمهم محدود إذ يجهلون الكثير من الأمور.. وواضح تأكيد القرآن على أن كثيرا من تصوراتهم وثقافاتهم قائمة على الظن لا على العلم الواقعي القاطع (يلاحظ تكرار كلمة ﴿ظَنَنَّآ﴾ بلسان حال الجن مرات عديدة)، كما أنهم لا يدرون بمصير من في الأرض أريد بهم شرًّا أم أراد بهم ربهم رشدا. وحيث جاء القرآن كشف لهم عن مدى ضلالتهم وجهلهم بجملة من أهم الأمور وأوضحها.. أعني الإيمان بالله وتوحيده.

ثانياً: وأنهم ليسوا قوى ذات قدرات خارقة حتى يخشى منهم البشر أو يعوذون


بهـم طمعـا في نيل القـدرة، ودليـل ذلك اعترافهـم أنفسـهم بعجزهم عن اختراق الحجب واسـتراق السـمع من الملأ الأعـلى، وعجزهم عن مقاومة إرادة الله، أو حتى الهرب من حكومته وسلطانه.

وحيـث تتمحـور السـورة حـول الحديث عن الجـن الذيـن أُشْرِك بهـم ولا يزال بعـض الإنس؛ تؤكد الآيات الأخيرة على حقيقة التوحيد، وأنه تعالى الذي يملك الضرر والرشـد، وهـو أهل الاسـتعاذة به، وعالم الغيب لا يشـاطره أحد فيـه إلا من ارتضى من رسله.. مما يعطي الشرعية لخط الأنبياء فقط، أما الجن ومن يتصل بهم -سواء كانوا كهنة أو سحرة أو منجمين- فلا يجوز اتباعهم أبدا (الآيات: ١٥-٢٨).

73

سورة المزّمّل

* التوحيد قاعدة الانطلاق

التوحيد هو قاعدة الانطلاق والهدف الرئيسي لكل رسالات الله، ويتمثل عمقه الأصيل في علاقة الإنسان المخلوق بربه الخالق. ولقد تمحورت كثير من الآيات القرآنية فيما تمحورت حول منهجة هذه العلاقة، بالتأكيد عليها بوصفها أصلًا من أصول الإسلام، وبيان خلفياتها ومعطياتها وتفاصيل برنامجها.

والمتدبر في سورة (المزمل) يجدها تعالج هذا الموضوع من زاوية قيام الليل، وأقول: قيام الليل لأن هذا التعبير أوسع من قولنا: صلاة الليل، وأقرب لما يعنيه السياق ويندب إليه.

١ - ففي البداية يخاطب الله رسوله المزمل فارضاً عليه قيام الليل فرضاً كالصلاة والصيام والجهاد، حيث قالوا: أنه ﷺ قد خُصَّ بوجوب قيامه الليل دون أمته، ويبين أن الليل عنده -وبالتالي عند عباده الصالحين- ليس كما يزعم الناس.. فرصة للاسترخاء والنوم، لأنها هزيع من عمر الإنسان ينبغي أن يكون مثل النهار ساحة سعي نحو الفلاح والسعادة، ومن ثم فإن الأصل في حياة الفرد الرسالي أنه يقوم الليل إلا قليلاً، نصفه أو ينقص منه قليلاً، أو يزيد عليه، إلا أن تعترضه الأسباب والأعذار الشرعية من مرض

وضرب في الأرض وقتال في سبيل الله وما أشبه، كما تبين الآية الأخيرة من السورة (الآيات:١-٤).

٢- ويعتبر الرب عز وجل ترتيل القران (قراءته بصوت حسن وتدبر) من أهم البرامج في قيام الليل، إلى حد يمكن اعتباره كافياً عن سائر برامج الليل، ذلك لأن القرآن هو الوسيلة العظمى للاتصال برب العزة، ولأنه تعالى لا يريد منا قياماً روحياً مجرداً، بل يريد علاقة تنعكس على كل أبعاد الحياة، حتى تتحول إلى نهج حياة من خلال تدبر القران والعمل بآياته (الآيات:٤-٥).

٣- ومع أن المؤمن يواجه مصاعب من هذا التكليف الإلهي، حيث تحديات النفس وحب النوم إلا أن ناشئة الليل في مقابل ذلك أنفذ إلى أغوار النفس ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ وأصدق، حينما ينبعث الإنسان من النفس لإصلاح الآخرين، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أقوم لقول الإنسان وسلوكه على طريق الحق والسعادة، وبالذات إذا أخذنا بعين الاعتبار معادلة الزمن اليومي المنشطرة إلى وقتين؛ الليل والنهار، فإن البشر بحاجة ماسة -وهو يكابد مشاكل الحياة وتحدياتها بالنهار- إلى إرادة التحدي والاستقامة على الطريق المثلى دون تأثر بالطبيعة أو بعواملها تاثراً سلبياً، وذلك يعرج إليه ويستلهمه المؤمنون من قيام الليل، فلا يشطّون في سبح النهار الطويل عن الحق والصواب قيد أنملة (الآيات:٥-٧).

٤- وإذا كان الجميع معنيون بقيام الليل؛ فإن الرساليين بالذات مخصوصون بهذا الفرض الإلهي، ويتركز الأمر عند القيادة الرسالية إلى حد الوجوب بالنسبة للإمام المعصوم، وإلى قريب من ذلك عند سواه، والسبب أنهم المستأمنون على رسالة الله وجنوده الذين يخوضون الصراع المبدئي الحضاري ضد الباطل، ويعلم الله كم هي التحديات والضغوط والمشاكل التي يواجهها من يركب هذا الطريق، وبالتالي كم هم بحاجة إلى زاد الإيمان ووقود التقوى. ولن يفلح الرساليون في صراعهم حتى يعرجوا إلى قمة التوحيد، والتوكل على رب العزة، والصبر على الأذى والحق في سبيل الله. ومن هذا المنطلق تأتي أهمية قيام الليل، ويتضح دوره الأصيل في المسيرة الرسالية، باعتباره معراجاً رئيسياً إلى تلك القمة السامقة (الآيات: ٨-١٠)

٥- وبعد أن يحذر الله المكذبين أولي النعمة نفسه مذكراً بالآخرة وعذابه الشديد

فيها، يذكرنا تعالى بأن بعثه حبيبه الرسول ﷺ إلينا مظهر لسنته الجارية في الحياة، حيث يبعث الرسل شهداء على الأمم (مبشرين ومنذرين) محذراً إيانا من معصية أوليائه، لأنها تؤدي إلى الأخذ الوبيل في الدنيا، كما انتهت بفرعون وملئه وجنوده، وأعظم من تلك العاقبة عذاب يوم القيامة، يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به، لا ريب فيه، وإنها لمن عظيم تذكرة الله إلى خلقه، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً (الآيات:١١-١٩).

٦- وفي الخاتمة يبين لنا القرآن اهتمام الرعيل الأول بقيام الليل وفي طليعتهم النبي الأعظم ﷺ الذين كانوا يقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه حسب الظروف، ويقدمهم أسوة للأجيال بعد الأجيال، معالجاً في الأثناء موضوع الظروف الاستثنائية والأعذار الشرعية التي تمنع من قيام الليل، وموجهاً إيانا إلى بعض التكاليف المفروضة، وداعياً إلى الاستغفار.. إن الله غفور رحيم (الآية:٢٠).

74

سُورَةُ المُدَّثِّر

* الإنسان؛ حاضر ومستقبل، سعي ومصير

بعد أن يستنهض الوحي النبي المدثر لتحمل أعباء الرسـالة بالإنذار، وتكبير الله، وتطهير ثيابه من كل نجاسة مادية ومعنوية، ومقاطعة الرجز بالهجران، ينهاه عن المنة على الله لأنها تقطع الخير، ويأمره بالصبر له بوصفه ضرورة تفرض نفسها على كل داعية حق وحامل رسـالة. أوليس يريد الثورة على الواقع المنحرف والمتخلف؟ إذن يجب أن يتوقع الكثـير من المشـاكل والضغوط المضادة في هـذا الطريق، وعليه يجـب أن يتحمل ويصبر شرطًا للاستقامة وتحقيق الهدف (الآيات: ١-٧).

ولأن المؤمن يؤلمه تسلط الطغاة والمنحرفين من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية، وبالتالي يستعجل لهم الهلاك والجزاء، فإن القرآن يسكِّن ألمه هذا بتوجيهنا إلى يوم القيامة حيث الانتقام الأعظم من أعداء الرسـالة والمؤمنين، إذ ينقر في الناقور إيذانا ببدء يوم عسير لا يُسْرَ فيه على الكافرين وأشباههم، يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذي لا يطاق.. وأنى يطيق المخلوق الضعيف انتقام رب العزة؟! (الآيات: ٨-١٠).

وهكذا نهتدي إلى أن محور السـورة -فيما يبدو لي- صراع الرسـول مع مراكز القوة التي لا بد أن يتحداها بكل اقتدار.

ويعالج السياق طائفة من الأفكار الخاطئة التي يتشبث بها المتسلطون والمترفون لدعم مواقعهم القيادية، منها الزعم أنه لولا رضا الله عنهم لما أوسع عليهم نعمة.

إذن فما في يد الكفار والطغاة من نعيم ليس دليلا على حب الله لهم، ولا على صحة منهجهم في الحياة.. بلى؛ إن عندهم مالا ممدودا، وأتباعا كثيرين وأبناء، ومهدة لهم وسائل العيش الرغيد، الذي لا يشبعون منه، بل يطمعون في زيادته.. ولكنهم ضالون عن الصراط السوي، جاحدون لآيات الله.. وبالتالي مستحقون لعذابه وانتقامه، والمقياس السليم للتقييم ليس المادة، بل القيم، وليس الدنيا بل الآخرة، والمترفون على عناد مع قيم الحق، وخاسرون في الآخرة، فهنالك لا يبقى لهم نعيم ولا أنصار، ولا مقام احترام كما هم في الدنيا، بل يتبدل واقعهم إلى قطع من العذاب الأليم والمهين، وتصبح كل نعمة أعطيت لهم وبالا عليهم حيث لم يؤدوا شكرها.. فهم أشد الناس عذابا لأنهم قد أملي لهم من فضل الله، ومن ألم ما يلقون عذابا الصعود المرهق (الآيات: ١١-١٧).

وليس إرهاقهم بالعذاب مجرد انتقام عبثي، بل هو انتقام متأسس على الحساب الدقيق والحكمة والعدل، فإنك حيث تحقق في سببه تجده منهجيتهم الخاطئة والضالة في الحياة، والتي ترتكز على التفكير المنحرف والتقديرات الخاطئة.. فإنها حقًا هي المسؤولية عما يحل بهم من اللعن والقتل والعذاب، فهم الذين عبسوا وبسروا ثم أدبروا واستكبروا، وكان هذا موقفهم من الحق قيما وقيادة وحزبا، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما رموا الحق بالتهم الرخيصة الباطلة، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وقالوا: بل هو من صنع البشر وليس رسالة من الله.. من دون دليل إلا للطعن فيه والتهرب من مسؤولية الإيمان، وإلا لتضليل الناس عن طريق الهدى وسبيل الرشاد (الآيات: ١٨-٢٥).

من هنا كان حقًّا أن يعذب الله الكفار المعاندين باعتبارهم يبارزون رب العزة ويحاربون الحق، وبالذات كبراؤهم والملأ المترفين منهم، كالحكام الطغاة، وأصحاب الثروة، وأدعياء العلم، ولذلك يتوعد الجبار واحدهم بأشد العذاب، ويؤكد ذلك لرسوله ﷺ وكل رسالي يقف على خط المواجهة وفي جبهة التحدي والصراع ضد الباطل بأنه سيصلي أعداءه وأعدائهم سقر، وهي أشد أقسام النار تلظِّيا وحرارة ورهبة بحيث لا يمكن لبشر أن يتصورها ويدري ما هي، إلا أن القرآن يشير إلى بعض صفاتها

الرهيبة حيث إنها لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر.. ومنظر آخر مخيف منها يمثله ملائكة غلاظ شداد، النار نفسها فرقة منهم.

إنهم تسعة عشر.. هكذا يقول الله.. فأما المؤمنون فإنهم تقشعر جلودهم ثم تلين، وهكذا يزداد خوفهم وتقواهم لمجرد سماعهم قول رب العزة، لأن المهم عندهم حقيقة الأمر لا تفاصيله حتى يختلفون في ألوان أولئك النفر الموكلون بسقر من الملائكة، ولا في أحجامهم وأوزانهم وعددهم.. كما اختلف الكفار والذين في قلوبهم مرض، وفتنوا أنفسهم قائلين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؟! فضلوا عن الهدف والحكمة ألا وهي التذكرة (الآيات: ٢٦-٣١).

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ هكذا يقسم ربنا أقساما غليظة عظيمة مترادفة، ويؤكد أن القضية كبيرة ومشتملة على موعظة وإنذار عظيمين للبشر لو كانوا يعقلون.. بل إنها ركيزة أساسية وملحة للإنسان في مسيرته ومصيره، وذلك أن تقدمه (فردا وأمة) وكذلك تأخره رهين موقفه من حقائق هذه الذكرى الإلهية للبشر (الآيات: ٣٣-٣٧).

وفي سياق الحديث عن الآخرة وعذاب سقر ينعطف بنا القرآن إلى آية مهمة في سورة، بل في المنهجية الإسلامية بصورة عامة، وذلك حينما يربط بين مستقبل الإنسان وحاضره وبين سعيه ومصيره مؤكدا أنه المسؤول عن نفسه، فهو الذي بيده حبسها في العذاب كما بيده فك رهانها منه، والدخول بها إلى جنات الخلد والنعيم. ويضع الله الناس فردا فردا أمام حقيقة عظيمة ومهمة يجب أن يضعوها نصب أعينهم، ويتحركوا في الحياة على إيحاءاتها ومستلزماتها.. ألا وهي أن الأنفس كلها رهينة.. شهواتها وضلالها وقراراتها المنحرفة الخاطئة، إلا أن يعتصم البشر بحبل الإيمان ويتبع منهجه فيخلصها الله من سجنها الخطير، كما صنع ويصنع بأصحاب اليمين (الآيات: ٣٨-٣٩).

ومن خلال حوار قصصي يدور بين أصحاب الجنة والمجرمين - ينقله القرآن - تبصرنا الآيات الربانية بأهم ركائز الجريمة التي تؤدي إلى سقر والتي حذرنا ربنا منها، وبذلك يجيب القرآن عن سؤال يفرض نفسه على كل من يعرف حقيقة سقر، حيث

يبحث عن النجاة من شرها، ويسعى لتجنب أسباب التورط فيها، وهي أربعة أساسية كما يقر المجرمون أنفسهم: (عدم كونهم من المصلين، وعدم إطعامهم المسكين، وخوضهم مع الخائضين، والتكذيب بالآخرة) وماذا يرتجى لمن يوافيه الأجل، ويلقى ربه على هذا الضلال البعيد والجريمة؟ (الآيات: ٤٠-٤٧).

ومن يتورط في الذنوب الأربعة الكبيرة التي مر ذكرها فإن مصيره النار لا محالة، لأنه لا عمل صالح عنده ينجيه من العذاب، ولن تدركه رحمة من الله وقد بارزه وحاربه، ولن يشفع له أحد، ولو استشفع له أحد -جدلا- فلن تنفعه شفاعة أبدا، لأن الشفاعة تنفع من تكون مسيرته العامة في الحياة مسيرة سليمة، ثم يرتكب بعض الذنوب والمعاصي.. وليس المجرمون كذلك (الآية: ٤٨).

وفي خاتمة السورة يستنكر القرآن على المجرمين (الكفار ومرضى القلوب) إعراضهم عن تذكرة الله لهم ورحمته المتمثلة في آيات وحيه الهادية، مع أنهم مستقبلون أمرا عظيما ونارا لا تبقي ولا تذر.. ولا خلاص لهم إلا بالإقبال على التذكرة، والعمل على ضوء بصائرها وهداها!! إنهم حقًّا يشبهون -حيث يعرضون عن آيات الله- قطيع حمر انقضَّ عليه ليث قسورة لا يدرون إلى أين يفرون منه، وما الحيلة للخلاص.. والحال أن آيات الله على عكس ذلك جاءت لتأخذ بأيديهم إلى ساحل الأمن والرحمة والسعادة، وأولى بهم أن يستقبلوها كما يستقبل الظمأى والمجدبون غيث السماء.. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ ولن يكون ذلك أبدا، ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهذا في الحقيقة -أعني الكفر بالآخرة وعدم حضورها في وعي الإنسان- أكبر عامل في الانحراف، وعدم الاهتمام بالتذكرة والتأثر بها (الآيات: ٤٩-٥٣).

ويرد القرآن على أباطيل المدبرين عنه والمستكبرين على الحق، الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ردًّا موضوعيًّا حاسمًا في آيات ثلاث: (٥٤، ٥٥، ٥٦) تبين في الوقت نفسه دور القرآن بأنه التذكرة بالله وبالحق، وأن الإنسان مكلَّف بالاستجابة لهداه، ولكنه غير مجبور على ذلك بل مخيَّر، وإن كان توفيق التذكر والهداية لا يحصل ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ومعرفة هذه الحقيقة أمر ضروري بالنسبة للإنسان، لأنها تحيي فيه روح التوكل على الله والتضرع إليه، وتبعده عن الغرور

الناشئ من الاعتماد على الذات.

خلاصة القول: إن الموضوع الرئيسي في السورة هو: تصدي الرسول لمراكز القوى الجاهلية، ولكنها تعالج أيضا قضايا هامة أخرى وهي: أن الغنى والقدرة وسائر نعم الله مجرد ابتلاء، وليست دليلا على رضا الله عن أصحابها، وأن الإنسان رهن سعيه، وأن عليه هو أن يسعى نحو الهداية، وأنه لا يُكره عليها إكراها.

75

سُورَةُ القِيَامَة

* دور القيامة في تعميق الإيمان

أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ أي شيء في كيانه يدل على العبثية واللهو؟ خَلْقُه أطوارا، أم فطرته القويمة، أم نفسه اللوّامة التي تُبَصِّره بنفسه رغم المعاذير التي يلقيها، أم الحجج البالغة وأعظم بها كالقرآن الذي تكفل الرب بجمعه وبيانه؟.

هكذا تترى آيات السورة تُعمِّق في وعينا المسؤولية التي تتجلى في يوم القيامة حيث يُسَوِّي الله حتى البنان، وحيث تترى فيه الفواقر والدواهي.. ولا يجد الإنسان مفرًّا ولا وَزَرًا يلجا إليه.

هكذا نهتدي إلى محور السورة المسؤولية، وهدفها تعميق الشعور بها، والآية التي تتجلى بها قوله سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾.

وتفصيل هذه الحقيقة أن القرآن يذكرنا في مطلع السورة بحقيقتين: القيامة والنفس اللوامة، ويربط بينهما على أساس أنهما مظهر للمسؤولية، فكما يستحث الإيمان بالقيامة الإنسان لتحملها فإن النفس اللوامة هي الأخرى تقوم بالدورذاته من بُعْدٍ آخر، إذ تقف أمام تراجعاته، وتنهره عن التقصير في أداء الواجب، وعن اقتحام الخطيئات (الآيات: ١-٢).

ويستنكر السياق زعم الإنسان أنه لن يبعث تارة أخرى بعد أن يصير أشلاء موزعة

ورميا. هل يحسب أن قدرة الله محدودة مثله؟ كلا.. قدرته تفوق تصور البشر.. فهو ليس قادرا على جمع عظامه وحسب، وإنما يقدر أن يسوي بنانه أيضا، والإنسان حينما يراجع نفسه ويتفكر في آيات قدرة الله في الطبيعة فإنه يعرف تلك الحقيقة، ولكنه إنما يخترع تلك الأفكار تبريرا للهروب من عرصة المسؤولية، والإيمان بالرسالة التي تحدد تصرفاته ولا تجعله مطلقا يتبع الهوى كما يريد.. ويؤكد القرآن مرة أخرى أن هذه هي الخلفية الحقيقية لسؤاله عن القيامة (الآيات: ٣-٦).

ويداوي ربنا هذا المرض المستعصي في النفس البشرية بالتأكيد للإنسان أنه وإن استطاع مؤقتا (في الدنيا) تبرير ضلاله والفرار من المسؤولية تحت غطائه فإنه لن يجد في المستقبل مفرًّا من ربه حينما تقوم القيامة ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وعبر قنطرة الدنيا الفانية إلى دار الاستقرار عند الله، فهنالك يجد نفسه وجها إلى وجه مع حقيقة أمره حيث يجد ما عمل محضرا أمامه (الآيات: ٧-١٣).

ويثير الوحي فينا حس النقد الذاتي، عن طريق تذكيرنا بحقيقة وجدانية مُسَلَّمة، ألا وهي بصيرة الإنسان على نفسه، فإنه قبل الآخرين شاهد عليها وعالم بواقعها، مهما توسَّل بالأعذار والتبريرات الواهية، وإنما يؤكد القرآن هذه الحقيقة لأن المراقبة الذاتية أعظم أثرا، وأرسخ للتقوى في شخصية الفرد (الآيات: ١٤-١٥).

ثم ينعطف السياق إلى الحديث عن القرآن نفسه، داعيا الرسول إلى عدم التعجل به من قبل أن يُقضى إليه وَحْيُه، مؤكدا تكفله تعالى بجمعه وقرآنه ثم بيانه للناس.. وهذا مما جعل المفسرين يتحيرون في فهم العلاقة بين سياق السورة وبين هذا المقطع، إلا أن هناك علاقة متينة سنتعرض لإيضاحها في البينات (الآيات: ١٦-١٩).

وتهدينا الآيات إلى واحد من عوامل الانحراف وعدم تحمل المسؤولية عند الإنسان، والذي لو استطاع التغلب عليه لاهتدى إلى الحق، وسقط الحجاب بينه وبين الآخرة، ألا وهو حب العاجلة (الدنيا) على حساب الآخرة، والبحث عن النتائج الآنية وإنكار الجزاء الآجل ولو كان الأفضل، بل ولو كان مصيريًّا بالنسبة إليه، فهو يعيش لحظته الراهنة دون التفكير في المستقبل، وهي نظرة ضيقة خطيرة. وحين يفشل الإنسان في الموازنة بين الحاضر والمستقبل، وبين الدنيا والآخرة فإنه يخسرهما معا (الآيات: ٢٠-٢١).

والحل الناجع لهذه المعضلة عند البشر يتم بإعادة التوازن بينهما إلى نفسه، ولأن العاجلة شهود يعايشه بوعيه وحواسه فإن حاجته الملحة إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده، ولذلك يضعنا القرآن أمام مشاهد حية من غيب الآخرة حيث الناس فريقان: فريق السعداء الذين تُجَلِّل وجوههم النضارة، ويصلون إلى غاية السعادة بالنظر إلى ربهم عز وجل، وفريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسرة، الذين ينتظرون بأنفسهم العذاب والذلة (الآيات: ٢٢-٢٥).

ويمضي بنا السياق شوطا آخر يحدثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبة حيث تبلغ النفس التراقي فيعالج الإنسان سكرات الموت حيث يلف ساقا بساق، ويقبض كفًا ويبسط أخرى. بلى، إنه أول مشهد من الآخرة، والنافذة على عالمها الواسع.

وكما أن تكذيب أحد بهذه الحقيقة لا يدفعها عنه ولا يُغَيِّر من شأنها فإن التكذيب بالآخرة هو الآخر لا يُغَيِّر قدر ذرة من أمرها، لأنها حقيقة واقعة وقائمة (الآيات: ٢٦-٢٩).

ولأن مشكلة الإنسان ليست إنكار الموت، ولا زعم القدرة على دفعه، بل الشك فيما بعده أو الكفر به، انعطف القرآن نحو إنقاذه من حيرة الشك في المستقبل والجهل به، وكأنه يحل لغزا رجع صداه في أكثر النفوس البشرية، ببيان أن مسيرته في الحياة لا تنتهي بالموت، وإنما الموت جسر إلى عالم أبدي أوسع، هو عالم لقاء الله والحساب والجزاء بين يديه، وذلك مما يعمق الشعور بالمسؤولية في النفس (الآية: ٣٠).

وغياب هذه الحقيقة من وعي الإنسان هو المسؤول عن عدم تصديقه وعن تركه للصلاة، وهو يدفعه إلى التكذيب، وركوب مطية الغرور، وإن من يكون على هذه الصفات الموت أولى به من الحياة، والعذاب من الرحمة (الآيات: ٣١-٣٥).

ويرجعنا القرآن إلى الجذر الأصيل لكفر الإنسان بالبعث والجزاء: إنه جهله بقدرة ربه سبحانه، فليتفكر في أصل خلقته حين كان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ فخلقه الله وسوَّاه، متكاملا في ذاته، ومتكاملا مع الجنس الآخر بأن خلق ﴿مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ فهذه آية واضحة للعقل على قدرة الله ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لأن أصل الخلق أعجب وأدل على قدرته تعالى من الإعادة (الآيات: ٣٦-٤٠).

76

سورة الإنسان

* من عرف نفسه فقد عرف ربه

إذا عرف الإنســان ربه، عرّفه الله تعالى نفســه. كذلك إذا عرف نفســه، عرف ربه، حيث أنه حين يتفكر فيها لا يجد فيها إلا آيات الصنع وشـواهد التدبير. ولعل أهم إثارة علمية يلقيها القرآن على الإنسان هي حقيقة حدوثه بعد العدم، وأنه أصبح شيئاً مذكوراً بعـد أن كان عدمـاً خاملاً مجهولاً. تَفَكَّرْ حين لم تكن شـيئاً مذكوراً ثم خلقك الله الحكيم المقتدر من نطفة أمشاج؛ تفكر في هدف ذلك، هل هو سوى الابتلاء؟.

هكذا تفتتح سـورة الإنسـان التي تزرع في النفس خشية الآخرة، وتجعلها معراجاً للشـخصية إلى التكامل والسمو حتى تبلغ درجة الأبرار، الذين تصبغ شخصيتهم الفذة صفـة الوفاء بالنذر، والخوف من يوم القيامة، والإيثار، والترفع عن شـهوة المدح وحب التسلط على الآخرين.

وتمضي آيات السورة المباركة التي نزلت في شأن أهل الرسول ﷺ، تمضي في بيان نعيم الجنة التي تختمها بوصفها بالملك الكبير، وبأن ربهم الرحمن يسـقيهم شراباً طهورا. ولكيـلا يعيش الإنسـان في أحلام التمني والتظني؛ يذكّره السـياق بـأن ثمن الجنة الصبر لحكم الله، والاسـتقامة ضد ضغوط الآثمين الكفـار، وذكر الله بالليل والنهار. ويبين أن

الضالـين والظالمين انتهوا إلى هذه العاقبة السـوأى بسـبب تركهم ذكر يـوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل.

وفي خاتمة السـورة يذكرنا الرب بأن الإنسـان حر في اتخاذ سـبيل الله بتلك المشـيئة التي منحه الله إياها، وأن مشيئته بالله العظيم الحكيم في عطائه وجزائه.

77

سُورَةُ المُرسَلات

* من هو الخاسر الأكبر؟

بتكرار آيـة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يظهـر أنها المحـور الرئيسي للسـورة الكريمة، والتـي تهـدف -فيما يبدو- تأكيد وعـد الله الواقع في أن الويل للمكذبين به. فبعد القسـم بالمرسلات والناشرات يؤكد ربنا أن وعده تعالى واقع لا محالة (الآيات: ١-٧).

ومـع أن قـول الله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ شـامل لكل ما يعـد الله به أن يقـع، إلا أن يوم القيامـة ومـا يُجلي مـن الحقائق وما يعنيـه من بعث وحسـاب وجزاء هو أظهـر مصاديق الوعود الإلهية الواقعة، وحين يحل أجل ذلك الوعد يشهد الوجود حوادث كونية رهيبة، فتطمس النجوم، وتنشـق السـماء، وتنسـف الجبال، وأعظم من ذلك شـهادة الرسل على أممهم عند الحسـاب والفصل بـين الناس وفي مصائرهـم، إذ أجّلها الله ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ إنـه يوم رهيب ومهول، لأنه يوم الفصل في مصائر العباد، فويل لأولئـك الذين كَذَّبوا رسـل الله من شـهادتهم ضدهـم عنده، وما يتلو ذلـك من عذاب شديد يصبه عليهم ربهم صباً (الآيات: ٨-١٥).

وبالرغم من أن القرآن يوجهنا إلى مشـاهد ذلك اليوم الأخروي ومصير المكذبين فيـه، علاجًـا لموقف التكذيب بحقائق المسـتقبل عند الإنسـان، إلا أنـه لا يكتفي بذلك؛

بـل يدعونـا إلى الاعتبار بعاقبة المجرمين الآخرين بعـد الأولين. فإن المتفكر في هذا الأمر يهتـدي إلى واقعيـة سُـنَّة الجزاء، وذلك بدوره يهديـه إلى واقعية الآخـرة باعتبارها التجلي الأعظم والأشمل لها في واقع الحياة فـ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (الآيات: ١٦-١٩).

ويربـط القرآن بين خلقة الإنسـان وبين حقيقـة الآخرة، وذلـك أن خلقته بما فيها من أطوار وتقديرات تكشـف عـن حكمة الخالق؛ وأنه لم يخلق الخلـق عبثاً، ولن يتركهم سدى، والتي لا تكتمل من دون الإيمان بالآخرة التي هي عنوان الحكمة الإلهية، ومنتهى الإنسـان وغايته التي تقتضيها تلك الحكمة، كما تقتـضي العذاب الأليم للمكذبين بالحق (الآيات: ٢٠-٢٤).

ومـن رحلـة الإنسـان في آفاق نفسـه ينطلق به السـياق إلى آفاق الكـون من حوله بموجوداتـه وظواهـره، حيـث جعـل الله الأرض كفاتـاً تضمه حيـاً وميتـاً، وجعل فيها جبالاً راسـية بأصولها في الأرض، شـامخة بقممها في آفاق السـماء، وسـقانا منها ماءً فراتاً سـائغاً للشـاربين، وكل ذلك آيات لحكمة الله، وعلامات تهدي إلى ذلـك اليوم، فالويل للمكذبين به (الآيات: ٢٥-٢٨).

ولقطـع دابر التبرير والكيـد، اللذين يتخذهما المكذِّبون وسـيلة لتكذيبهم، يصور السـياق عاقبة المكـذِّب، إذ يأتي النـداء الإلهي إلى المكذبين في حال تـكاد الحسرة تهلكهم لولا مشيئته تعالى؛ يقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (يعني جهنم وعذابها) ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ (وحيـث النـار، ومـا أدراك مـا هـي النـار؟) إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ فويل يومئـذ للمكذبين من غضب الله وعذابه (الآيات: ٢٩-٣٤).

وهنالك تنطق الحجـة البالغة لله، ولا ينطق المكذبون باعتبارهم مُلْجَمَين بالحجج مـن جهة، ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ من جهة أخرى، وكفى بهذا عذابا مهينا لهم بين يدي جبار السماوات والأرض، وأمام الخلائق في محشر يوم القيامة (الآيات: ٣٥-٣٧).

ويتحـدى السـياق المكذبـين مـن الأولـين والآخريـن، بهـدف إذلالهـم وإظهـار صغارهم أمام الناس، حيث كانوا يتكبرون في الدنيا بما عندهم من السلطة والمال؛ يقول

لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي طالما كذبتم واستهزأتم به، وأنتم مجموعون إلى بعضكم (أولين وآخرين) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ وذلك جزاء كيدهم ومحاربتهم لله ولأوليائه في الدنيا، فالويل لهم من ذلك الموقف وعذابه (الآيات: ٣٨-٤٠).

ويبين القرآن سبيل النجاة من مصير المكذبين السيء، ألا وهو تقوى الله، وهذا البيان يملأ قلوب المتقين أملاً في رحمة الله، واطمئناناً إلى لطفه بالذات. والسورة ظلال لغضب الله ووعيده بكل آياتها ومفرداتها عدا الآيات: (٤١-٤٤) فالمتقون في مأمن من العذاب، وهم ﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (يدعوهم ربهم إلى مائدة فضله ورحمته) ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وإنه لجزاء كل تقي محسن عنده تعالى (الآيات: ٤١-٤٤).

ويعود السياق موصولاً بما سبق من الوعيد للمكذبين، وهو يهددهم بالعذاب، ويحذرهم من عواقب انتهاجهم سبيل التكذيب والجريمة، مؤكداً أنهم لن يطول بهم المقام في متعهم الإجرامية حتى يقع بهم غضبه الذي لا تقوم له السماوات الأرض (الآيات: ٤٥-٤٧).

وكيف لا يلحق بهم الويل والثبور وهم يتمردون على أوامر الله وأحكامه، فلا يتبعون رسله ولا يصدقون آياته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾!، بلى؛ سوف يلحقهم العذاب (الآيات: ٤٨-٤٩).

ويختتم ربنا سورة المرسلات متسائلاً سؤال استنكار: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟، وذلك مما يؤكد القول بأن الإيمان بالآخرة وحديثها حجر الأساس في صرح الإيمان بكل المبادئ والحقائق الأخرى، وهذا ما يجعل حديثها مذكوراً على الدوام في آيات الوحي وبصورة مفصلة (الآية: ٥٠).

78

سُورَةُ النَّبَإِ

* المسؤولية حكمة الخلق

يعـرض البشر عـادةً عن التفكير الجـدي في الحقائق الكبرى التي ترسـم الخطوط العريضة في حياته، لماذا؟ هل لأنها غامضة؟ كلا! بل لأن في نفسه نزوعاً عنها.. أَوَليست معرفتها تُحمِّله مسـؤوليات كبيرة؟ إذن لماذا يكلف نفسـه عناء ذلك؟ دعه يمر على آياتها غافلاً، عساه يتهرب من مسـؤولياتها، ولكن هـل الإعراض عنها يغنيه شـيئاً؟ كلا! إنه بالغها فمواقعها، شاء أم أبى، آمن أم كفر وعاند!.

الحقائق الكبرى تحيط بلب البشر إحاطة السوار بالمعصم، كلما أراد منها هروباً وجدها أمامـه. ولا ريـب أن النشور للحسـاب والولاية من تلـك الحقائق. فبالرغـم من محاولات الفرار منها تراهم يتسـاءلون عنها، لأنها من النبأ العظيم، والنبأ العظيم يجده الإنسـان أمامه أنى اتجه، ولأهميته يختلفون فيه؛ في تفاصيله مرة، وفي محاولات التهرب منه أحياناً.

كلا؛ إنـه يفـرض نفسـه عليهم حتى يعلمـوه علم اليقين، ثم كلا سـيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به (الآيات: ١-٥).

بعـد هـذه الفاتحة الصاعقة تمضي السـورة تذكِّرنا بآيـات الله في الخليقة التي تهدينا إلى أنه عليم حكيم، وأنه لم يخلق العباد سـدىً، إنما بحكمة بالغة تتجلى في المسـؤولية. لقد

خلق ما في الأرض للإنسان، فلأي شيء خلق الإنسان نفسه؟ ألم يجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، بل وجعل في ذات الإنسان ما يدل على بديع الصنع، وبالغ الحكمة؟ لقد خلقنا أزواجاً، وجعل لنا النوم استراحة عن العمل، وجعل الليل لنا ستراً والنهار معاشاً للنشاط والحركة (الآيات: ٦-١١).

أما السماء فقد جعلها سقفاً محفوظاً بسبع طبقات شداد، وعلَّق فيها لأهل الأرض سراجاً وهاجاً، ثم أنزل منها ماءً متواصلاً مندفعاً، ثم جعل هذا النظام مترابطاً ببعضه، فأنبت من الأرض حَبًّا ونباتاً، وجنات ألفافاً (الآيات: ١٢-١٦).

كل ذلك من أجل الإنسان، والإنسان من أجل المسؤولية، ولكي يقدم للمحاكمة غداً في يوم الفصل الذي كان ميقاتاً للحساب، يوم ينفخ في الصور فتَوافد الخلائق أفواجا أفواجاً. أمّا السماء فإنها تتحول إلى أبواب لتنزل الملائكة بالعذاب أو الثواب. أما الجبال التي أَكَنَّتْ البشر فتكون سراباً (الآيات: ١٧-٢٠).

هنالك الحساب، فبينما يساق الطغاة إلى جهنم ليبقوا فيها أحقاباً بلا برد ولا شراب، تجد المتقين في مفاز، حيث يدخلون الجنة ليتمتعوا بنعيمها وأمنها وخلودها. وهذا وذاك يكون تجسيداً لمسؤوليتهم في الدنيا، وجزاءً وفاقاً لأعمالهم (الآيات: ٢١-٣٦).

ترى هل وراء ذلك اليوم الرهيب أمر آخر؟ بلى؛. هناك ما هو أخطر منه.. إنه النار أو الجنة.

أَو ليست جهنم مرصاداً للطاغين، والجنة مفازة كريمة للمؤمنين؟.

إن الطغاة تغافلوا عن السنة الإلهية والقانون الرباني، ثم كفروا بكل الحقائق، ومن ثم التحذيرات السماوية، ووعى المتقون السنة ففازوا بالجنة وأمنها وسلامها.

وتختم السورة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة، حيث يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون، ويذكرنا ربنا بأن فرصة الاختيار السليم لا تزال قائمة، فقد أنذرنا عذاباً قريباً، يوم يرى المرء أعماله التي قدَّمها متجسدة أمامه. أماالمؤمن فيفرح بها، وأما الكافر فيقول: يا ليتني كنت تراباً، ولم أُقدِّم مثل هذه الأعمال أو أتحمل تلك المسؤوليات (الآيات: ٣٧-٤٠).

79

سُورَةُ النَّازِعَات

* من أجل معالجة الطغيان والغرور

يبدو أن سورة النازعات تنزع من نفس المهتدين بها طغيانها، ولكن كيف؟.

أولاً: بتلاحق كلمات القسم الصاعقة، وبما هو مجهول عندنا، من ملائكة الموت أو حالة الموت أو خيل الغزاة. (الآيات: ١-٥).

ثانياً: تنذر بيوم الراجفة ويوم الرادفة، حيث تكون القلوب واجفة، أبصارها خاشعة، من هم أولئك؟ إنهم الذين يقولون في الدنيا: إنا لمردودون إلى الحياة كما نحن الآن حتى ولو كنا عظاماً نخرة. فيقول لهم القرآن: بلى؛ وبزجرة واحدة تخرجكم الأرض إلى ظهرها المستوي، لا ترون فيها أمتاً ولا عوجاً. (الآيات: ٦-١٤).

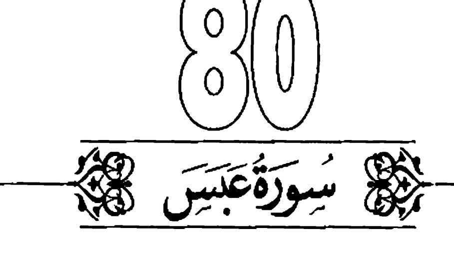
ثالثاً: تقص علينا حديث موسى وفرعون، وكيف أن فرعون طغى ولم يستمع إلى إنذار رسول الله إليه، فأخذه الله نكال الآخرة والدنيا. (الآيات: ١٥-٢٥).

رابعاً: ترينا آيات الله في السماوات والأرض، وحكمته البالغة التي تتجلى في نظام الخلقة، كيف مسك السماء وسواها، كيف أغطش ليلها وأخرج ضحاها، وكيف دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها، وكيف أرسى جنباتها.. كل ذلك لحياة الإنسان، والبهائم التي تساعد الإنسان.(الآيات: ٢٦-٣٣).

خامساً: بعد ذلك يذكرنا بالطامة الكبرى حيث يتذكر الإنسان ما سعى، ويبين أن حكمة الخلق تتجلى في الجزاء النهائي، عندما يلقى في الجحيم من طغى، وتكون الجنة مأوى الخائفين مقام ربهم. (الآيات: ٣٤-٤١).

وفي خاتمة السورة يذكرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثًا، حيث يتساءلون عن الساعة: أيان مرساها؟ ولكن أين أنت والساعة؟ إنَّ علمها عند الله وإليه منتهاها، إنما أنت منذر.. دعنا نخشاها، ففي ذلك اليوم تعم الحسرة كل أبعاد وجودنا، لأننا نحتسب عمرنا في الدنيا عشية أو ضحاها. (الآيات: ٤٢-٤٦).

وهكذا تحقق آيات السورة هدفها لمن يشاء، وهو معالجة طغيان النفس وغرورها.



* لكي يصلح الإنسان نظرته إلى نفسه

لكي تصلح نظرة الإنسـان إلى نفسه جاءت رسالات الله. وقبل أن يكون الإنسان غنياً أو فقيراً، شريفاً في النسب أووضيعاً، عربياً في اللغة والعنصر أو أعجمياً، أبيَض أو أحمر أو أسود.. قبل كل ذلك فهو إنسـان، ومن نظر إليه من خلال ملابسـاته المادية فقد كفر بلبه وجوهرته السامية.

و هنا تتميز الجاهلية عن الإسلام، دين الفطرة السليمة والعقل المستنير. فالجاهلية تقيِّـم الناس على أسـاس الملابسات المادية، والديـن الحق يقيِّمهم على أسـاس درجات إيمانهم مما يتصل بكل واحد منهم كإنسان، أوليس أصل الإنسان عقله؟.

وحامـل رسـالات الله لا يجوز أن يتنازل عن هذه الميزة الهامـة، فإذا به يميز الناس على أسس مادية، فما قيمة الرسالة إذن، وكيف يمكنه إصلاحهم يومئذٍ وتغيير مفاهيمهم الخاطئة وهو الذي يخضع لها!.

ويبدو أن هذه السورة الكريمة تبصِّرنا بهذه الحقيقة، فاذا بفاتحتها عتاب شديد، لمن عبس وبسر في وجه الأعمى وتولّى، بينما تصدّى لمن استغنى (الآيات: ١-١٠).

ثم يبين السـياق سمو قيمة الإيمان، وقيمة القرآن، ويهدينا إلى صفات حَمَلَتِهِ بحق،

وهـم الكـرام البررة الذين ينبغـي أن يصبحوا محور التجمع الإيـماني؛ لا أصحاب الغنى والجاه والشرف الزائف (الآيات: ١١-١٦).

ثم ينعطف السـياق نحو التذكرة بالإيمان عبر تعداد نعم الله على الإنسـان وتقلباته منـذ أن كان نطفـة إلى أن أصبح بشراً سـوياً، وتيسر لسـبل الخير والسـلام وحتى يموت فيدفن (الآيات: ١٧-٢٣).

ويذكرنـا بواحـدة من أعظم نعم الله علينا، وهي نعمة الطعـام، ويدعونا إلى النظر فيها، كيف يوفرها الله لنا بالغيث. كل ذلك لأن الإيمان بالله ونبذ الكفر -بكل ألوانه- هو السـبيل لبناء مجتمع القيـم الذي يسـمو عـلى الخضوع لأصحاب المال والجـاه. (الآيات: ٢٤-٣٢).

و في الختـام ينذرنـا الـرب بيوم الصاخـة، ويذكّرنا بأنه في ذلك اليـوم لا تنفع هذه العلاقـات المادية؛ فحتـى الأرحام تنقطع، إنما القيمة الحق يومئذٍ هي العمل الصالح، ألا نجعله أيضاً قيمة تجمعنا اليوم؟ (الآيات: ٣٣-٤٢).

81

سُورَةُ التَّكوِير

* وإذا القلوب تحجّرت

عندما تغور النفوس في لجة عميقة من السبات، وعندما تتحجر القلوب فتمسي أشد قسوة من الجلاميد، وحينما ينساب الإنسان بلا وعي ولا إرادة مع التقاليد الباطلة، فلا يرضى تطويراً ولا تحويلاً.. هنالك تشتد حاجة الإنسان إلى صعقات النذر، كما الرعود الهادرة توقظ القلب من سباته، وتستثير العقل من تحت ركام الخرافات.

وجاء الوحي يصدع به النبي النذير ﷺ إضاءات متواصلة في محيط من الظلام الدامس، وصعقات بالغة الشدة في مستنقع السكوت والجمود، وبراكين حارقة للمقدسات المزيفة، والخرافات الجاهلية المتوارثة.

وسورة التكوير واحدة من تلك الصعقات، فإذا انفتح عليها القلب كاد يتصدع هولاً، لأنها تفتح نافذة واسعة على جيشان الحقيقة، وطوفان التطورات فيها، إنها مفتاح التطوير والإبداع في القلب والعقل والسلوك.

وتحدثنا آياتها الفاتحة عن الشمس إذا كورت.. بلى؛ الشمس التي هي محور منظومتنا هي الأخرى تتكور في يوم رهيب، فلماذا الاسترسال مع السكون القاتل، النجوم كذلك تنكدر، والجبال تُسيَّر، والعشار تعطل، وتمضي آياتها الصاعقة ترسم

صـورة رهيبـة لذلك اليوم، لعل قلوبنا تتسـاءل: مـاذا عنّا في ذلك اليـوم؟ فيأتي الجواب مهولاً: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ عظيم حقاً أن نعود إلى أعمالنا التي تتجسد أمامنا ونعلم بها، إنها المسؤولية بكل ثقلها (الآيات:١-١٤).

وتنقلنـا الصـورة فـوراً إلى النجـوم اذ تخنـس، والكواكـب إذ تكنـس، والليـل إذ يعسـعس، والصبـح إذ يتنفس.. أوليسـت تلـك آيات الله الأكثـر إثارة لنفوسـنا، والتي تهدينا إلى حكمة الرب وقدرته؟ بلى؛ فإن القرآن قول رسول كريم، لأنه -وبشهادة العقل والضمير- تعبير عن تلك الآيات ؛ إنه كتاب ينطق عن رب الكائنات، وتنطق الكائنات بحقانيته (الآيات: ١٥-٢٢).

و أخـيراً؛ يصـور القرآن لنا تنزل الوحـي عبر أفق مبين، ويتسـاءل: فأين تذهبون عن هذا الوحي الحق؟ إنه ذكر من الله للعالمين، لمن شاء أن يستقيم (الآيات: ٢٣-٢٩).

إنهـا ثلاث صور عظيمة؛ صورة رهيبة عن السـاعة، وصـورة جذابة عن الطبيعة، وصورة رائعة عن الوحي.. سبحان الله الذي أنزل هذه السورة سبحانه سبحانه!.

82

سُورَةُ الانفِطَار

* صور مباشرة عن القيامة

تنساب فاتحة السورة في بيان أشراط الساعة حيث تنهار أنظمة الخليقة، فإذا بالسماء تنفطر، والكواكب تنتثر، والبحار تتفجر، والقبور تبعثر... ويكفي القلب الواعي ذلك واعظاً ويتساءل: لماذا كل ذلك؟ فيكتشف بنور إلهي - أنه لكي يُحاسَب الإنسان ويُجازي، وأن أول من يحاكم الفرد يومذاك نفسه، حيث تعلم ما قدمت وأخرت من خيرٍ أو شرٍ.

ولكي تنمو شجرة التقوى في النفس فتؤتي أكلها من الصالحات، تذكِّرنا آيات هذه السورة بالساعة وأشراطها، ثم بتضاؤل البشر أمام قدرة الخالق الذي خلقه فسواه، ثم تبين أن سبب غرور الإنسان هو تكذيبه بالجزاء، في حين الجزاء واقع، وأعمال الإنسان مسجلة عليه بدقة ثم يُوفَّى أجوره عليها، باستضافة الأبرار في النعيم الخالد، وسَوْق الفجار إلى الجحيم.

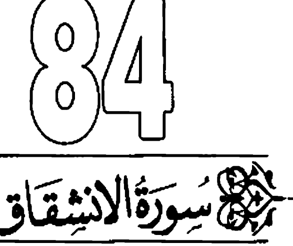
وينذر القرآن في الختام بيوم الدين؛ حيث لا تملك نفس لنفس شيئاً، وإنما الأمر يومئذٍ لله الحكم العدل الذي لا بد أن نتقيه اليوم حق تقاته.



* دور الإنصاف في مصير الإنسان

حينما تتماثل صور القيامة وأهوالها، وميزانها الحق، وحسابها الدقيق، وجزاؤها العادل والعظيم، تتماثل كل تلك الصور والمشاهد في القلب، ويتحسس الإنسان حينئذ المسؤولية التي تحيط بحياته إحاطة السوار بالمعصم، ويتجلى ذلك الإحساس عنده في إنصاف الناس من نفسه، ويكون الحق الميزان المستقيم بينهم وبينه، لا الأثرة والشح، والتطفيف.

ويبدو أن ذلك هو إطار هذه السورة التي جبهت المطففين بنذير الويل في يوم البعث -الذي لا يتصورونه- ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، ولو أنهم ظنوا ذلك وعرفوا أن حسابات أعمالهم مسجلة في كتاب مرقوم لارتدعوا ولكن لا يرتدعون.



* دعوة لإصلاح النفس

قبسان من نور تشع بها سورة الانشقاق:

١ – قبس يرشه على واقع الإنسان عسى أن يعرف نفسه ويضعها في المقام الأسمى الذي خُلِقَت له. فالإنسان كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه.. وهو يركب بالتأكيد طبقاً عن طبق.

فهو إذن ذلك الإنسان المسؤول الذي سُخِّرت له الأرض وأجرام السماوات العلى، وأمامه عقبات كأداء لابد أن يتحداها حتى يصل إلى دار المقامة عند رب العزة، وإلا فيكون من أصحاب الشمال، يؤتى كتابه وراء ظهره، ويساق إلى جهنم ليصلى سعيراً. (الآيات: ١-١٥).

٢ – قبس يضيء به الطبيعة.. إنها خليقة الله، وتستجيب لمشيئته النافذة؛ فالسماء حين تنشق، والأرض حين تمتد، تأذنان لربهما العظيم، وحق لهما ذلك، أوليستا مخلوقتين! ويلتقي شعاع هذا القبس بذلك عندما يستنكر السياق كفر هذا الإنسان، فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ أولم يُخلقوا كما خُلِقت السماوات والأرض، أهم أعظم خلقاً أم تلك؟.

وكما في سائر السور القصار؛ تفتح آيات السورة منافذ القلب على الحقيقة.. ولكن قلب من؟ إنما قلب الذين استجابو الربهم، فآمنوا به و عملوا الصالحات، فتبشرهم بأجر متصل غير منقطع. (الآية: ٢٥).

85

سورة البروج

* الإيمان يقاوم تحديات الكفر

جبارٌ سفيه، تُطغيه سلطة محدودة في بلد متواضع، فيتخذ قراراً خاطئاً بإعدام جماعي لطائفة وعت الحقيقة فآمنت بالله،فيلقيهم في نار في الأخاديد، وتشهد الجماهير سطوته لكي يكونوا لهم عبرة.. وينتهي في زعمه كل شيء.

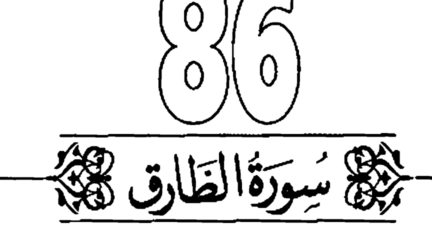
كلا؛ إن السماوات والأرض وجنودهما وسكانها ينتظرون محاكمة هذا السفيه في اليوم الموعود، وأن سنن الله في الخليقة التي تمتد من السماء ذات البروج في عمق المكان، إلى اليوم الموعود في أفق الزمان، وإلى الشاهد والمشهود تحيط بهذا الإنسان العاجز المسكين، فأين المفر؟!.

وهكذا تتواصل آيات سورة البروج التي تُفتَتَح باليمين، وتُختم بأن الله من ورائهم محيط، وأن القرآن المجيد مصون في اللوح المحفوظ، و فيما بينهما الحديث عن أصحاب الأخدود الذين بالغوا في الجريمة فأوقدوا النار في حفر، ثم ألقوا المؤمنين فيها وجلسوا يتفرجون على مشهد احتراقهم!.

وهكذا ابتلي المؤمنون -وربما بصورة مكررة وفي بلاد مختلفة- بهذا البلاء العظيم، دون أن ينال من إيمانهم مثقال ذرة، بل ازداد إيمانهم صلابة وصفاءً. أما أعداؤهم، فماذا

كانت عاقبة جرائمهم؟ هل بلغوا هدفهم؟ وماذا استهدفوا من هذا العمل الوحشي الموغل في الجاهلية؟ أوليس كسر مقاومة المؤمنين؟ فهل أفلحوا؟ كلا؛ فقد انتشر الدين بسبب مقاومة المؤمنين، ونزل على الجبارين العذاب الأليم، كما أنزل الله على فرعون وثمود العذاب الأليم.

وكلمة أخيرة: إن هذه السورة الكريمة تتميز بإعداد المؤمنين لاجتياز أصعب الامتحانات ومقاومة أكبر التحديات.



86
سورة الطارق

* الإنسان والحقائق الكبرى

لكي يتسع قلب الإنسان للحقائق الكبرى فيعيها ويتكيف معها يرغبه الوحي في النظر والتفكر في آفاق السماء وما فيها من النجوم الثاقبة والشهب الطارقة، وفي أغوار النفس وما انطوت عليه من عالم كبير، وفي نشأته الأولى حيث خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، ومصيره الأخير حيث يواجه أعماله بلا حجاب ولا قوة ولا ناصر.

ولكي لا يتهرب البشر من الحقائق العظيمة، كواقع الرجع والحساب بتكذيب الرسالة أو تأويل أنبائها بما يتناسب واللامسؤولية، يذكره الوحي بأن القرآن قول فصل، وليس بالهزل.. وينذر المكذبين والكافرين بأن الله يكيد لهم كيدا، ولكن يمهلهم، وأنت أيها الإنسان اصبر وأمهلهم رويدا.

87

سُورَةُ الأعْلى

* خطوات على طريق الفلاح

كما خلق الله الكائنات فسواها وأتم صنعها، كما قدر لها شؤونها، وألزمها بسنن، وهداها إليها، كذلك قدر للإنسان ما يصلحه، وجعل له سبل السلام التي تهديه إلى غاياته الكريمة، وبعث إليه رسالته التي تهديه إليها.

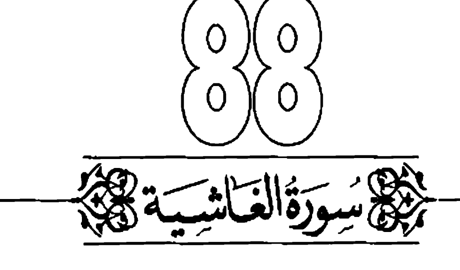
ولا تحدد غاية الإنسان بما في الدنيا من عافية وأمن وتقدم وسعادة، بل وأيضا بما في الآخرة التي هي خير وأبقى.

بماذا يهدي الله الإنسان إلى الفلاح؟ بالقرآن الذي يقرؤه الرسول فلا ينسى منه حرفا ليذكر به الناس، ولكن من الذي يتذكر؟ إنما الذي يخشى، بينما الذي يسد منافذ قلبه من دون التذكر فهو الأشقى الذي يصلى النار الكبرى فلا يموت فيها ولا يحيى.

وإذا استطاع الإنسان الإقلاع من جاذبية الدنيا والتحليق في أفق الآخرة التي هي خير وأبقى فإنه يخطو الخطوات الأولى على طريق الفلاح، أما الثانية فالخشية ثم التذكر، وبعدهما تأتي التزكية كخطوة ثالثة تحمله إلى الصلاة والزلفى إلى رب العزة.

هكذا تتواصل آيات سورة الأعلى لتذكرنا ببلاغة نافذة بذات الحقائق الكبرى التي لا بد أن نعيها حتى نبلغ الفلاح. وإنها لمعجزة القرآن أن كل سورة منه تذكر بذات

الحقيقـة، ولكن بطريقـة متميزة جديدة.. بلى؛ إن الحقائق الكبرى تتجلى في مظاهر شـتى لأنهـا غير ما نشـهده من الحقائق الجزئية، وهي خلاصة صحـف الله التي بعثها إلى أنبيائه العظام كإبراهيم وموسى عليهما السلام.

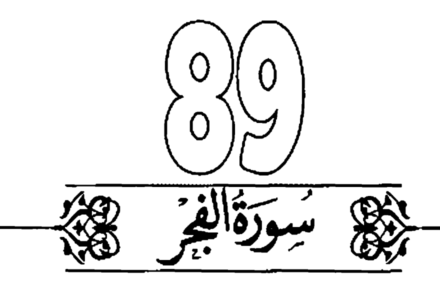


* الدنيا والآخرة معادلة ثابتة

الدنيا والآخرة مثل كفتي ميزان ما رجحت إحداهما إلا على حساب الثانية، خصوصا إذا فسرنا الدنيا بأنها الحياة الفارغة عن القيم الإلهية، فمن اختارها، وترك الفرائض، وتهرب من المسؤوليات، وكفر بالرسالة، فإن له وجها خاشعا في الآخرة، وعملا ناصبا، وكدحا متواصلا، شرابهم في النار من عين آنية، وطعامهم من ضريع.

ومن اختار الآخرة فإن وجهه هناك ناعم، وقلبه راض، وعيشته في الجنة ذات سلام وأمن وعين جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة.

يبدو أن هذا هو محور سورة الغاشية التي تختم بذكر الحساب الإلهي الذي ينتظر الناس بعد إيابهم.



* الرجوع إلى الرب

لكي تتلقى كلمات الوحي، عليك أن تسمو إلى مستوى التدبر فيها، والتحسس لنبضاتها، ومتابعة مؤثراتها، والتفاعل مع إيقاعاتها.. وبكلمة؛ لا بد أن تعيشها بكل ما أوتيت من صفاء الفؤاد، وقوة الفكر، ورهافة الحس.

كذلك سورة الفجر؛ لا يعيها إلا من يندمج معها، ويسلم قياده لكلماتها التي تفيض علماً وحكمة وحياة ونوراً، بها تعرج به إلى أفق آخر، تجعله يرى ما حوله بصورة جديدة حتى يتسامى عن جواذب المادة وإصرها وأغلالها، وتطمئن نفسه إلى الله وترضى به، فإذا به وهو في الدنيا يعود بروحه إلى ربه، ويسمع هتاف ربه: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

و يبدو أن هذه البصيرة هي محور السورة، ولكن كيف يتحقق ذلك؟ في السورة -فيما يبدو- الإجابة عن ذلك، حيث تتلخص في نقاط هي بدورها محاور تمهيدية للسورة.

أولاً: التحسس برقابة الله وأنه بالمرصاد حتى يزداد القلب وعياً وتقوىً، والسؤال: كيف؟ بالنظر في اختلاف الليل والنهار وحسن تدبيرهما من الفجر حتى الليل إذا يسر، وأيضاً بالاعتبار بمصير أولئك الجبارين الذين نسوا الله، ولم يراقبوه، فكان ربهم لهم

بالمرصاد، فصب عليهم سوط عذاب (الآيات: ١-١٤).

ثانياً: تزكية القلب من حب الدنيا، واعتبار الغنا قيمة إلهية، لأن عاقبة حب الدنيا وخيمة، إذ إنه يمسخ شخصية الإنسان فيجعله لا يكرم اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ويأكل التراث جميعاً، ويكاد يعبد المال لفرط حبه له! (الآيات: ١٥-٢٠).

ثالثاً: بتذكر أهوال الساعة، حيث تندك الأرض ببعضها دكاً دكاً، ويتجلى الله بعظمته وعدالته وشدة بطشه بالجبارين والمجرمين، يتذكر الإنسان أنه قد ضَيَّع فرصته الوحيدة في الدنيا، ولم يقدم شيئاً لحياته، ولكن لن تنفعه الذكرى (الآيات: ٢١-٢٦).

هنالك يهتف الرب بالنفوس المطمئنة أن ارجعي إلى ربك راضية مرضية. ما أعظمه من نداء، وما أحسنها من عاقبة. وفقنا الله لها جميعاً (الآيات: ٢٧-٣٠).

90

سُورَةُ البَلَد

* الحرية بين وعي الذات وعزم الإرادة

حينما يولد ابن آدم تتساوى في كيانه فرص الخير والشر، ولا يزال يختار ثم يستفيد من فرص الخير أو الشر الواحدة بعد الأخرى حتى تميل كفته نحو ما اختار. فرص الخير هي العناصر النورية التي لو رجحت حملته إلى الجنة، بينما فرص الشر هي العناصر النارية التي لو تكاثفت هوت به إلى جهنم وساءت مصيرا.

ولا أعرف شيئا يجري فيه تحول ذاتي كالإنسان. إنه يتمحض بالتالي للجنة أو للنار، هنالك لا يعود مختارا، ولا يعود يملك حرية اختيار واحد من النجدين، بل يبقى كما اختار أولاً: أما إلى جنة النور خالدا فيها، أو إلى جهنم النار خالدا فيها، أو لبعض الوقت.

كيف يتم اختيار الشر؟ أنه ليس بحاجة إلى العزم والوعي، بل يكفي الغفلة والاسترسال سبيلا يؤدي به إلى النار، كما لو تسلق الإنسان الجبل لا يحتاج سقوطه في الوادي إلى إرادة وحكمة، بل ليدع نفسه لحظة فسوف نراه في الوادي مهشما بعد لحظات، بينما الذي يختار الجنة عليه أن يتسلح بوعي الذات وعزم الإرادة، ولعل هذه البصيرة هي محور سورة البلد.

ذلك أن القسم الأول: من السورة يبصرنا بأنفسنا، وأننا في كبد (الأرض والمكان)

وعلينا وعي ذلك حتى نتحدى الصعاب بعزم الإرادة، ونعرف أن الله قادر علينا فنراقبه، وخبير بنا فلا نخدع أنفسنا، خصوصا عند الإنفاق، فنزعم: أننا أهلكنا مالا كثيرا.

أما القسم الثاني: فيذكرنا بضرورة اقتحام العقبة، وتجاوز المنعطف الخطير الذي يجد الإنسان نفسه بين أمرين: بين السقوط في أشراك الهوى أو التحليق في سماء الحق.

وبعد أن يبين مثلين لاقتحام العقبة هما: فك رقبة، والإطعام في يوم ذي مسغبة، يهدي إلى قمة التحول الإيجابي عند البعض المتمثلة في الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة.

كما يشير في السياق في خاتمة السورة إلى التحول السلبي عند البعض الآخر متمثلا في الانحياز إلى المشأمة حيث النار المؤصدة.

91

سورة الشمس

* التزكية كمال النفس

عبر خمس عشرة آية، وثلاثة مقاطع تبصرنا سورة الشمس بأنفسنا، وكيف نحقق لها الفلاح ونمنع عنها الخيبة.

محور السورة -في ما يبدو- الآيتان: (٧-٨) حيث توحيان بالبصيرة النافذة: أن بلوغ قمة الكمال عند النفس لا يتم إلا بالتزكية، بينما الفشل ينتظر من يدس نفسه في وحل الجاهلية وركامها.

وقبل بيان هذه البصيرة تحملنا الآيات الأولى إلى آفاق السماء والأرض، وظواهر الليل والنهار لكي نجعل من العالم المحيط مدرسة لنا ومحرابا.

وبعد بيانها تضرب الآيات الأخيرة مثلا عليها بواقع ثمود، الذين حملهم طغيانهم إلى تكذيب رسول الله وعقر الناقة التي كانت لهم آية مبصرة.

والسورة عموما تعمق حس المسؤولية في نفس الإنسان، ومن عجب القول أن بعض المفسرين المتأثرين بالفلسفة اليونانية زعموا أن السورة تدل على الجبر، وهكذا حملوا ربهم سبحانه مسؤولية ضلالهم وفجور كل قوم ضال. كلا.. إن الإنسان قد سويت نفسه، وألهمت الفجور والتقوى، وأمر بالتزكية، فمن قام بها أفلح، ومن دس نفسه خاب وخسر أهدافه.

92

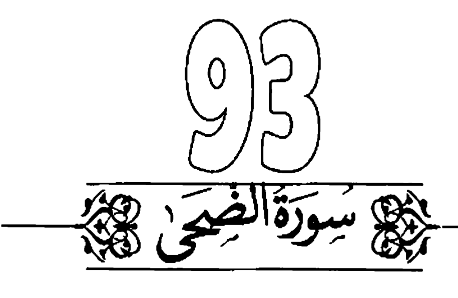
سُورَةُ الليـل

* من يزرع الريح يحصد العاصفة

ليس الذكر والأنثى سواء، ولا الليل والنهار، كذلك فعل الخيرات وارتكاب المآثم ليسا بسواء. أويحصد الشعير من زرع القمح، وهل يحصد من زرع الريح سوى العاصفة؟!.

النفس البشرية تهوى الخلط بين الحق والباطل لتتهرب من المسؤولية ولكن هيهات، وتتواصل آيات الذكر وسوره للفصل الحاسم بينهما، ويبدو أن محور هذه السورة التذكرة بهذه البصيرة، وأن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فإن الله يوفقه للحياة اليسرى، بينما الذي كذب بالحسنى فيدفعه الله للحياة العسرى.

ونتائج التكذيب تمتد من الدنيا حتى الآخرة، حيث النار الملتهبة تنتظر المكذبين، أما الذين يتقون ربهم، ويؤتون أموالهم سعيا وراء التزكية فإن عاقبتهم الحسنى، ولأنهم ابتغوا رضوان ربهم فإن الله يعطيهم من النعم حتى يبلغون الرضا.



* دور القائد في نشر السعادة

من رحم الظلام يتنفس الفجر، ومن رحم المأساة يولد أمل التغيير، وعندما تأخر الوحي قليلا، وزاد قلب الرسول شوقا، ونفوس المؤمنين وجلا، وأراجيف المشركين انتشارا، هنالك جلجل الوحي في هضاب مكة من جديد، وشق فجره طريقه إلى القلوب العطشى، إلى النور والدفء والحنان، فاستقبلته بحفاوة ووعته بعمق.

هكذا رحمة الله تهيئ الظروف من قبل لتكون أوقع أثرا وأبلغ نفاذا، أرأيت اليتيم حين تتناوله يد الرحمة كيف يحن على الأيتام والمحرومين، أورأيت الضال حين يهتدي كيف يمتص قلبه الهدى كما تمتص حبة التراب الندى في ضحوة الهجير؟! هكذا يرضي المؤمن بالقدر، فلولا الليل إذا سجى لم يعرف القلب قيمة الضحى، ولولا العطش لم يتلذذ الكبد بشربة ماء هنيئة. ولولا التحديات لما حدث التطور ولولا المآسي لما قامت القدرات.

ويبدو أن محور سورة الضحى كما سورة ألم نشرح هي هذه البصيرة التي مهدت لها بالقسم بالضحى، والليل إذا سجى، ثم ببيان أن تأخير الوحي لم يكن للوداع، بل لحكمة بالغة قد تكون تكريسه في النفوس، ثم ذكرت الرسول ﷺ كيف من الله عليه بألوان النعم بعد الصعاب، عليه أن يسعى لإسعاد الناس وهدايتهم بكل ما أوتي من حول وقوة.



* أركان العظمة النبوية

جاء في النصوص المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام إن هذه وما سبقتها كسورة واحدة، يجوز الجمع بينهما في صلاة فريضة بخلاف غيرها، فقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «لَا تَجْمَعْ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ وَأَلَمْ تَرَ كَيْفَ وَلِإِيلَافِ قُرَيْشٍ»[1] وذلك لتعلق إحداهما بالأخرى، والسؤال: كيف؟.

إن الله سبحانه عدد طائفة من مننه على الرسول في السورة الأولى، وبين طائفة أخرى في الثانية، ولعل السورة الأولى تتصل بالنعم الشخصية، بينما الثانية تبين النعم المتصلة به كصاحب رسالة.

ويؤيد الوصل بينهما ما روي عنه صلى الله عليه وآله من سبب نزول السورة حيث قال: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَددتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا، قُلْتُ: يَا رب! اتخذتَ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَسَخرتَ مَعَ دَاود الجِبَال يُسَبِّحن، وَأَعْطَيتَ فُلاناً كَذَا..، فَقَالَ عَزَ وَجَل: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيتُك؟! أَلَمْ أَجدكَ ضَالاً فَهَدَيْتُك؟! أَلَمْ أَجدكَ عَائِلاً فَأَغْنَيْتُك؟! أَلَمْ أَشْرح لَكَ صَدرَك؟! أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَمْ أُوتِ أَحَداً قَبْلك، خَوَاتيمُ سورةِ البَقَرَة؟! أَلَمْ أَتخذكَ خَليلاً كَمَا اتخذتُ إِبْرَاهِيم خَليلاً؟! قُلتُ: بَلَى يَا رب»[2].

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٣.
(٢) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص١٠٢.

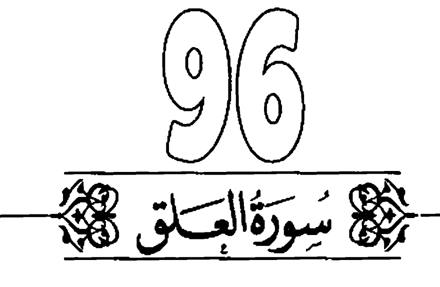
95

سُورَةُ التِّين

* الإنسان الكائن المكرم

من لا يضع معلوماته في إطار علمي رصين لا ينتفع بها شيئا، والقرآن الكريم يمنحنا ذلك الإطار. أرأيت لو لم تعرف نفسك من أنت؟ من أين جئت؟ وإلى أين تذهب؟ وماذا يصلحك؟ وماذا يضر بك؟ كيف تستطيع أن تنتفع بمعلوماتك عما حولك؟ فهل تفيدك معرفة الدواء لو لم تعرف المريض ومرضه؟.

وسورة التين تهدينا إلى بصيرة الذات.. والتي هي تمهيد لبصائر الحياة، بل هي خلاصتها.



* العلم والإيمان علاج الطغيان

كان النبي محمد ﷺ يقلب وجهه في السماء ينتظر ساعة الانطلاق الكبير، كان يعلم أنه رسول الله، ولكن متى يتنزل عليه الوحي، ليأمره بأن يصدع بالحق، هذا الذي كان يبحث عنه بشوق كبير.

وكانت الكعبة تستصرخه لينقذها من الصخور الصمّاء التي نُصِبت من حولها وعُبدت من دون الله جهاراً..

وكانت الإنسانية المعذّبة في أرجاء الجزيرة تنتظره بفارغ الصبر.

وهكذا.. جلجل الوحي في جبال مكة، وهبط الأمين جبرئيل، وحمل معه نوراً يتألق سناه عبر الزمن.

فنزلت سورة (العلق) ولعل الوحي يفتتح على البشرية عهد القراءة باعتبارها ظاهرةً ملازمة للإنسان بعد عهد النبي ﷺ.

ولكن؛ ماهو محور سورة العلق؟ إن في نفس ابن آدم كبر دفين، يستثيره شعوره بالغنا، ويذهب به إحساسه بالحاجة، وإذا لم ينتبه الإنسان إلى هذا الداء العضال فإن نعم

الله عليه لا تزيده إلا طغياناً، والطغيان مطية الهلاك.

و أما إذا تذكر الإنسان، وعرف أنه بذاته جاهل فقير مسكين مستكين، وأن الله هو الـذي عَلَّمَ بالقلـم، وأنه حينما يقرأ فإن الله هو الأكرم، أهل الحمد والكبرياء، وليس هذا المتعلم الذي يطغى بعلمه، وعرف أن الثروة نعمة من الله لا بد من حمدا لله عليها وشكره لا الطغيان بها، ومواجهة الحق بها، وكذلك الجاه والعشيرة.

لو عرف ذلك؛ اطمأنت نفسه، بل استطاع أن يعالج -بإذن الله- كبر ذاته عبر نعم ربه. فكلما زادت النعم ازداد شكراً لله وتواضعاً لعباد الله، وأداءً لحقوق الله.

هكذا يبدو محور سورة العلق؛ معالجة طغيان الإنسان عندما يحظى بنعمة العلم أو المـال والجاه، معالجته بالمزيد من التعبد. وهكذا تختم السـورة بالأمر بالسـجود الذي هو معراج الإنسـان إلى ربه.



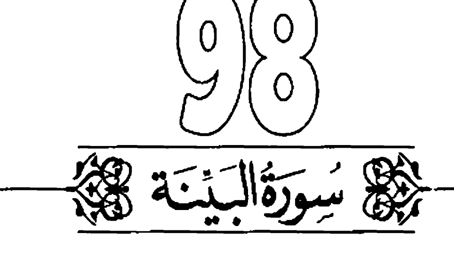
* ليلة القدر مهرجان الصالحين

لأن الحقيقة واحدة تنبسط فتصبح مفصلات، وتتركز فتكون هدى وبينات، فإن القرآن قد يبسطها عبر آياته كما في سورة البقرة، وقد يجملها في سورة قصيرة كما في سورة القدر التي لو تدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.

لقد أنزل الله كتابه في ليلة القدر التي هي عظيمة لا يكاد يحيط العقل بأبعادها، لأنها خير من ألف شهر. لماذا؟ لأنها ميعاد الإنسان الصالح مع ملائكة الله وأعظم منهم مع الروح.. وهم حين يهبطون ينزلون بها يقدر الله من كل أمر.

في هذه الليلة التي تتواصل ملائكة الله والروح مع عباد الله الصالحين في الأرض تتجلى رحمة الله وبركاته ومغفرته التي تتمثل في كلمة (السلام) وتستمر الليلة حتى مطلع الفجر.

وهكذا بينت هذه السورة كيف يتم الاتصال بين الإنسان وبين ملائكة الله والروح.. وهذه الصلة التي تتجلى في القرآن كما في الأقدار الحكيمة والبركات هي من أعظم الحقائق القرآنية.



* الرسول ورسالة التوحيد، والوحدة

كلا.. لـن يقدر الإنسـان الخروج من نفق الضلال بغير هـدى من الله (البتة)، ولا يكره الله الناس على اتباع البينة حينما تأتيهم، فترى بعضهم يهتدون بها، وأكثرهم يضلون عنها بأهوائهم وهكذا اختلفوا.

كلا.. ليسـت خلافاتهم في البينة، لأن البينة قـد أمرتهم بعبادة الله وحده بعيدا عن أي خلاف.

حـول هـذه المحاور الثـلاث جاءت آيات سـورة البينة التي خصـت بصائر كثيرة فصلت في الكتاب الكريم، وأوضحت كذلك صفات البينة: إنها تتمثل في رسـول يحمل من الله كتاباً طاهراً من أي زيف أو باطل، وهو يدعو إلى توحيد الله الخالص من أي شائبة مادية.

وهـذا الخلاف الذي انتشر بينهم يرجع إلى القرآن، وهو يحكم بأن شر البرية الذي يكفـر برسـالات الله، سـواء كان من أهل الكتـاب أو من المشركين، وأن خـير البرية هم المؤمنـون الذين يجزيهم الله بجنات عدن، ويـرضى عنهم، ويرزقهم الرضا عنه، كل ذلك لخشيتهم من الله.

99

سورة الزلزلة

* قانون الجزاء الإلهي

ليست الحياة الدنيا التي تملأ أعيننا وقلوبنا بخيرها وشرها، بأنظمتها وأحداثها وظواهرها.. سوى ظلال باهتة لذلك الحَيَوان العريض الواسع الخالد، وإنما جيء بنا إلى هذه الدنيا لنستعد فيها، ونتزود منها بالصالحات.

ونحن في الدنيا نشهد أهوالاً تفزعنا وتكاد تقلع أفئدتنا، ومنها الزلازل العظيمة التي قد تبتلع في لحظات قليلة مدينةً كبيرة بناها الإنسان عبر قرون متمادية، وإنها -على ذلك- ليست سوى زلزال محدود يضرب ناحية من الأرض، فكيف إذا كان زلزالاً شاملاً للأرض كلها؟! فأي منظر رهيب، أم أي فزع عظيم، أم أية داهية كبرى يكون ذلك الزلزال؟!.

إن سنة الله في الجزاء تتجلى في البصيرة التي تبينها سورة الزلزلة؛ إن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وإن من يعمل مثقال ذرة شراً يره؛ لكي لا يستهين الإنسان بأعماله التي تتجسد له يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الذي تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض ما في جوفها من أجساد ومعادن وأجسام مختلفة، ويستبد بالإنسان حيرة ويتساءل: ما لها؟وترى الناس يصدرون في مذاهب شتى، حسب أفعالهم وحسب درجاتهم.

وفي ذلك اليوم، لن يضيع حتى أصغر ما يتصوره الإنسـان من عمل، من وسوسة الصـدر، حتى لمحة بصر، ونصف كلمة ونفضة من حركة.. فكلها مسـجَّلة، وكلها يراها الإنسـان.. من خير أو شر.

وإذا كانـت كل ذرّة مـن خير تؤثـر في مصيرنا، فعلينا أن نزداد منها أنّى استطعنا. وإذا كانت كل ذرَّة من شر نحاسب عليها، فعلينا أن نتحذَّر منها.

100

سورة العاديات

* درس في الإيثار والتضحية

لكـي نفقه كرامـة المجاهدين على الله عز وجل، وعظمـة دور خيلهم العاديات في سبيله، يُقسم القرآن بها، لأنها من وسائل حمل نور الإسلام إلى الآفاق، وهي تحمل صفوة عباد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.

إن الخيل العاديات قد تجاوزت الحد في السرعة، اشتياقاً إلى إلحاق الهزيمة بأعداء الله وتحقيق الهدف الرباني.

بعد أن يصور السياق ببلاغة نافذة معركة منتصرة، يمتطي المجاهدون فيها الخيول التي تعدو وتحمحم، وتنقدح من حوافرها الشرار، ثم تغير مع بواكير الصباح على العدو، مثيرة غباراً كثيفاً، ثم تبلغ وسط الهدف.

بعـد أن يصـور السـياق ذلك ويقسـم بـه إكراماً لـه (لأنه غايـة الجود والشـهامة والإيثار) يبين أن الطبيعة الأولية للانسـان (قبـل أن يتربى ويتزكى) هو النكد، والبخل، وحب الخير لنفسـه، والاسـتئثار به، ولكن متى يفقه حقاً خطأه؟ عندما تتكشـف القبور عما سترتها من أجساد، وتتكشف الصدور عما خبأتها من أسرار.. يومئذٍ يعرف الإنسان أن ربه خبير به.

هكـذا تربي هذه السـورة الكريمة التي جاء في بعـض الأحاديث أنها بمثابة نصف القرآن، تربي الإنسان على الإيثار والتضحية في سبيل الله.

101

سورة القارعة

* وقرعت ساعة القيامة

خلق الله كل شيء بمقدار، كل ما حولك موزون بدقة، فهل يسمح للإنسان أن يعبث بحياته بلا نظام ولا حساب. كلا.. إن حياته هي الأخرى محسوبة عليه، كل وسوسة وفكرة وعزم، كل كلمة وكل حركة مسجلة عليه، وعليه أن يزيد من صالح أعماله ما يثقل ميزانه، وإلا فإن مصيره إلى نار حامية، متى؟ عندما تقرع ساعة القيامة، وعندها يكون الناس كالفراش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وتكون الجبال كما الصوف المنفوش.

102

سورة التكاثر

* ابن آدم بين الحرص والموت

بين حاجة الإنسان وحرصه مسافة كبيرة، وما يلهيه عن ذكر الله، وعن المكارم ليست حاجته، بل حرصه الذي يبعثه يحرضه على التكاثر في الأموال والأولاد، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله وولده شيئا، وحوسب على نعيم الله، وتلاشى عنه ما يلهيه، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين. وهكذا تعالج السورة حالة التلهي بالدنيا عبر التذكرة بالموت ثم العقاب والحساب.

103

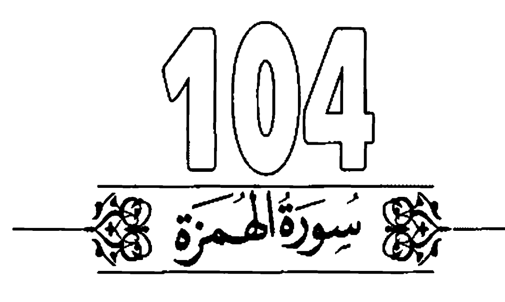
سُورَةُ العَصرِ

* الإيمان ينتصر للإنسان

يزعم ابن آدم أنه كلما طال عمره كبر وازداد.. بينما الحقيقة عكس ذلك تماماً، فكلما مضى من عمره شطرٌ، اقترب منه أجله، وتناقص رأس مال حياته، ونقص ما تبقى منه، فزيادة المرء في دنياه نقصان، وهو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأس ماله كل لحظة.

لكي يتبصر الإنسان واقع الزمن، ويعلم كيف يهدم الزمن عمره لحظة بلحظة، ثم لكي يعرف بماذا يقاوم خسرانه،جاءت سورة العصر عصارةً لبصائر الذكر في هذا الموضوع الأساسي، الذي لو وعاه الإنسان لوعى حقيقة عمره،وحقائق العالم المحيط به.

قَسَماً بالزمن، إنك لولا الإيمان في خسران، وكل لحظة لا إيمان ولا عمل صالح فيها فهي جزء ضائع من كيانك. ولكن الإنسان في غفلة عن هذا العدو الخطير، بيد أن المؤمنين يُذكِّر بعضهم بعضاً بالحق، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر.



* التكبر خسارة عظمى

في تسع آيات مباركات تبين سورة الهُمَزة حالة المتكبر الخاسر التي تخالف حالة المؤمن المتواصي بالحق والصبر، حيث تتجلى صفة الخسارة. فمن يزعم أنه قد ربح الدنيا، يجمع مالها ويعدده، ويستكبر على الناس بهمزهم ولمزهم. وأية خسارة أعظم من نبذه في النار تحطم عظامه، أوليست تتقد وتتطلع على الأفئدة؟ إنها حقاً سجن مغلق في صورة أعمدة ممددة.

إنه الويل واللعنة لكل أولئك الذين يهمزون الناس في وجوههم علوّاً في الأرض واستكباراً، ويلمزونهم -إذا غابوا عنهم- إفساداً في الأرض وفتنة، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أو يدّعي الإيمان، فليست هذه صفات المؤمنين، وليست بين الله وبين أحدٍ من خلقه صلة قرابة أو رحم تمنعه عن عقابه بسبب هذه الأفعال الإجرامية.

105

سُورَةُ الفِيل

* الأمن والإيمان

كثيرة عبر التاريخ التي لا تزال آياتها مرسومة على صفحات الزمن وفي ذاكرة الأجيال، ولكن قليلاً هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم إلى كهف التأريخ ليدرسوه بإمعان وتفتّح، ويعتبروا بحوادثه..

وكانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قريش ولاذت بالجبال فراراً لاتزال عالقة في أذهان أهل مكة، إلاّ أن قريشاً التي أمنها الله من تلك الداهية كفرت بأنعم الله، وجحدت آياته، فجاء الوحي يذكّرهم بذلك.

فلقد كانت الجزيرة العربية تعجّ بالصراعات الدموية...، وبقيت مكة بلداً آمناً كمثل جزيرة ساكنة في بحر هائج، حتى أن ملك اليمن (أبرهة) عندما سعى إلى غزوها رد على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجارة من سجيل، أليس في ذلك دليلاً على حرمة البيت، وآية لإكرام الله لأهله، ونعمة عظيمة ينبغي أن يشكروا الله عليها بالإيمان به وبرسالاته؟.

106

سورة قريش

* بشائر الحضارة الإسلامية

إنها حقا إرهاصات رسالة، وبشائر حضارة، حيث كانت في قريش بقية من آثار الحنفية الإبراهيمية. ألم يحتفوا ببيت الله الحرام الذي آمنه الله من الدواهي، ألم يقدر الله أن يبعث فيهم رسول الله فيكونوا حملة رسالاته إلى الآفاق، ألم يجعل أئمة المسلمين من صفوة قريش بني هاشم، وصفوة الصفوة أولاد محمد وعلي عليهم السلام.

بلى، لقد آلفهم الله حول بيته، وآلفهم لرحلة الشتاء والصيف، وهيأ لهم مدينة راقية بين مثيلاتها في الجزيرة، إذاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، ويتعالوا عن خرافات الجاهلية التي لا تتناسب ومستوى حضارتهم، أوليس رب هذا البيت قد أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف؟! فلماذا البقاء مع أساطير التخلف والخوف؟.

وتأتي السورة متممة لبصائر سورة الفيل السابقة حتى قيل: أنهما معا سورة واحدة.

107

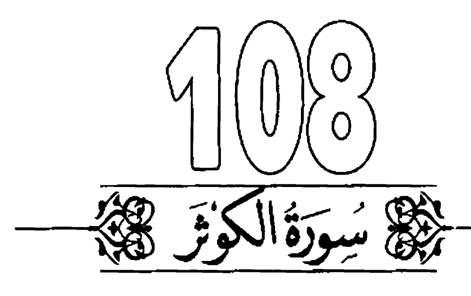
سورة الماعون

* المسلم بين القول والفعل

القـرآن ميزان ومن دونه لا يملك الإنسـان بصيرة بنفسـه ليعـرف من هو وكيف هو؟ أليس حب الذات يجعله يزعم أبدا أنه على صواب؟! بينما هنالك مقاييس إن طبقت عليه كان صالحا، وإلا، لا يغنيه التنمي والتظني والادعاء شيئا.

ولا يكفي أن يدعي أحد أنه مسلم، وأنه يؤمن بالآخرة، إنما يجب أن يصدق عمله قولـه. وسـورة الماعون تذكرنا بهـذه الحقيقة، وتبين صفـات المكذب بالديـن وإن ادعى التصديـق بـه وهي: طرد اليتيم، الرغبة عن المسـكين، الاسـتهانة بالصـلاة والرياء فيها، ومنع الخير عن أهله.

وهكذا تأتي السورة المباركة فرقانا يميز المؤمن حقا بالدين والمكذب به.



* ذرية الرسول ﷺ أمل الدين

يجمل القرآن في ثلاث آيات قصار معارف ربانية يبينها في مفصلات السور، فإذا بهما معاً معجزة في الحكمة والخطاب.

فهذا القرآن، وتلك الذرية الصالحة الذين يحملونه الخيرة بعد الخيرة، وتلك الأمة التي يباركها الله بالقرآن والعترة، إن كل ذلك كوثر أعطاه الله لمصطفاه الكريم محمد بن عبدالله ﷺ ومن يملك هذا الامتداد الميمون كيف يكون أبتراً؟!.

إنما الأبتر الذي يشنأ محمداً، وينقطع حسبه ونسبه، وتباد جاهليته، كما ظلام الليل يتبدد مع بزوغ الفجر.

وشكرا لنعمة الكوثر واستزاده منه يصلي الرسول لربه وينحر، ونصلي وننحر.



* براءة التوحيد من الشرك

هل تدري لماذا اعتبر الرسول الأكرم -حسب رواية معروفة- سورة الكافرين ربع القرآن؟ ربما لأن نصف القرآن أو يزيد يهدي إلى حقائق التوحيد، والتوحيد -بدوره- يتشكل من جزأين: الإيمان بالله، ونفي الشركاء، ونجد في هذه السورة عصارة رفض الشركاء في ربع القرآن.

وتتكرر في هذه السورة كلمات البراءة مما يعبد المشركون، وأن الرسول لن يؤمن بما يؤمنون به من الأصنام، لينفصل وبوضوح خط التوحيد عن خط الشرك.

110

سورة النصر

* منهاج النصر الإلهي

بعد جهاد دائب، وانتظار طويل يأتي نصر الله والفتح، الذي لا يبتغي المؤمنون من ورائه سوى هداية الناس إلى الحق.. وهكذا تراهم فرحين حين يجدون الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. إنها بشارة عظمى ولكنها لن تدعوهم إلى الغرور، بل يتخذونها معراجا روحيا لنفوسهم الوالهة بحب الله، فيسبحونه ويحمدونه ويستغفرونه.

والتسبيح سبيل معرفة الله والتقرب إليه والحمد وسيلة منع الغرور والكبر عن النفس، والاستغفار طريق تكميل النواقص.. وهكذا توجز هذه السورة الكريمة برنامج المؤمن عند النصر وعند أي فضل يصيبه من عند الله.

111

سُورَةُ المَسَدِ

* عاقبة الكفر الخائن

لقد قطع رحمه وخان، وكان عليه أن يدافع عن ابن أخيه في عرف العرب وقيمهم على الأقل، قطع الله يديه وقطعه، وأهلكهما وأهلكه.

فهل نفعته أمواله التي من أجلها خرج على أعراف العرب وقيم بني هاشم. كلا.. كان يُدعى أبا لهب، فأمسى يَصلى لهباً، وهكذا امرأته التي مشت بالنميمة، وأشعلت نيران الفتنة وكان عنقها محاطاً بحبل من مسد ومن ليف النخل.

112

سُورَةُ الإِخلاص

* حقائق العرفان

هل لله نسب، وماذا أعد الكتاب للعلماء المتعمقين في حقل التوحيد؟ وكيف تختصر بضع كلمات بصائر الوحي في معرفة الرب، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.

بلى، إن سورة الإخلاص تنسب ربنا إلى التوحيد النقي، الذي يروي غليل المتعمقين في آخر الزمان، وتختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.

إنها تأمرنا بأن نقولها صريحة ونقية: الله أحد.

وماذا تعني الأحدية؟. تقول السورة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الذي لا جوف له ولا أجزاء، ونتساءل عن تأويل الصمد؟. فتقول الآية التالية: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فلا تدخله أجزاء من خارجه سبحانه، ولا تخرج منه أجزاء إلى الخارج سبحانه، وتستفهم: ما حقيقة أحديته وصمديته، وتعاليه عن التناسل، وتقول الآية الخاتمة، حقيقة ذلك: أنه لا شبيه له ولا نظير، ولو كانَ والداً لكان ولدهُ شبيههُ وكفوهُ، وكذلك لو كان مولوداً لكان والده أعلى منه أو مساوياً له. سبحانه عن مجانسة مخلوقاته.

113

سُورَةُ الفَلَق

* جرعة شجاعة وومضة عزيمة

عندما تتزاحم الوساوس والمخاوف على فؤاد الإنسان، ويحتاج إلى جرعة شجاعة، وومضة عزيمة، هنالك يقرأ سورة الفلق، لتشيع بصائرنا روح السكينة في روعه، ونور العزيمة في قلبه، ليستعيذ عبرها بالله خالق كل شيء من شر كل ذي شر، ومن شر طارق الليل حين يقتحم، ونافثة العقد حين تبث الفساد والشر بكلماتها المسمومة، وأفكارها السلبية، وسهام سحرها، وعينها الناضلة. وأخيرا من شر الحسد حين يعتمل في فكر الحاسد.

114

سُورَةُ النَّاس

*** الاستعاذة من الضلالة**

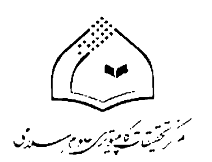
ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيذ بالله من شر الخلق، وتذكرنا هذه السورة الكريمة التي يختم بها القرآن الكريم كيف نستعيذ الله من الضلالة.

فالشر -في الأولى- شر مادي فيما يبدو، والشر هنا معنوي، يؤدي إلى ألوان من الشر في الدنيا والآخرة، ذلك الخطر يتمثل في الوسواس الخناس، الذي يفقد الإنسان عزيمته وحكمته، والذي قد يكون نابعاً من الجن والشيطان، الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم، أو من الناس الذين يتأثرون بإلقاءات الشيطان.





* المحتويات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی